الجمهورية الجزائرية الديمقراطيه الشعبيه

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- قسنطينة -

كلية الآداب و العلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية

الرقم الترتيبي :...../2001.

رقم تسجيل الطالب : 94/05

عنـــــوان البحـــــث

الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم نشأته و تطوره

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في النقد الأدبي

شعبة اللغة العربية و الدراسات القرآنية

من الطالب : قربوع عزوز

أمام اللجنة	الاسم و اللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
الرئيس	د. الربعي بن سلامة	أستاذ التعليم العالي	جامعة منتوري . قسنطينة
المقرر	د. جمال شوالب	أستاذ مساعد مكلف بالدروس	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -
العضو	أ. أمال لواتي	أستاذ مساعد مكلف بالدروس	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة -

نوقش يوم :19-02-2001

السنة الجامعية : 2000-2001

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين .

ربِ اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واحلل عقدةً من

لساني يفقهوا قولي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــــــداء

إلى والـــدي الكريمين ؛ رمز العطـــاء ، ومصدر العطف والحنـــان ...

إلى اخوتي وأخـــواتي ...

إلى أســـاتذتي ، وأصدقـــائي ، وأحبـــتي ...

أهدي هذا العمل عربون حب ووفـــــاء .

قربـــوع عزوز .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

على كثرة الدراسات والبحوث الدائرة موضوعاتها حول النقد العربي ، فإنه لايزال في حاجة ماسة إلى من يرجع إليه ليحمي الكثير من المسائل والحقائق ، ويعيد النظر في قضايا تناولتها أقلام الباحثين ، ليصحح مـــا قد يقعون فيه من الأخطاء ، أو يخصص ما قد يعممونه من الأحكام ؛ أو يقيد ما قد يطلقونه مـــن الـــرؤى والتصورات ؛ أو يزيد في إيضاح ما يحتاج إلى تفصيل وتوضيح .

إن جهود من سبقونا أسهمت في إخراج النقد الأدبي عند العرب من الخفاء إلى الجـــلاء ، وأعطـــت تصورا عاما لمعالمه وسماته ، ورجاله وكتبه .

إلا أن المكتبة النقدية لا تزال تفتقر إلى إسهامات أخرى، تزيد في بناء تصور متكامل موضوعي لتراثنـــا النقدي العربي .

من هنا تراءى لنا انطلاقا من إيماننا بمسؤوليتنا الكاملة تجاه هذا الميراث الضخم – محاولة كشف اللثـــام عن اتجاه غفلت اتجاهات أخرى عند مؤرخي الأدب ودارسيه ، فيبدو للقارئ وكأنه معدوم ، ولا أثر لمقاييســـه عند العرب ؛ مع أن النقد عندهم بدأ –أول ما بدأ – في خطواته الأولى يسير على هدي مما تمليه معايـــــيره ، فعلى طول تاريخ هذا الاتجاه في النقد عند العرب لم تخصص له دراسات وبحوث ، هذا الأخير هـــو الاتجـــاه الأخلاقي ...

ومن هنا أيضا رأيت لزاما علي أن أعقد العزم ، وأتحشم الصعاب في سبيل تسليط الأضواء على هـذا الاتجاه النقدي المهم ؛ وبالفعل فقد تأكدت رغبتي باختياره كموضوع لهذه الرسالة .

وبعد بحث ليس بالقليل اقتنعت بالمنهج الذي ينبغي علي انتهاجه لإنجاز هذا البحث .إذ رأيت من الضروري اعتماد المنهج التاريخي الذي يعينني على تتبع النقد الخلقي عند العرب ، عبر العصور المختلفة وصولا إلى القرن السابع الهجري ، حيث توقفنا مع حازم القرطاجني الذي يمثل القمة في هرم النقد العربي ، وقد فرضت علي طبيعة الموضوع التعليل لظهور هذا الاتجاه وقوته في مرحلة معينة ؛ أو ضموره في أخرى وضعفه فيها ؛ الأمر الذي دفعنا للغوص في الحياة العامة من كل عصر ، سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية وعلمية ، للتمكن من التعرف على الظروف والملابسات التي دفعت نقاد مرحلة ما لتبني منحى نقدي أو آخر هذا من جهة ؛ ومن جهة أخرى وقفنا عند آراء الكثير من النقاد في العصور المختلفة بالتحليل والشرح ، صنفنا من خلالها من كان في صف النقد الخلقي ، ومن كان في غيره .

فكان عنوان البحث بناء على ذلك " الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم : نشأته وتطوره ".

وكان منهجي في دراسته منهجا تاريخيا تحليليا .

وقد أدرنا هذه الدراسة على خمسة فصول ، ومدخل ، تناولنا فيه بعض المسائل المهمة التي ينبغي الانتباه إليها قبل الخوض في صلب الموضوع، كالفرق بين النقد الديني والنقد الأخلاقي ، و مصدر الأخلاق و مفهوم النقد الخلقي...

أما الفصل الأول : فعقدناه للتحدث عن الاتجاه الأخلاقي في النقد الجاهلي ، حيث تعرفنا على الحالة الدينية والأخلاقية والأدبية للجاهليين ، لننتقل بعد ذلك لإيراد شواهد نقدية من هذا العصر –للوقوف على الاتجاهات النقدية المميزة له ، إن وجدت –

وأما الفصل الثاني : فعساه لتناول الاتجاه الأخلاقي في نقد صدر الإسلام حيث مهدنا له بمعالجة مسكنة الإسلام والشعر . ثم حاولنا التعرف على المنحى النقدي العام لتلك المرحلة من خلال الآراء النقدية

لبعض من أولوا عناية لهذا النشاط الفكري ؛ كالرسول – صلى الله عليه وسلم- وخلفائه الراشدين وبعض الصحابة عليهم الرضوان ؛ لنستعرض بعد ذلك التحولات السياسية والفكرية والأدبية في القرن الأول الهجري وأثرها في النقد . حيث تعرفنا على ملامح النقد في النصف الثاني من هذا القرن من خلال بعض الشخصيات النقدية والأدبية في تلك المرحلة.

أما الفصل الثالث : فخصصناه للتعرف على مظاهر الصراع بين الأحكام الفنية والأخلاقية في القرنين الثاني والثالث الهجريين . مهدنا لهذا الفصل بأهم مميزات الساحة السياسية والعلمية والأدبية في العصر العباسي؛ ثم أفردنا ما تبقى من الفصل لدراسة أشهر نقاد هذه المرحلة للتعرف على معيار التقدم الشعري عندهم ، وسمحنا لأنفسنا في ختام هذا الفصل لتناول نقاد من القرن الرابع الهجري للوقوف على أن التذبذب الذي لوحظ فيما سبق ، بدأ في الانحصار ، وعادت للنقد الخلقي قوته على يد رواد النقد في هذا القرن.

وبانتهائنا من الفصول الثلاثة نكون قد أعطينا صورة عن الاتجاه الأخلاقي في البيئة المشرقية ، الأمر الذي جعلنا نعقد الفصل الرابع : للحديث عن الاتجاه الأخلاقي في المغرب والأندلس . وأول ما شرعنا به في هذا الفصل ، هو إلقاء نظرة موجزة عن الخصائص التي تميزت بها الحياة بمختلف مناحيها في هذا الجزء من العالم الإسلامي ، بعد هذا التمهيد ، انتقلنا للتعرف على اتجاه الفكر النقدي في القرنين الخامس والسادس من خلال نقاد المغرب والأندلس .

أما الفصل الخامس : والأخير ، فعقدناه لشخصية مرموقة في النقد العربي ، عرفت بنزعتها الأخلاقية ، وأعني به " حازم القرطاجني " . حيث تعرفنا على ظروف نشأته وطبيعته الفكرية ، كما تعرفنا على جوانب أخرى من حياته ، أسهمت في بناء شخصيته المتميزة ، وخصصنا ما تبقى من الفصل للاطلاع على بعض آرائه وتصوراته النقدية ؛ حيث عرضنا لها بالشرح والتحليل لاستنتاج المنزع الفكري الذي انطلق منه هذا الناقد .

وختما هذا البحث بخلاصة ضمّناها أهم ما توصلنا إليه في هذه الدراسة.

و لست أدعي أني أحطت بهذا الموضوع من كل جوانبه ، و أتيت على كل صغيرة و كبيرة فيـــه ، و إنما حاولت أن أنير دروبه الطويلة ، حتى يتسنى بعد ذلك الوقوف على مسائل أخرى تخص هذا الموضوع .

و بعد ، فهذا جهد المقل ، فإن حقق ما خططت له في البداية ، فهذا بفضل الله عز وجل و رعايـــة الأستاذ : الدكتور : جمال شوالب ، الذي أحاطني بنصحه و إرشاده طيلة إنجاز هذا البحث ، و إن قصر عـــن بلوغ الغاية فحسبي أني بذلت و سعي من الجهد ، و سلخت سنين من عمري في سبيل إخراجه إلى النور ، بعد أن كان فكرة في الذهن .

و لا يسعني في النهاية إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أمدني بالعون و المساعدة لمواصلة هـــذا المشوار الشاق فإلى كل الأساتذة و الزملاء أقدم عرفاني بعطائهم و جميلهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مدخل:

ليس من غرض الدراسة في هذه الفصول أن تتابع معنى كلمة " النقد " أو تبحث عن أصل نشأتها في تاريخ النقد الأدبي عند العرب .

كما انه ليس من غرضها هنا الخوض في قضايا النقد القديم ورجاله الذين بذلوا جهدهم حتى وصلوا به إلى أن أصبح علما قائما بذاته ؛ فإن لذلك بحوثًا ودراساتٍ متخصصةً كثيرةً أشبعتِ الموضوعَ درسًا واستقصاءً وإحاطةً .

وإنما غرضُ الدراسة في هذه الفصول محاولةُ رصد الاتّجاه الأخلاقي الذي عرفه النقدُ العربي قديمًا ، والاقترابُ من الأسباب الحقيقية التي جعلت هذا الاتّجاهَ يسود في مرحلةٍ دون أخرى .

وليس معنى هذا الكلام أنّ الدارسين أغفلوا الحديثَ عن هدا الاتجاهِ ، بلِ الأمر خلاف ذلك تمامًا ؛ فالكثيرُ من الدّراسات نجدها تشير إليه بشكلٍ مقتضبٍ سريع ينقصه التفصيلُ والكشفُ عن قيمة هدا الاتجاه وتطبيقاته .

كما ينقصها الإجابةُ عن سؤالٍ يتردّد على الذهن أثناءَ الحديثِ عن اتجاهٍ أو آخرَ ؛ هذا الأخيُر هو : لماذا يسود اتّجاهٌ معيَّن في مرحلةٍ مَا ، وتضمر باقي الاتّجاهاتِ إلى مراحلَ لاحقةٍ ؟.

والإجابة عنِ السؤال في اعتقادي ليس بالأمر الهين، لأنّ الإحاطةَ بكل الجوانب أو بمعظمها -والتي لها دورٌ رئيسٌ في ظهور اتّجاه وغياب آخر- أمرٌ في غاية الصعوبة ، وبناءً على ذلك ،كان من الضروري الالتزامُ بالمنهجية التي يمليها البحث . وهي محاولة تتبع هذا الاتّجاه عبرَ الفترات التاريخية التي تعارف عليها الباحثون في تاريخ النقد والأدب - مع العلم مسبقاً أنّ هده الفترات هي حلقاتٌ مترابطة لا يمكن الفصلُ بينها إلا تجوزًا

وتسامحًا - وكذا التعرف على النقاد الذين تبنوا هذا الاتجـــاه أو غلب على أحكامهم النقدية . وخلال ذلك نحاول الإجابةَ عنِ السؤال الذي طرحناه سالفًا .

والجدير بالذكر أن الساحة النقدية تعج بعدة اتجاهات نذكر منها :

الاتجاه النفسي : و هو الذي يهتم برصد خطوات الإبداع لدى الفنان ، وتأمل عالمه الداخلي و نوع الاستجابة في نفوس المتلقين له ، ومن ثم كان عليه أن يعنى بدراسة سير المبدعين بوصفها وسيلة لفهم أعمالهم و تفسيرها بمعرفة الدوافع التي تحرك إليها ، و تصوير أن العلاقة بين الفن و الفنان أشبه بالعلاقة بين المرض و الحلم و الناقد أشبه بالطبيب أو المحلل الذي يكتشف من خلال الأعراض الظاهرة مكبوتات الفنان الشعورية و اللاشعورية و هذا الاكتشاف يؤدي إلى فهم أفضل للعمل الفني و كذا بيان روح العصر من خلال نفسية المؤلف.

و منها **الاتجاه التأثري** : و هو الذي يقوم على الاستجابة الفردية للعمل الفني ، فهو نتاج الفردية الرومنتيكية و الشعور بالذات ، وهو لا يهتم بتحليل الأثر الأدبي ، و لا بالعلاقة بين الأثر الأدبي و حياة مؤلفه أو مجتمعه الذي يعيش فيه و لا بدوافعه الشعورية و غير الشعورية ، و لا بمناقشة الجوانب الجمالية فيه ، بل يقوم على وصف أثر الأدب في نفس الناقد.

و منها **الاتجاه الأسطوري** : و يقوم على التفسير الأسطوري للأدب دون ارتباط بعصر بعينه ، ويعنى بما يسمى " **المصادر الطقوسية للأدب**" و إدراك المعرفة " قبل التاريخية" للوعي الجماعي ، و ليس معنى ذلك أنه يعكس اهتماماً بالأسطورة فقط.

بل هو يعنى بجانب ذلك بالكشف عن الصيغ الثقافية التي تتضمن قيماً أسطورية يستخدمها الأديب دون وعي منه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ومنها **الاتجاه الاجتماعي** : الذي يؤمن بأن الفن لا ينشأ من فراغ ، لكنه نتاج بيئة معينة و زمان معين ، و من ثم يقوم النقد الاجتماعي على إدراك العلاقة بين الفن و المجتمع ، و لابد للناقد الاجتماعي من التعرف على بيئة الأديب و أثرها في أدبه ، و مدى استجابة الفنان لهذه البيئة الاجتماعية.

و منها **الاتجاه التاريخي** : و هو النقد الذي يحاول تفسير الظواهر الأدبية و المؤلفات و شخصيات الكتاب ، فهو يعنى بالفهم و التفهيم أكثر من عنايته بالحكم و المفاضلة ، وتفسير الظواهر الأدبية أو المؤلفات أو شخصيات الكتاب ، يتطلب دراية بالتاريخ ماضيه و حاضره.

و منها أيضاً **الاتجاه اللغوي** : الذي يحكم فيه على أساس اللغة و قواعدها الأسلوبية و اللغوية المقررة . *

و الجدير بالذكر أيضاً قبل الشروع في الحديث عن موضوع دراستنا هو ضرورة التمييز بين النقد الأخلاقي والنقد الديني ، لأنهما متميزان في الحقيقة ، إذ هناك فرقٌ كبيرٌ بين أن يصدر ناقدٌ ما في أحكامه عن نظرة أخلاقيةٍ ، وقد يكون ممَّن لا يؤمنون بالرسالاتِ السماوية أصلاً ؛ وبين أن يكونَ أساسُ النظرة النقدية هو الدين نفسه ، ذلك أنَّ الإلحادَ شئ ، والتمسُّكَ بالأخلاق التي تواضعت عليها أجيالُ أممٍ كثيرةٍ منذ وقتٍ بعيدٍ شئ آخر .

ولعلَّ هذا الفرق بين الحالين يوضِّح لنا أيضاً ؛ فيما يوضِّح طبيعةَ الاختلاف بين النظرتين النقديتين : النظرة الدينية والنظرة الأخلاقية بما لها من اتصال حتمي بالدِّين عند بعض النقاد في عصورٍ معينةٍ.(1)

وعلى هذا الأساسِ، فليس من المستغرَب أن نوليَ عنايتَنا بالفترة التي سبقتِ الإسلامَ مباشرةً ، والتي تعارفَ عليها الباحثون باسم "العصر الجاهلي" . على الرّغم مما كان منتشِرا فيه من ديانات محرَّفة أصبحت مع مرور الوقت عاداتٍ وتقاليدَ عليها مسحةٌ دينية شاحبةٌ .

قلت ليس من الغريب مع كل هذا محاولةُ إلقاء الضوءِ على النقدِ الجاهليِّ ،وليس من الغريب أيضا – إذا اقتضت الضرورة – الحديث عن نقدِ الأمم الأخرى، وعلى رأسها النقدُ اليوناني الذي يعرف الجميعُ مدى

---

* مقالات في النقد الأدبي : د/ابراهيم حمادة. القاهرة (1982). ص 51-74.

1 . ابن بسام الأندلسي وكتاب الدخيرة / علي بن محمد ط : المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989 ص: 359.

تأثيره في النقدِ العربي .

فالأخلاق السامية قاسمٌ مشترَك بين الإنسانية جمعاء ، وليست حكرًا على أمةٍ دون أخرى .

وغنيٌّ عن التفصيل أنَّ الأخلاقَ التي ينصرِف إليها الذهنُ في هذا المقام هي الفضائل المثلى التي يحمد للإنسان أن يُروِّض نفسَه عليها . وأن يطلبَ منها أوفَى نصيبٍ ؛ من صدقٍ ، وصبرٍ ، وكرمٍ ، وشجاعةٍ ، وعدلٍ ، وعفةٍ ، وحِلمٍ ، ورحمةٍ ...

والمسلم يؤمن بمصدر هذه الأخلاقِ المثلى، ويؤمن بأنها جميعاً مفروضةٌ عليه بـــأمرٍ من الله – عزَّ وجلَّ– .

ولكنَّ المسلمَ وغير المسلمِ يستطيعان أن يقولا معًا إنها صِفاتٌ لا ترجع إلى مصدرٍ غيرِ المصدر الإلهي ؛ الذي تصدر منه جميعُ الأشياء ،لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعةِ المجتمع ؛ ولا باستطاعة قوَّة ؛ ولا بالقانون و لا السُّلطان ،ولكنه تعلق بما في الإنسان من حُبٍّ للجمال وشوقٍ للكمال ، وكلاهما نفحةٌ من الخالق، يهتدي بها الأحياءُ عامةً في معارج الرفعة والارتقاء.

وجماعُ هذه الأخلاق كلِّها هو تلك الصفات التي اتَّصف بها الخالقُ نفسُه في أسمائه الحسنى، فيما عدا الصفات التي اختُصَّ بها الخالق دون سواه .

ومصدرُ الجمال في الأخلاق هو أن يشعرَ الإنسانُ بالتبعة ،وأن يدينَ نفسَه بها ، لأنه يأبى أن يشيَن نفسَه، ويعتبر " الشين " غايةَ ما يخشاه من عقابٍ(1) .

إذن فالنظرة الأخلاقية في النقد ينطلق صاحبُها من الأخلاق مجردة من مسحتِها الدينيةِ، أو مقترنة بها بينما النظرة الدينية في النقد تصدرُ من ناقدٍ يعتنق دينًا معينًا . ونعلم جميعا أنَّ النظرةَ الثانيةَ تشمل الأولى ، فما من دينٍ إلا وطلبَ إلى أتباعه التحلي بالفضائلِ والتخلي عن الرذائـــلِ.

هذا هو إذن الفرق بين نظرتين أخلط كثيٌر من الدارسين بينهما . وسنقف عند هدا الأمر أثناءَ الحديث عن النقدِ الأخلاقـــي في صدر الإسلام – إن شاء الله –.

---

1 .الفلسفة القرآنية • عباس محمود العقاد . دار الكتاب اللبناني 1984 ضمن المجموعة الكاملة . ج 7 ص:30-40 .

بناءً على ما سبق ،فالنظرة الأخلاقية ترى بأن يسيَر الشعرُ والأدبُ عمومًا على مناهج السلوك القويم والأخلاق السّامية ، نظرة تهدف إلى أن يكونَ الأدب في خدمة المجتمع ، " وأن يساهمَ في بنائه مساهمة إيجابيةً ، وغايته أن يكون الأدب مدعَّمًا للأخلاق لا مدمِّرا لها . وهو بذلك يدفع تلك الأمةَ إلى أرقى المراحل الحضارية ، ويمكنها من إبراز الحقيقة الكامنة فيها ."(1)

فالنقد الخلقي يريد للأدب أن يقوم بوظيفة أخلاقية اجتماعية ، يقدم المحتوى الأخلاقي بطريقته المتميزة سعيا وراء خدمة الأمة وتربية أفرادها .

وبناء على ذلك نجد النقاد الأخلاقيين يهاجمون الشعر الذي يعبر عن الأهواء واللذات والرغبات المنحرفة ، ويمجدون الشعر الذي يهدف إلى السمو بالإنسان والارتقاء به إلى مدارج الكمال ودعم قوى الخير والصلاح فيه .

وليس معنى هذا أن النقد الخلقي يتنكر للقيم الجمالية ، وإنما تعطى الأولوية للحق والخير إذا اقتضى الأمر .

و نبدأ فيما يلي الحديث عن **الاتجاه الأخلاقي في العصر الجاهلي.**

---

1. النقد العربي القديم . د/العربي حسن درويش . ط : مكتبة النهضة المصرية ص 39 .

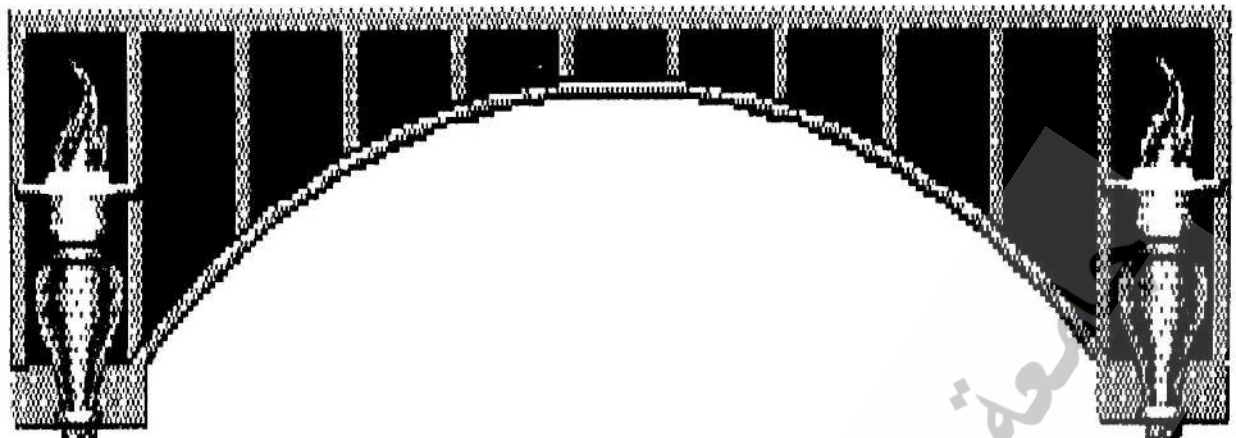

الفصل الأول

الاتجاه الأخلاقي في النقد الجاهلي:

- الحالة الدينية و الأخلاقية و الأدبية للجاهليين.
- نماذج نقدية من العصر الجاهلي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 -الحالة الدينية و الأخلاقية و الأدبية للجاهليين

سبق أن أشرنا إلى هذا العصر ؛ و أكّدنا ضرورة أخذ صورة و لو بسيطة عن النقد آنذاك ،لنقف على ما نحن بصدد البحث عنه ، إن وُجِد طبعاً.

و قبل ذلك نحاول التعرفَ على الحالة الدينية ؛ و الاجتماعية ؛ و الأدبية للجاهليين.

فالجاهليون أقل ما توصف به حالتهم الدينية أنها " حالة نقص في كل نحلة و كل عقيدة ، فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أنها كانت تستوعب المؤمن بها و تمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا، وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ،و لم تكنِ الحدود بين النحل و العادات الدينية المتحجرة مستقرةً على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير ، و لم يكن المتدين منهم جميعاً ينتبه إلى الابتداع في أمر الدين، إلا أن يسومه الخروج على قومه و الزراية بشرعة الآباء و الأسلاف ، فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف في الشعائر و الآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب...."(1)

و بناءً على ذلك ، فما تمرد أبناء الجاهلية فيما بعد على دعوة الإسلام إلا ذهاباً مع العصبية وتراث الآباء و النّسب ، و لم يتمردوا عليه ذياداً على ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر و الأفكار.

---

1 .مطلع النور• عباس محمود العقاد . ط: دار الكتاب اللبناني 1984 .مج الكاملة ج7 ص 274.

و أيًّا ما كانت الحالة الدينية للجاهليين في جزيرة العرب، فقد " كانت تتراءى فيهم الفطرةُ الإنسانية السليمة ، و النزعةُ القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة ؛ كالوفاء ، و النجدة والكرم و الإباء والعفة والصدق...إلا أنه كانت تعوزهم المعرفة التي تكشف لهم الطريقَ إلى ذلك ، إذ كانوا يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة ،والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم- بسبب ذلك- أن يضلوا الطريقَ إلى تلك القيم الإنسانية ، فيقتلوا الأولادَ بدافع الشرف و العفةِ ، و يُتلفوا الأموالَ بدافع الكرم ؛ و يثيروا فيما بينهم المعاركَ بدافع الإباء و النجدة..."(1)

أما على الصعيد الأدبي. فالعصرُ الجاهلي عرف كثيراً من ألوان التعبير الجمالي ؛ ولعلنا لسنا في حاجة للحديث عن الفنون القولية التي عرفها أهلُ الجاهلية، فقد أسال حولها مؤرخوا الأدب كثيرًا من الحِبر ، إلاّ أنّ أهمّ هذه الفنون على الإطلاق الشعرُ مفخرة العرب آنذاك . فقد أُثر عنهم شعرٌ غزير في كمِّه ، رفيع في كيفه ، متنوعٌ في اتجاهاته.

و قد برزت كل خليقة من هذه الخلائق في حادثة مأثورة مذكورة ، أو مديح تغنَّى به الشعراءُ ، أو كلمات تداولتها الألسنة عبر العصور . و من البديهي أنّ الحالة الدينية والأخلاقية والاجتماعية للجاهليين كان لها أثرها في حياة الشعر حيث انعكست صورُ حياتهم بكل ما فيها في أشعارهم.

و من عسف القول هنا الإشارةُ إلى أنّ الكثير من الشعراء و الخطباء في الجاهلية قد حملوا لواءَ التوحيد و الأخلاق الفاضلة ،ودافعوا عنها ،ونادوا بها في خطب وقصائد كثيرة جداً ، شكلت اتجاهاً قويا ،كان له الأثر البين في حياة أهل هذا العصر.

وقد ذكرت المصادر أسماء مجموعةً من هؤلاء منهم:قس بن ساعدة الإيادي ؛ و أمية بن أبي الصلت ؛ و أرباب بن رئاب ؛ و سويد بن عامر المصطفى ؛ ووكع بن سلمة بن زهير الإيادي ؛ و عمير بن جندب الجهني ؛ و أبو قيس صرمة بن أبي أنس ؛ و عامر بن الظرب العدواني ؛ و علاف بن شهاب التميمي ؛

1.فقه السيرة . د/ محمد سعيد رمضان البوطي . ط: دار الشهاب .ص 39 و للتوسيع أنظر : الملل و النحل للشهرستاني ج2 ص 86 -87.

و المتلمس بن أمية الكناني ؛ و زهير بن أبي سلمى ؛ و خالد بن سنان بن غيث العبسي ؛ و عبد الله القضاعي و كعب بن لؤي بن غالب ؛ و سيف بن ذي يزن ؛ و عبد الطابخة بن ثعلب ؛ و زيد الفوارس بن حصن ؛ و عبد المطلب بن هاشم و أخرون....."(1) .

وقد اتسمت دعوتهم الاجتماعية بالسِّمة الأخلاقية كالحثِّ على إتيان الفضائل ، و التمسّك بمكارم الأخلاق و الصّبر على الشدائد والدعوة إلى تقوى الله في السرِّ و العلنِ ؛ و الدعوة إلى الرحمة وصِلة الرّحم والعطف على الأيتام ، و البعد عن الدنيات ، كل ذلك ضمَّنوه وصاياهم لأفراد مجتمعهم.

و قد كان الجانب الهام في أدبهم ،والشعر منه خاصة، هو الدعوة إلى السلام ،ونبذ الحروب ،وتذكير أقوامهم بويلات الحرب و ما يعقبها(2) .

و إذا كان لابدَّ للأعمال الفنية أن تعكس مظاهر الحياة ، و تعبِّر عن تصوُّر الإنسان و مواقفه ، فلابدَّ أيضاً للنقد أن يعكس طبائع الأعمال الفنية التي يتعرض لها. فليس النقد عملاً إنشائياً يولَد من العدم ،وإنما هو مترتبٌ على وجود العمل الفني... والجانب الإبداعي في النقد هو من آثار العمل الفني المنقود . و إذا سحبنا هذا الكلام على نقد هذا العصر، فإننا لا نجد تطابقاً بين حركة الشعر وحركة النقد." فالحقُّ أنّ ما أُثر عن الجاهلية من آراء نقدية لا يتناسب مطلقاً مع ما أُثر من شعر لا في كمِّه و لا في كيفه ، فقد عرفت الجاهليةُ الشاعرَ الذي لا عملَ له غير قول الشعر ،ولكنها لم تعرف الناقدَ المتخصِّصَ في النقد، و من ثَم يمكن اعتبار النقد نشاطاً إضافياً يزاوله القادرُ كانطباعات ، حين يسعى إليه الشعراء أو يسمع الشعر ، وقد كان النقاد الأوائل هم أنفسهم الشعراء ؛ و من ثَم فإن انصِرافهم عن الاشتغال بفلسفة الفنِّ ، ووضع النظريات فيه أمر يتمشىَّ وطبائع الأشياء ، فالنشاط الفني الناقد حركة قائمة على الأناة والروية تُعنى بتسلسل الفكرة و إحكام حلقاتها"(3).

---

1. بلوغ الإرب في معرفة أحوال العرب : الألوسي . ط : القاهرة سنة 1924 ص : 244 و 269 و 277 و سيرة ابن هشام . تحقيق الأستاذ : مصطفى السقا و آخرون ط : مصطفى الحلبي 1955 ص 6.
2. الشعراء الحنفاء . د/ أحمد جمال العمري . ط: دار المعارف 1981 . ص 87 .
3. مقدمة في النقد الأدبي . د/ محمد حسن عبد الله . ط: دار البحوث العلمية 1975 ص 254-255 .

فالنقد في العصر الجاهلي عبارة عن أحكام ذاتية عامة ، تعتمد على الانطباعات الآنية ، وعلى الوقوف عند الجزئيات والاقتصار على الأحكام العامة ؛ فهو نقد بسيط غير معلَّل، لا يستند إلى منهج، وقواعد ثابتة ، يتم على أساسها استحسان أواستهجان الشّعر . وجد في أطوار تهذيب الشعر، واختيار المعلّقات ،وأثناء المفاضَلَة بين شاعر وشاعر، أو بين بيتٍ و بيتٍ.

وكان لابدَّ للنقد في هذا العصر أن يتسِم بهذه السِّمات ؛ فحبُّ الإيجاز مزية تميز بها الجاهليون ،كما أن بساطة الحياة ألقت بظلالها على طرق تفكيرهم وتعبيرهم. فعلى قدر بساطة الحياة تكون بساطة التعبير ، و على قدر تعقيدها يكون تعقيده.

ولعلنا في حاجة إلى إيراد بعض الشواهد النقدية في هذا العصر ؛ لنتعرف على بدايات النقد وصوره واتجاهاته إِن وُجدت.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 ـ نماذج نقدية من العصر الجاهلي

من أشهر ما ورد عن الجاهليين من محاولات نقديـــة ؛ محاولة أم جندب بين امرئ القيس و علقمة الفحل . وقصة المحاكمة جاءت في الأغاني، كما جاءت في الشعر والشعراء ، مع اختلاف بسيط.

قال صاحبُ الأغاني :"نازع امرؤ القيس علقمة بن عبده الفحل الشعرَ ؛ فقال له : لقد حاكمت بيني و بينك امرأتك أم جندب ، قال رضيت : فقالت لهما: قولا شعرًا على رويٍّ واحد وقافية واحدة ، صِفا فيه الخيلَ .

فقال امرؤ القيس :

خَلِيلَيَّ مرَّا بِي عَلى أُمّ جُنْدبِ ... لنقْضيَ لُباناتِ* الفُؤادِ المُعَذَّبِ

وقال علقمة :

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في غيْرِ مَذْهَبِ ... وَ لَمْ يَكُ حقاً كُلُّ هذَا التجَنُّبِ

ثم أنشداها . فغلَّبت علقمة ، فقال لها زوجها : بأيِّ شيء غلبتِه؟

قالت لأنك قلت:

فلِلسَّوطِ أُلْهوبٌ وللِسَّاقِ دِرَّةٌ ... وَ لِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقْعُ أَهْوَجَ مِنْعَبِ*

* لبانات : حاجات ، *معناه : إذا ضربه بالسوط ألهب الجري ، أي أتى يجري كالتهاب النار ؛ و استحثه بساقه درَّ بالجري ، وإذا زجره وقع منه موقعه من الأهوج الذي لا عقل معه أي كأن هذا الفرس مجنون لما يبدو من شدة حركته و نشاطه عند الزجر، * المنعب : الذي يستعين بعنقه في الجري و غيره.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فجهدتَ فرسَك بسوطك ، و مريته * بساقك وزجرك ، وأتعبته بجهدك.

وقال علقمة :

فَولّى علَى آثارهنّ بِحاصِبٍ و غَبْيةِ شُؤبوبٍ مِنَ الشَّدِّ مُلْهِبِ

فَأدرَكهنّ ثانياً مِنْ عِنانِهِ يَمُرُّ كَمَرِّ الرائحِ المتَحَلّبِ

فلم يضرب فرسَه بسوط ؛ و لم يمْرِه بساق . و لم ينعبه بزجر (1)

و يروي صاحب الأغاني أيضًا عنِ الأصمعي " أنه كان يُضرَبُ للنابغة قبةٌ من أدم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. قال : وأول من أنشده الأعشى ، ثم حسان بن ثابت ، ثم أنشدَته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشريد:

وَ إنّ صَخرًا لَتَأتَمُّ الهُداةُ به كأنّه عَلَمٌ في رَأْسِهِ نارُ.

فقال: والله لولا أنّ أبا بصير - الأعشى- أنشدني آنفاً لقلتُ إنك أشعر الجن والإنس ؛ فقال حسان : والله لأنا أشعرُ منك ومن أبيك . فقال له النابغة : يا ابن أخي : أنتَ لا تحسن أن تقول مثلَ قولي:

فإنكَ كاللّيلِ الّذي هو مُدرِكي وإنْ خِلتُ أنّ المُنتأى عَنكَ وَاسعُ.

قال: فخنس حسان لقوله. (2)

و في رِواية لحسَّان بن ثابت مع النابغة، أن الأعشى أتى النابغة ، فكان أولَ مَن أنشده ؛ ثم أنشده حسّان:

لَنا الجَفَنَاتُ الغرّ يَلمَعْنَ بالضُّحَى وَ أسْيافنا يقطرْنَ مِن نجدةٍ دَمـاَ

وَلدْنا بني العَنقاءِ وَ ابنَيْ مُحَرّقٍ فأكرِمْ بنا خَالاً، وأكرِمْ بنا ابنَماَ

---

* : مريت الفرس : إذا استخرجت ما عنده من الجري بسوط أو غيره

1. الأغاني ، الإصفهاني ط : دار الثقافة بيروت 1962 . ج7 ص 251-252. و الشعر و الشعراء ابن قتيبة ط: دار المعارف 1966 . ص : 107-108.

2. المصدر السابق ج9 ص 330 - 331 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فقال له النابغة : أنت شاعرٌ ، ولكنك أقللتَ جفانك و أسيافك ،وفخرت بمن ولدتَ ؛ و لم تفخر بمن ولدك (1)

وجاء في الموشح أيضا أنّ المُسَيَّبَ بن عَلَس مرَّ بمجلس بني قيس بن ثعلبة، فاستنشدوه ، فأنشدهم :

أَلا انْعَمْ صَبَاحًا أَيّها الرَّبعُ واسْلمِ   نُحَيِّيكَ عَنْ شَحَطٍ وإنْ لم تَكلَّمِ .

فلما بلغ قوله :

وَقَدْ أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ ادِّكَارِهِ   بِنَاجٍ عَلَيهِ الصَّيعَرِيَّة مُكْــدَمِ .

قال طرفة — وهو صبي يلعب مع الصبيان —: استنوق الجمل .(2) أي وصف الجمل بوصف الناقة .

هذه بعض الشواهد أو المحاولات النقدية التي نسبت إلى الجاهليين ، وهي في عمومها عبارة عن أحكام ذاتية عامة تعتمد على الانطباعات الآنية ، وعلى الوقوف عند الجزئيات ؛ تتغافل عن ذكر أسباب استحسان الشعر أو استهجانه ، ويخلو أغلبها من التحليل والتعليل ، وتشترك هذه المحاولات في كونها زاولت نوعًا من النقد يهدف إلى إظهار العيوب والأخطاء ، ويغض الطرفَ على إبراز المحاسن .

ويُستثنَى من ذلك بعضُ المحاولات التي تتسم نوعًا مَا بالعمق الفكري ، كمحاولة أم جنذب والنابغة في نقده لحسان . لذلك شكَّك البعض في نسبة هذه المحاولات إلى هذا العصر ؛ فالمصطلحات التي استُعمِلت في هاتين المحاولتين أشبه بصنيع المتأخرين في النقد . يقول الدكتور : محمد طه الحاجري في هذا الصدد : " وقد يكون في النفس شئ من هذه القصة — قصة أم جنذب— باعتبار أن ما تتضمنه من نقد أشبه بصنيع المتأخرين في النقد والموازنة ، ولكني مع ذلك لا أذهب إلى حدٍّ إنكارها جملةً ، ورفضها رفضاً باتا مطلقًا ، فروحُ النقد فيها ، وان يكن معلــلا ،روح بسيطة متواضعـــة ، مما لا ينبغي أن يـــثير كبير شبهة "(3).

1. الموشح المرزباني . ط : دار النهضة مصر . 1965 . ص: 82.

2. المرجع السابق . ص: 109.

3. .في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية . ط: دارر النهضة العربية ، بيروت . 1982 . ص: 38.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وما قيل عن محاولة أم جندب تكرر مع نقد النابغة لحسان " لكن كلمة النابغة لحسان مثلا لا يفهم أن قائلها لابد أن يكون على علم بمصطلحات الجموع المختلفة كعلم النحاة بها . وإنما يفهم منها أن عرب الجاهلية ومنهم النابغة كانوا بطبيعتهم وحسهم اللغوي يفرقون بين الكلمات الدالة على القلة والدالة على الكثرة . فهم أدرى بمعاني مفردات لغتهم ...

فالعبرة إذن – كما يرى عبد القادر الجرجاني- بمعرفة مدلول العبارات والمصطلحات ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه معرفة مدلولها والفروق المعنوية بينها " (1) .

فالنقد بناء على ما أسلفنا نشأ في الجاهلية مرتجلا، وكان هينًا يسيرًا ملائماً لروح العصر ، إضافة إلى كونه عمليا تطبيقيا وهو نقد ذوقي يعمِّم الأحكام حين يحكم بالتفوق .

وإذا كان الأدب الجاهلي – والشعر منه خاصة- لم يترك قضية إلا وتناولها ، حتى قال أحدُهم معبراً عن قوة الشعر من ناحية كمِّها وتنوع اتجاهاتها ونزعات أصحابها : – "هل غادر الشعراء من متردم ". بمعنى أنه استعرض أشعار الشعراء ؛ فتبين له أنهم تناولوا كلَّ معنًى ؛ وأحاطوا بكل صورة ، وعالجوا كلَّ موضوع . فلم يبق معنى إلا وسبقوا إليه .

فإن النقد لم يكن في مستوى قوة الشعر الجاهلي، فهذا " القدر المتواضع لم يمس أهم القضايا التي يثيرها هذا الشعر في عصرنا ، أو حتى في العصور التي نظرت إليه كمستوى فني رفيع ، أو مَثَل أعلى يجب تقليده ومحاكاته . فهل وُجِد نقد وضاع ،كما ضاع أكثر النثر ، أو أن الشعر سابق بكثير لمستوى النقد ... أو أنه شعر بلا نقد، كالأدب الشعبي في أيامنا ، له شعراء وليس له نقاد من مستواه ... كل ذلك جائز ممكن " (2)

ولما كان هذا القدر اليسير لم يلمس القضايا التي أثارها الشعر الجاهلي لاحقًا ، فمن الصعب أو الافتعال – مهما كنا غيورين على النقد العربي – التحدثُ عن اتجاهات أو مقاييسَ دقيقةٍ في نقد هذا العصر

---

1 .تاريخ النقد الأدبي عند العرب . د/ عبد العزيز عتيق . ط: دار النهضة العربية 1986 . ص: 80 .

2 . مقدمة في النقد ص: 262 .

وتبقى هذه الأخيرة أمثلةً يمكن اعتبارها بدايات أومصادر أساسية لحركة النقد ، لاترتقي إلى مستوى يمكن أن نظفر فيه بوجود اتجاهات ومذاهب نقدية مكتملة واضحة المعالم .

يمكننا إذن الحديثُ عن اتجاه أخلاقي وديني في الأدب الجاهلي ؛ أما النقد الجاهلي فلِقلتِه وبساطته فإنه يؤكد شيئًا واحدًا وهو أن النقد العربي كان في اللحظات الأولى من ميلاده ؛ وطبيعي أن يكون النقد في مراحله الأولى ساذجًا بسيطاً ، خافتًا غامض الملامح . ومن التجني أن نتوقع من أصحابه أكثر من ذلك .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني

- الاتجاه الأخلاقي في نقد صدر الإسلام.
  - الشعر و الإسلام.
  - النقد الخلقي عند العرب نتاج إسلامي.
  - التحولات السياسية و الفكرية في القرن الأول الهجري و أثرها في النقد الأدبي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1 – الإسلام و الشعر

من المتعارف عليه أن هذا العصر يطلق على الفترة الممتدة من نزول الوحي إلى قيام الدولـــة الأمويـــة سنة : 41 هجرية .

ومن الضروري أن نقرر في البداية أن الحياة الإسلامية الجديدة ،كان لها أثرها في المجتمع العربي ؛ وفي أخلاق قومه وسلوكهم . فقد حرص الرسول – صلى الله عليه وسلم- وصحابته على أن تسير الحياةُ وفق تعاليم الدين الإسلامي وأحكامه وقيمه . وبالفعل فقد " تغيرت قيم الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتفعت قيم أشياء ، وانخفضت قيم أخرى ، وأصبحت مقوماتُ الحياة عندهم غيرَها بالأمس" (1).

أما عن الحياة الأدبية في هذا العصر، فهي أيضا لم تكن في منأى عن التأثير ، فالأدب في حقيقته صورة لما تحفل به حياة أيّ مجتمع من المجتمعات ، لكن ما يطرح نفسه للنقاش، ونحن بصدد الحديث عن هذا العصر هو ما تطالعنا به أعمقُ كتب النقد والأدب قديمها وحديثها . فالكثير من الباحثين القدامى والمحدثين رأوا أن الأدب عمومًا ، والشعر منه خاصةً قد خفَتَ وضعف كمًّا وكيفاً .

ونحق لنا أن نتساءل : هل فعلا كان أثر الإسلام في الشعر سلبيا إلى هذا الحد ، أم في الأمر شيء آخر؟.

الناظر في مصادرنا النقدية القديمة يجد أن من أوائل من قالوا بضعف وفتور الشعر في عصر النبوة

---

1. تاريخ النقد الأدبي عند العرب . ص: 42.

وخلافة الراشدين ابن سلام الجمحي ، و قد عَزَا هذه الظاهرةَ إلى ما رواه من قول عمر بن الخطاب – رضي الله عنه –: " كان الشعر عِلمَ قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العربُ ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ،ولهت عن الشعر وروايته "(1).

ومن الشعراء الذين استرعوا انتباه النقاد المتقدمين ، وكان مثالاً لهذا التردي ، حسان بن ثابت – رضي الله عنه– الذي كان –كما رأينا في العصر الجاهلي – فحلاً ينافس الشعراءَ المقدمين المجدين ، فبعد اعتناقِه الإسلام – نجد الأصمعي يقول عنه: " الشعر نكد بابه الشرّ، فإذا دخل في الخير ضعف ؛ هذا حسان بن ثابت فحلٌ من فحول الجاهلية ، فلمَّا جاء الإسلام سقط شعره ".(2)

وما قاله ابن سلام والأصمعي ردَّده ابنُ خلدون ،فقال : " ... ثم انصرفَ العربُ عن ذلك أول الإسلام ؛ بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحي ، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه ، فأخرسوا عن ذلك . وسكتوا عن الخوض في النظم و النثر زماناً . و لم يترل الوحيُ في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبيُّ – صلى الله عليه وسلم– وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذٍ إلى ديدنـــهم منه "(3).

وقبل الانتقال لسرد بعض آراء المحدثين التي تسير على هدى المتقدمين ، يجدر بنا التوقفُ عند رأي الأصمعي وابن خلدون .

فالأصمعي كما سبق يرى أن شعرَ حسان بن ثابت –رضي الله عنه– عندما اعتنق الإسلامَ سقط شعره ،وضعف مستواه .ولا ريب أنّ الأصمعي انطلق من مقياس معين تمكن من خلاله إصدار هذا الحكم على شعر حسان .

يروي ابنُ قتيبة والمرزباني قوله : " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ، ألا ترى أن حسان بن ثابت كان فحلاً في الجاهلية والإسلام، فلما دخل شعره في باب الخير ، من مراثي النبي – صلى الله

---

1. . طبقات الشعراء . ابن سلام الجمحي . ط: مطبعة المدني القاهرة . ج: 1 ص: 24-25.
2. .الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ص: 265.
3. المقدمة . ابن خلدون . ص: 360.

عليه وسلم- وحمزة ، وجعفر- رضوان الله عليهما – وغيرهم لان شعره ؛ وطريق الشعر هو طريق الفحول ، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة ؛ ومن صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفات الخمر والخيل والافتخار ، فإن أدخلته في باب الخير لاَن .". (1)

فقوامُ الشعر عند الأصمعي " هو تلك الجاهلية التي نشأ فيها ورسخت جذوره في أعماقها ، وعاش على وصف صورها والتعبير عن مثلها ، فحين نكبت المثل الجديدة التي جاء بها الإسلام بحسان بن ثابت عن هذا الطريق المعبد ، ضعف شعره ، ولان ، وتهافت على تلك الصورة التي لاحظها "(2).

ومن هنا فإن الأصمعي ومن قالوا بضعف الشعر وفتوره ، إنما انطلقوا من الشعر الجاهلي، وما تعارف عليه العربُ آنذاك في نظمه ، فما وافق طريق الجاهليين وُصف بالقوة والجودة ؛ وما خالفَهم رُمي باللين والضّعف .

وهم أيضا ينظرون إلى الشعر كفنّ كلامي يستهدف الإثارةَ والتشويقَ وتحريكَ المشاعر في الدرجة الأولى.

والحقيقة أن الحكمَ على الشعر الإسلامي ينبغي أن ينحو منحىً آخرَ، يكون التركيز فيه على مضامينه الفكرية ، للوقوف على قدرة شعرائه على توظيف هذا الفن الكلامي في سبيل الدعوة التي آمنوا بها ، فالشاعر المسلم صار خاضعًا لقاعدة الالتزام . فهو محاسَب ومسؤول أمامَ الله ونفسه والسلطة الحاكمة عن كل كلمة تصدر عنه . فالمضمون كما أسلفنا مقدَّم على الشكل من وجهة نظر إسلامية (3).

لذا لا نعجب مما رُوي عن الرسول –صلى الله عليه وسلم- في امرئ القيس ، حيث وصفه بأنـــه : " أشعر الشعراء و قائدهم إلى النار ".

فامرؤ القيس في رأيه أشعرُ شعراء الجاهلية من حيث تقدمُه وتفوقُه عليهم في فنه وصناعته الشعرية ،

---

1. المرجع السابق ص: 170. والموشح . ص: 63.

2. في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية . ص: 49.

3. الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين . د/ نايف معروف . ط: دار النفائس 1990. ص: 69.

ولكنه في الوقت ذاتـــه يعتبره قائدهم إلى النار، لما تضمنه شعرُه من معان تجافي الحقَّ الذي اعتمده مقياسًا للشعر (1).

فالنقاد القدامى إذن أخطأوا الطريقَ حين قيموا شعرًا يحمل روحًا جديدةً ويعبِّر عن واقعٍ يخالف ما كان يعيشه العربُ قبل الإسلام ، بمقاييس تحكمها نظرةٌ موروثة عن ذلك العصر . و أخطأوا أيضًا حينمَا قدّموا الشّكل على المضمون ، مع عِلمنا أنّ شعراء عصر صدر الإسلام قد التزموا بمقياس وضعه الرسولُ - صلى الله عليه وسلم- واتبعه فيه خلفاؤُه ومن أولوا عنايةً بالشعر -يهدف إلى أن يكون الشعرُ وسيلةً يدعوا بها أصحابها إلى الفضائل المثلى ومكارم الأخلاق . وعليه فلا خيرَ في شعر - مهما كان مستواه الفني - لا يحقق هذا الغرضَ . فالمضامين هي المقدَّمة في تقييم الشعر انطلاقا من هذه الوجهة .

نعود لقول ابن خلدون الذي مرَّ معنا ، ويهمنا منه هنا قولُه : " .... و لم يترل الوحي في تحريم الشعر وحظره ، وسمعه النبي - صلى الله عليه وسلم- وأثاب عليه ، فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه ".

فابن خلدون بعدما أثبت انصرافَ العرب عن قول الشعر أول الإسلام ، أضاف شيئًا مهمًّا وهو أنهم عادوا إليه عندما لم يسمعوا من الرسول -صلى الله عليه وسلم - ما يمنعهم من الخوض فيه.

وإذا تأملنا النصوصَ القرآنية و الحديثية التي تناولتِ الشعرَ والشعراء بالحديث وحاولنا تحليلها أمكننا إزالة ما يخطر على البال في أمر الشعر ، وما ورد عن الشعراء وأنهم يتبعهم الغاوون، وفي كل وادٍ يهيمون . فهذه الصّفة إنما قيلت في الردّ على المشركين الذين كانوا يقولون على النبي - صلى الله عليه وسلم- تارةً أنه ساحرٌ وتارةً أنه شاعرٌ ففيها بيان للفرق بين النبوة والشعر وبين الكلام الذي يهدي إلى الرشد والكلام الذي تتبعه الغواية ، والرجوع إلى الآية يدل على الشعراء المقصودين بتلك الصفة فلا يوصف بها شاعر مؤمن يعمل الصالحات ..." **والشعراء يتبعهم الغاوون ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يهيمون ؛ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؛ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظُلِموا ، و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ."** (2)

---

1 .تاريخ النقد الأدبي عند العرب . ص: 52 .

2. سورة الشعراء 224-227 .

وقد حدث عند نزول هذه الآية - كما روى أبو الحسن مولى تميم الداري- أن حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك جاءوا إلى رسول الله وهم يبكون فقالوا : قد علِم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء ...فتلا الرسول - صلى الله عليه وسلم-"إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات".

فليس الشعر منهيا عنه لأنه شعر ، ولا لأنه كلامٌ موزون ، وإنما المنكر في الشعر ما ينكر في كل كلام يجري بالسوء أو يغري به ويستدرج النفوس إليه ، وما عدا ذلك من الشعر، فقد كان يسمعه النبي عليه السلام و يجيز عليه ،وكان يحفظه الخلفاء الراشدون وأئمة المسلمين (1)

إذن ما إن تأكد شعراء صدر الإسلام من هذه الحقيقة حتى عادوا إلى نظمه ، وعاد الناسُ جميعا لسماعه ، فما إحجام الشعراء واحتجاب الشعر عن الناس في بداية هذا العصر إلا نتيجة للهزة التي أحدثها الإسلام في نفوس العرب ،إذ اندهشوا حين استمعوا إلى كلام لم يعهدوا مثلَه من قبل . فلما استحكم القرآن الكريم في نفوسهم وامتثلوا أحكامه وقيمه عادوا إليه بروح جديدة .

وما قاله ابن سلام والأصمعي وابن خلدون من ضعف الشعر وفتوره في هذا العصر ردده بعضُ مؤرخي الأدب والنقد المحدثين من بينهم : البهبيتي ، عبد القادر القط ، مصطفى الشكعة ، عمر فروخ ، محمد طه الحاجري .هؤلاء وغيرهم من الباحثين حاولوا تعليل هذه الظاهرة بنفس الأسباب التي رآها القدامى.

يقول محمد طه الحاجري: " وقد لاحظ النقاد المتقدمون أن النشاط الأدبي في هذا العصر جعل يضعف كمًّا وكيفًا ،وكان مرد هذه الظاهرة إلى ما شغلهم وغمرهم وملك عليهم جميعَ أمرهم من شواغل هذه الدولة الجديدة بتكوينها وتوطيد أركانها وحياطتها ؛ ونشر ذلك الدين الجديد وتحقيق أصوله ومبادئه ...إن الروح المندفعة المتوثبة التي سيطرت على الحياة الإسلامية إذ ذاك لتحقيق الرسالة التي جاء بها الرسول -صلى الله عليه وسلم-كان من شأنها أن تستغرق جميع الهمم، وتستحوذ على جميع القوى."(2)

1. التفكير فريضة إسلامية . عباس محمود العقاد .ط: مكتبة رحاب ص: 79-80.

2. في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية . ص: 47. 48. 50.

ويضيف إلى هذا العامل عاملاً آخر فيقول : " فقد كان هذا الدين الجديد في حقيقته ثورةً جارفة على ما كان يسود الحياة العربية من عقائدَ ونظمٍ ، جاء ليقتلها وليحل غيرها محلّها ...فحين جاء الإسلام بهذه الثورة التي زلزل بها كيان النفس العربية ، فأهدر هذه القيم وحطم هذه المثل ، فقدت هذه الشاعرية بطبيعة الحال مقـــوما أصيـــلا خطيرا من مقوماتها "(1).

ثم يذكر شيئا آخر : " وفوق هذه المفارقة بين روح الشعر والروح الجديدة ، لم يكن الجمهورُ الشعري على ما كان عليه من قبل ، فقد تبدلت مُثُله، وتغيرت الاعتبارات الشعرية في نفسه ، فكان من الطبيعي أن يفقد الشعر بذلك عنصرَ التجاوبِ ، وهو عنصرٌ لابدَّ منه للشاعر ليستطيع أن يمضيَ في التعبير عن نفسه " (2).

ويستمر د: محمد طه الحاجري في ذكر العلل فيقول : " وشيء آخر فقده الشعر، وكان له أثره فيه ، وهو ما كان يجده من قبل من تشجيع الملوك والرؤساء له ...فقد انتهى ذلك كله بطبيعة ما ذكرنا " (3).

ليصل إلى نتيجة عامة يرى فيها أن ضعف الشعر الذي يستمد كيانه من ذلك الميراث الجاهلي بعد أن جاء الإسلام مُهدِرًا لتلك المثل الجاهلية التي يتقوم الشعر – أكثر ما يتقوم بها – ظاهرة طبيعية مسايرة لمنطق الأشياء .

وبعد ، ألا يحقُّ لنا إعادة تساؤلنا ثانية : هل فعلا ضعف الشعر كما وكيفًا ، وخبَت جذوته في هذا العصر ؟

إذا رجعنا إلى ما قاله ابن خلدون وجدناه يؤكد أن المسلمين بعدما تأكدوا من عدم وجود حرج في قول الشعر – طالما أنه يسير وفق هذه الروح الجديدة التي كان الإسلام سببا فيها – عادوا إلى ديدنهم منه . أما العامل الأول الذي كان حسب د: الحاجري سببا في ضعف الشعر، فإن استقراء ما ورد عن هذا العصر

1.نفسه ص47 .

2.نفسه ص48 .

3.نفسه ص50 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يُثبت خلافَ ذلك ،ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشتعالا . فإذا كان الله تعالى قد قيض لهذه الدعوة من ينافح عنها بالسيف ، فإلى جانب ذلك وُجِد من يدافع عنها باللسان ، وما أخبار حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة إلا دليلا على ما نقول .ومع أنه لا خلافَ في كون الإسلام كان له كبير الأثر على حياة العرب ،إلا أن ذلك لا يمنع الشعراء منهم من توظيف هذا الفن وسيلة في سبيل الدعوة التي آمنوا بها . وأعتقد أن ما وصلنا من شعر هذا العصر يمكننا من خلاله الوقوفُ على مدى نجاح أصحابه في التعبير عما تمثلوه من أحكام هذا الدين وتعاليمه ، فقد طلبوا مثلا و فضائل دعت إليها هذه الرسالةُ وتخلّوا عن كل ما نفرت منه ونهت عنه.

والسبب الموالي الذي أسهم في ضعف الشعر وفق ما يرى د/ الحاجري : هو الجمهور الشعري الذي تغيرت الاعتبارات الشعرية في نفسه وتبدلت مثله ففقد بذلك عنصر التجاوب .

ولا شك أن الحياة الإسلامية –كما سبق– كان لها أثرها في المجتمع العربي وفي حياة قومه ، ولكن ما يجب الإشارة إليه هنا هو أن الأثر تناول جميع الناس سواء من كان منهم شاعرا أو غير ذلك . فالمضامين الشعرية بدورها –كما مر – تغيرت وتبدلت وتناسقت وروح الحياة الجديدة . والمقياس الذي بناءً عليه يستحسَن الشعر أو يستهجَن هو بدوره نتاج لهذه الحياة الجديدة .

وبناء على هذا فالتجاوب محقق بين شعراء وجمهور شعري امتثلوا جميعا لتعاليم دين واحد . ويمكن أن نؤكد هذا الكلام بمثال واحد وهو ما رواه أبو الفرج الأصفهاني : " أن عمر مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في مسجد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأخذ بأذنه وقال : أرغاء كرغاء البعير ؟. فقال حسان : دعنا عنك يا عمر ،فوالله أني كنت أُنشِد في هذا المسجد مَن هو خير منك فلا يغير علي " (1) .

فهذه الرواية تؤكد شيئين ، أولهما : أن حسان – رضي الله عنه – كان ينشد الناس شعرا وهم يستمعون إليه ، واستمرَّ هذا في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم- و عهد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه-.

---

1. الأغاني . ج 4 ص: 144.

وثانيهما : أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- كان يرى من واجبه أن يضع الحدودَ للشعر ؛ حتى لا يكون ذريعةً لما جاء الإسلام لمحقه وإبطاله .

وفي الأخير فإن من أسباب ضعف الشعر حسب د/ الحاجري دائما وغيره من القائلين بنفس الرأي : هو أن تشجيع الملوك والرؤساء للشعراء واحتفالهم بالشعر قد انتهى مع هذا العصر .

والحقيقة أننا إذا ما رجعنا إلى كتب النقد والأدب وجدناها تؤكد أن الشعر دخل المعركة عندما اشتدت الخصومة بين الرسول – صلى الله عليه وسلم- وكفار قريش .كل ذلك بإيعاز من النبي عليه الصلاة و السلام. فقد كان يُدرك مدى تأثير أشعار أنصاره على أعدائه ؛ ومن أقواله فيهم : " هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل " (1) . وقال لحسان بن ثابت " أهجهم – يعني قريشاً – فو الله لَهِجاؤك عليهم أشدُّ من وقعِ السهام في علس الظلام ؛ اهجهم و معك جبريل روح القدس ، و القَ أبا بكر يعلمك تلك الهنات " (2).

و يُروى عن الرسول – صلى الله عليه و سلم – أنه قال: " أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، و أمرت حسان بن ثابت فشفى و اشتفى ". (3) .

و رويَ أيضاً عن عائشة أن النبي – صلى الله عليه و سلم – بنى لحسان بن ثابت في المسجد منبراً ينشد عليه الشعر (4) .

و حسبنا هذه الأخبار دليلا على ما كان يحظى به الشعراءُ المسلمون من تشجيع من طرف الرسول- صلى الله عليه وسلم – فقد كان يسمع الشعر و يأمر بالسماع إلى ما ينشده الشعراء ؛ و فوق ذلك كان يكافئ عليه عند إعجابه به ،كما فعل مع كعب بن زهير عندما أنشده قصيدته "بانت سعاد".

إذن مما تقدم، فالشعر لم يتوقف، و لم يتخلف في هذا العصر، و أنّ من يعود إلى مصادره يجد أنه ظل

---

1. العمدة . ابن رشيق . ط : دار الجيل بيروت 1981 ، ج1 ص 31.
2. العمدة . ج1 ص 31 .
3. العمدة . ج1 ص31 .
4. الأغاني . ج4 ص 11.

مزدهراً في صدر الإسلام ، و يقف على بطلان دعوى ضعف الشعر الإسلامي ، و يتأكد أن ما استند إليه القائلون بهذه الدعوى يرجع إلى قلة اطلاعهم على النصوص الشعرية أو إلى تقليد مقولة الأقدمين أو تحميل بعض نصوص القرآن أو الحديث أو النقاد القدامى أكثر مما تحتمل أو توجيهها إلى غير ما أريد بها (1)

و في الوقت ذاته فإن الشعر الإسلامي لم يلق العناية التي لقيتها أغراض الشعر الأخرى في العصور اللاحقة ، و يرجع هذا الإهمال إلى طائفة من الأسباب لعل في مقدمتها ما أشاعه المستشرقون و تلاميذهم من العرب من أنّ أثر الإسلام في الشعر كان ضعيفاً ، و منها أن مصادر الأدب و موسوعاته الكبرى قد انصرفت إلى إغراض الشعر التقليدية الجاهلية ؛ و منها أن كثيرا من شعر الدعوة الإسلامية لم يقله شعراء محترفون مشهورون، وإنما صدر عن شعراء مقلين ، ومنها أيضا أن هذا الشعر لم يقيَّض له من يجمعه (2)

أما الآن، وقد أُتيح لهذا الشعر من يجمعه، كما أتيح للشعراء الإسلاميين مَن يحقق لهم دواوينهم وينشرها (*) فلا بد أن يُعاد النظر بدراسته وتقويمه ، فلم يكن انصراف بعض الشعراء عن الشعر إلا أمرا عارضا (3).

فالحق أن القول بوجود فراغ لا يخلو من مغالطة – فهذا الفراغ – كمًّا وكيفًا – زعم لا يعين عليه الإحصاء ، فعلى أبواب الدعوة الإسلامية كان أمية بن أبي الصلت والأعشى ، ودخل كعب بن زهير والحطيئة الإسلام ،وغير هؤلاء الثلاثة الكبار سنجد عددا وفيرا من الأنصار والمهاجرين والمكيين ، وجيل الحطيئة هو الذي أسلم الزمام إلى شعراء العصر الأموي من أمويين وخوارج وشيعة . وغير هؤلاء جميعا .

فالفراغ المزعوم دعوى تنكرها حقائق الاستمرار ... فالإسلام منح الشعراء فرصة ذهبية لا تعوض حين

---

1. الإسلام و الشعر : الغاني ص 27
2. الأدب الإسلامي . د: نايف معروف . ص: 269-270.

*. نشر منها : ديوان حسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، والحطيئة ، وأبو محجن الثقفي ، لبيد ، تميم مقبل ، سحيم بن وثيل ، حميد بن ثور ، المزرد بن ضرار ، كعب بن مالك ، عبد الله بن رواحة ، النمر بن تولب عمر بن معدي كرب ، العباس بن مرداس ، النعمان بن بشير الأنصاري .

3. الأدب الإسلامي . ص: 270.

وسَّع مدارك الإنسان العربي بما أدخل على عقيدته من سمو ورحابة ، وحين حرر علاقاته من سطوة القبيلة بمفاهيمها الضيقة (1).

فالإسلام لم يخفض من شأن الشعر كفن ، وإنما قدَّر خطره ، فحاول أن يجعله من جنود دعوته ، دون أن يكون ذلك حجرًا أو رفضًا لاتجاهاته الأخرى التي لا تتنافى وروح العقيدة وتعاليم الدين (2).

وكل ما في الأمر إذن، أن الإسلام أبعد نوعا خاصا من الشعر، هو ذلك الذي يجافي روح الإسلام وتعاليمه ، وفضائل الأخلاق ومكارمها ، ويباعد بين المسلمين ويفرق كلمتهم ويذكي فيهم روح العصبية ويولد فيهم الضغائن.

وإذا كان أثر الإسلام في الشعر – كما رأينا – لم يكن سيئا بالصورة التي تطالعنا بها الكثير من الكتب ، فإنه كان سببًا في ازدهار النثرِ الفني بشتى أنواعه ؛ إن لم نقل أنَّ النثرَ كان أثرا من آثار الحياة الإسلامية الجديدة.

فالعصر الجاهلي لم يكن له نثر بالمعنى الصحيح ، ومع ذلك فقد كان له نثرٌ خاص لم يصل إلينا إلا قليلُه، فخُلوُّه من الوزن كان سببًا في صعوبة حفظه ، على خلاف الشعر . هذا النثر هو الخطابة. في صدر الإسلام قوي فن الخطابة لأسباب الحوار ومحاولة الإقناع، سواء كان موضوعه الدين أو السياسة أو الخصومات المختلفة ، فقد كان لها دور خطير في تلك الحقبة الحاسمة من حياة أمتنا الإسلامية ، حيث كان لسان النبي – صلى الله عليه وسلم- في نشر دعوته ؛ والخليفة في سياسة رعيته ، والقائد في توجيه عسكره ، والإمام في إرشاد رواد مسجده ، والداعية في حمل رسالته للناس . فالدين الجديد قدم للعرب الحوافز الفكرية والوجدانية لتظهر فصاحتهم بأجلى مظاهرها ، ثم إن التبدل السياسي والاجتماعي والاقتصادي في حياة الناس جاء ليشحذ أذهانهم ويكثر من دواعي القول عندهم .

وإذا كانت الخطابة قد أسهمت في ازدهارها ظروفُ الحياة الجديدة ، فإن الكتابة نراها هي أيضا

---

1. مقدمة في النقد الأدبي . ص:274.
2. المرجع نفسه . ص: 275.

قد ازدهرت – وظيفيا وفنيا- مقارنةً بما كانت عليه في العصر الجاهلي – ازدهارا واسعا خلال تلك الحقبة من الزمن فقد أصبحت وسيلة الاتصال الأساسية بين الحاكم وبين ولاته وعماله وقادته ، وعُدَّت ضرورة حياتية تلبي حاجات الدولة والأمة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وإداريا (1) .

إذن أصبح إلى جانب الشعر – في هذا العصر – نثرٌ قوِيَ وازدهر نتيجة ظروف الحياة الجديدة ؛ عجز الشعر عن الوفاء بكل التزامات الإسلام وحاجات المسلمين جعله يفقد الريادة التي كانت له في العصر الجاهلي ، فلم يعد الفن القولي الوحيد، على الرغم من منزلته وأهميته التي لا خلاف في كونها كانت ولا زالت اللغة .

وخلاصة القول هنا، فإن الأدب في هذا العصر قد عرف تغييرا إيجابيا ، فعلى صعيد اللغة نجد لتجريدية العربية أصبحت بفضل القرآن لغة غنية بالمعاني الروحية والفكرية معا ، بعد أن كانت ترتبط بالمحسوسات ،و لا تتعمق الجوانب النفسية والفكرية ؛ وأعطى للفصاحة معنىً جديدًا أساسُه البعد عن التوعر والخشونة ؛ وحين نمضي إلى الأشكال الفنية فإننا نجد أثر الدين الجديد ماثلا في الخطابة والكتابة وتعدد أغراضها (2).

هذا عن الحياة الأدبية في هذا العصر ، فما ذا عن النقد الأدبي والأخلاقي منه خاصة ؟ .

---

1. من حديث الشعر والنثر . د: طه حسين . ط: دار الكتاب اللبناني . مج/ الكاملة . ج5 ص: 577-578.

والأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين . ص: 31- 841.

2. مقدمة في النقد . ص: 310-311.

2-النقد الخلقي عند العرب نتاج إسلامي

يمكن أن نقرر في البداية أن النقد الأخلاقي نتاج إسلامي ، وسنجد هذا الاتجـــاه النقـــدي موجـــودا بصورة ما في كافة عصور الأدب اللاحقة ، مع العلم أن تاريخ النقد يطلعنا على مجاهرة بعض الشعراء بما يتنافى ونظام القيم الذي وضعه الإسلام في عصور مختلفة ، وبخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، وهـــذا مـــا سنحاول الوقوفَ عنده مطولا في الفصل الموالي .

إن النظرة الأخلاقية في النقد أملتها ظروفُ الحياة الجديدة ، فقد جاء الإسلامُ ليتممَ مكارم الأخلاق ، ويهدم بنيان الرذائل ولما كان الأدب ،والشعر منه خاصة ، يحمل في كثير من الأحيان بذورَ الفســـاد ؛ يجـــهر بالرذائل ، ويثير الضغائن ، ويذكي نيران العداوة والحقد بين الناس ، حاول الرسولُ – صلى الله عليه وســـلم- باعتباره قائد المسلمين وقدوتهم أن يملي نظرة متحفظة إزاء هذا النوع من الشعر ، حيث وضع معايير جديـــدة ، نَحَت بالفكر النقدي منحىً متميزا ، يرى أن يتقيدَ الشعر بعقائدِ الدين ،وقواعد الخلق ، وأن يجعلَ الشـــعراء عواطفهم متفقةً مع الدين والأخلاق .

فقـــــد كـــان الرسول – صلى الله عليه وسلم – وخلفاؤه ومن يهمهم حماية الأمة وصون أخلاقها يحثون الشعراء على أن يترفعوا عن الشعر الماجن، وأن لا يذكروا في شعرهم من الأخلاق إلا ما يتفق وتعاليم الدين (1).

---

1 .قضايا النقد العربي قديمها وحديثها . د: داود غطاشة وحسين راضي . ط: مكتبة دار الثقافة 1991. ص:32.

كما أن هذا الاتجاه يدعو الشعراء والأدباء إلى الترفُّع عن التجارب التي غايتها التسلية وتشجيع الرذائل وتكريس السلبية .

فالأدب انطلاقاً من هذه الوجهة فِعلٌ جادٌّ يقوم بدور التربية والإصلاح ، فهو يغرس القيمَ الفاضلة والمثلَ الرفيعةَ ، يدل على الخير، ويزيّن الحقَّ ويجمِّله ، ويقبِّح الباطل ويهجِّنه .

حقا لقد حرص الرسولُ – صلى الله عليه وسلم- وخلفاؤه في هذه المرحلة على أن يجعلوا الدين سلوكاً وحياةً وهدفاً . وكان من الطبيعي أن تظهر نتيجة ذلك ملامحٌ إسلاميةٌ تحدد اتجاهَ النشاط الفكري في هذا العصر ، وتمنعه من الزيغ والتأثر بضلال الجاهلية وانحرافاتها .

ولقد تجلت أول ما تجلّت ملامح النقد الخلقي فيما ورد عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- من أحكام، كان يوجهها من حينٍ لآخر ، وهي وإن كانت سريعةً مقتضبةً – كما سنرى – إلا أنها تؤسس لقواعد الكلمة وفنّ الشعر ، وتعطي صورة واضحةَ المعالم عن التصوّر الخلقي للأدب ،والشعر منه خاصة ، باعتباره أشهر فنون القول آنذاك .

إذن لم يهملِ الرسول – صلى الله عليه وسلم- الجانبَ الأدبي ، لأنه يدرك خطورته – لاسيما في حياة العرب – على الرغم من انشغاله بالدعوة ، والقيام بأمور المسلمين . ويؤكد ذلك ما تجمَّعَ لدينا من أحاديث تبرز النظرةَ النبوية للشعر، فهو عندما يعبر عن مفهومه للشعر ، وعن المعايير التي تميز حسنَه و قبيحَه ، نجده يقول : " إنما الشعر كلامٌ مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خيَر فيه " (1) ، ويقول – صلى الله عليه وسلم – في نفس الصدد :

" إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب " (2) . وواضح أن الرسول – صلى الله عليه وسلم- إنما

---

1. الأغاني . ج 1 ص: 14.

2. العمدة . ج 1 ص:14.

قال هذا الكلام ليرفع اللبس والغموض عن موقف الإسلام من الشعر .

فالرسول – عليه الصلاة والسلام – يؤكد أن الشعر هو أحد الفنون التي لا حرج فيها ، إذ لا يعدو أن يكون كلاما ، ولكن ما يتميز به عن غيره كونه منظومًا .

ثم بين بعد ذلك أنه إذا كان الكلام يوصف تارة بالحسن وأخرى بالقبح ، ومرة بالطيب وثالثة بالخبث ، فكذلك الأمر بالنسبة للشعر ، فالشعر أيضا تعرض له هذه الأحكام .

ولنتمكن من تمييز قبيح الشعر من حسنه ، وضع لنا النبي – عليه السلام- المقاييس التي يتم على ضوئها تقييم الشعر ، " فالحسن منه ما وافق الحق ، وما لم يوافقه فلا خير فيه ، فأحسن الشعر وأطيبه في رأيه هو ما يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وهو ما يستل الضغائن والأحقاد من القلوب ، ويحل محلَّها المودةَ والإخاءَ ، أما الشعر الذي يولِّد الضغائنَ ، ويزيد من حدتها ، فهو لا خيَر فيه " (1) .

لذا نجده – صلى الله عليه وسلم- يقول في معرض حديثه عن رسالة الشعر : " الشعر جزل من كلام العرب ، يعطى به السائلُ ، وبه يُكظم الغيظ ، وبه يبلَّغ القوم في ناديهم ". فهذه الأقوال أراد بها النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخط للشعر طريقا يتفق وروح الإسلام ؛ ويعدل به عن طريقه الجاهلي . وبالفعل فقد ظهرت آثار هذه الدعوة في أشعار بعض الشعراء الذين فتح الله تعالى صدورهم للإسلام ، ولعلَّ أشهر هؤلاء حسان بن ثابت وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة – رضي الله عنهم جميعا- .

وإذا كان ما أوردناه هنا لم يشمل كلَّ ما صدر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم- من أقوالٍ وأحكام تتعلق بالشعر ، فذلك لكون الرجوع إلى المصادر يغني عن ذلك ، إضافة إلى أنَّ الغرض من إيراد هذه الأقوال ليس هو الإحصاء ، بقدر ما هو محاولة تحديد اتجاه الفكر النقدي في هذه المرحلة .

وخلاصة القول ، فالنقد لم يتغير عمَّا كان عليه في العصر الجاهلي ؛ فقد ظلَّ على عهد النبي – صلى الله عليه وسلم- بسيطا جزئيا ، لكن الجديد الذي نلمحه بوضوح هو ميلاد نزعة جديدة تحاول الاتجاهَ بالنقد

1. تاريخ النقد الأدبي عند العرب . د: عبد العزيز عتيق . ص:50.

اتجاهًا يتماشى وروح الإسلام وقيمه ؛ اتجاه يحكُم للشعر انطلاقًا من مطابقتـــه للحـــق ، وصيانتـــه للأخلاق ، ورعايته لأوامر الدين وتعاليمه.

إذن يمكن أن نردد ما أسلفنا قولَه ، وهو أنَّ النقد الأخلاقي نتاج إسلامي أوجدته ظـــروف الحيـــاة الجديدة . وأول من خط له الطريق – كما رأينا – هو الرسول –صلى الله عليه وسلم- وتبعه في ذلك خلفاؤه وغيرهم من النقاد في العصور اللاحقة .

ولعل أهم ما يسترعي الانتباه هو أن النظرتين الأخلاقية والدينية في عصور الإسلام المختلفة ،كانتـــا متلازمتين . فحينما ينادي الرسول – عليه الصلاة والسلام- بالشعر الذي يعلي مكارم الأخلاق ، ويحث عليها ؛ ويدل على الخير ، ويزين الحق ، فليست دعوته هذه من منطلق أخلاقي بحت ، بل هي دعوة كـــي يكـــون الشعر وسيلةً لتمجيد تعاليم الدين ، والتي تعد الأخلاق من أهمها.

إذن النظرة الأخلاقية للشعر من وجهة نظر إسلامية لها ارتباط حتمي بالدين ؛ وإن كنا نســـتطيع في الحقيقة الفصل بين النقد الخلقي والنقد الديني .

ولعل إيراد بعض الأمثلة يوضح الأمر . يروي صاحبُ الأغاني : " عن أنس بن مالك ؛ قال : جلـــس رسول الله – صلى الله عليه وسلم- في مجلس ليس فيه إلا خزرجي ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيـــم ، يعني :

أتعـــرف رسما كاطراد المذاهـــب لِعمرةَ وحشا غير موقف راكـــب .

فأنشده بعضهم إياها ، فلما بلغ :

أُجالدُهم يوم الحديقة حاســـرًا كأنَّ يدي بالسيف مِخراقُ لاعـــب.

فالتفت إليهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم- فقال : هل كان كما ذكره ؟

فشهد له ثابت بن قيس بن شماس ، وقال له : والذي بعثك بالحق يا رسول الله ، لقد خرج إلينا يوم سابع عرسه ، عليه غلالة وملحفة مورسة ، فجالدنا كما ذكر هكذا في هذه الرواية " (1) .

ففي هذه القصة يتضح لنا موقف الرسول –صلى الله عليه وسلم –تجاه قضية مهمة ، وهي صدق التجربة ، فهو بسؤاله : " هل كان كما ذكره ؟ " . يطلب من الشعراء والأدباء بطريق غير مباشرٍ تصويرَ الواقع بصدقٍ ، والابتعاد عن المبالغة و الكذب.

وواضح جدا أن هذه اللمسة هي أحد مظاهر النقد الأخلاقي ومبادئه التي ترى في تصوير الواقع بصدق جمالا لا يضاهى .

ويروي ابن الأثير في " أسد الغابة " أن الشاعر ضرار بن الأزور أنشد الرسول – صلى الله عليه وسلم – أبياتا قال فيها :

خلعتُ القِداحَ وعزف القيـــا ن ، والخمر أشربها والثمـــالا

وكري المحبر* في غمــــــرةٍ وجهدي على المسلمين القتـــالا

إلى قولـــه :

فيا ربِّ ؛ لا أُغبنَـــن صفقتي فقد بِعتُ أهلي ومالي بـــدالا .

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " ربح البيع ، ما غُبِنت صفقتك يا ضرار" .

وإذا كان الرسول – عليه الصلاة والسلام – قد أبدى إعجابا وتفاعلاً مع ما قاله هذا الشاعر، فإن ذلك راجع إلى كون مضامينه تتطابق وتعاليم الدين وأوامره ...

من هذين المثالين التطبيقيين يتضح لنا بأن الرسول – عليه الصلاة والسلام – قد مارس نقدًا أخلاقيا ونقدًا دينيا . ففي نقده الأخلاقي يدافع عن الفضائل والمثل التي مجدها ونادى بها الإسلام ؛ وفي نقده الديني يمنع الشعر الذي تتعارض مضامينه وتعاليم الدين ... ويشجع الشعر الذي يتفق وروح الإسلام ومقاصده .

1-الأغاني. دار الثقافة بيروت . 1962م ج 1 ص: 307 .

* فرس ضرار .

مما سبق يتضح أن نظرة النبي – صلى الله عليه وسلم – الأخلاقية للشعر ترتبط ارتباطا وثيقا بـالدين ، وكذلك الأمر بالنسبة للذين جاءوا بعده ، فعلاقة الأخلاق بالدين هي في الحقيقة علاقة الجزء بالكل .

يمكننا القول – بعد هذا – بأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – حاول أن يشق للشـــعر طريقـاً يتماشى وظروف الحياة الجديدة ، ويتجه به اتجاها يُبعِده عن كل مظاهر الجاهلية ونزعاتها ؛ اتجاه تضبطه القيـمُ الأخلاقية والمثل العليا التي جاء بها الدين . فالرسول – عليه الصلاة والسلام –يكون بذلك أولَ من اتجه بالنقد الأدبي العربي اتجاها أخلاقيا ، فعلى يده عرف هذا الاتجاه ميلاده .

وعلى يد الخلفاء الراشدين وبعض من أولوا عناية بفن الكلمة ، اكتملت صورة هذا الاتجاه واتضحت معالمه . وهذا ما سنحاول بيانه فيما يأتي ، وسنبدأ بالحديث عن ثاني الخلفاء الراشدين ونطيل معه الوقوفَ لـما له من أفضال جليلة على النقد عموما ، والاتجاه الذي نحن بصدده خصوصا ، ونشير إلى إســـهامات بـاقي الخلفاء باختصار لبساطتها أولا ، ولكون الدراسة لا تهدف إلى الإحصاء بقدر ما تهدف إلى الوقـــوف علـى الاتجاه النقدي السائد في ذلك العصر ثانيا ، ولكون الخلفاء الذين جاءوا بعد عمر – رضي الله عنه – سـلكوا سبيله وحاولوا مواصلةَ طريقه وطريقة تعامله مع الشعر والشعراء ثالثا .

يعد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – من أوائل النقاد الذين وضعوا اللبناتِ الأولى للنقـــد الأدبي عند العرب ، فآراؤه النقدية لا تصدر إلا عن ناقد على جانب كبير من الفهم لقواعد الشعر ومضامينـه ؛ ولا عجب ، فقد كان أكثر الخلفاء الراشدين سماعا له ، وتمثلا به ؛ وإلى جانب ذلك كان ينوِّه بمنزلة الشعر، ويحث على تعلمه وروايته ، فيقول : " علِّموا أولادَكم العومَ والرمايةَ ، ومُرُوهم فليثبوا على الخيلِ وثبا ، ورووُّهم ما يجمل من الشعر " (1) . لأنه " يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب " (2) .

وإذا كان دور عمر – رضي الله عنه – كبيرا في النقد العربي عمومًا ، فإنه في مجال النقد الأخلاقي أكبر ؛ ويحق لنا أن نؤكد بأنه من النقاد المتميزين الذين مثّلوا هذا الاتجاه ، وأعطوه صورةً دقيقة المعالم

1– الكامل . المبرد . ط: مؤسسة الرسالة . مصر . 1986. ج 1 ص 227

2– العمدة : ابن رشيق . ط: دار الجيل . بيروت . 1972. ج 1 ص 15.

بعد الرسول – صلى الله عليه وسلم – .فقد زاوج بين الجانب النظري والجانب التطبيقي، وهذا ما زاد الأمرَ جلاءً . وعلى قدر حسمه – رضي الله عنه – وصلابته في أمور الحياة المختلفة ، فقد كان واضحًا في رؤيته للنشاط الأدبي ، فهو يريد له أن يسيرَ ملتزما بركاب الدعوة الإسلامية وخادما للعقيدة والدين ومحافظا على القيم والمثل الكريمة .

لقد ترسم عمر – رضي الله عنه – منهج النبي – صلى الله عليه وسلم – ووعى عنه بعبقريته الفذة ، وبصيرته الوقادة ، ما حاول النبي الكريم تبيينه من خلال الأحاديث التي تناول فيها الشعرَ بالحديث ، واستطاع أن يكون تصورًا متكاملا لمهمة الأدب، وأن يضع معاييرَ تميز الصّالح والطالح من الشعر .

لقد صدر عمر – رضي الله عنه – في حواره مع الأدب عن : " منهج فكري واضح ، وعن رؤية مستنيرة ، إن آراء عمر في الشعر والشعراء ، وأحكامه المختلفة بالقبول والرفض ، والرضى والسخط ، لم يصدر عن هوى شخصي أو ذوق فردي ، ولكنها مُفتَرَف منهج متماسك أعطاها وحدةً وانسجاما ، وعصَمها من التناقض والتنافر "(1).

ولعلنا في حاجة للوقوف عند بعض أقواله ومواقفه النقدية لنتبين ونتأكد مما قلناه سالفا .

وأبرز الأمثلة التي رسَّخت تصور عمر – رضي الله عنه – الإسلامي ورؤيته الأخلاقية للشعر ما يرويه صاحب الأغاني عنه أنه – رضي الله عنه – قال لابن عباس : أنشدني لأشعر شعرائكم قال : من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير . قال : لِمَ كان كذلك ؟ فقال عمر: كان لا يعاظل بين الكلام ، ولا يتبع حوشيه ، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه " (2).

فهنا عمر – رضي الله عنه – يصدر حكمًا نقديا معللا، يولي فيه عناية بالصياغة اللفظية والمعنى على حد السواء . وعند تدقيق النظر في هذين الاعتبارين، نجد أن النزعة الأخلاقية والروح الإسلامية فيهما واضحة ، وإذا تأملنا في الاعتبار الأول وجدناه " موسوما أيضا بالسمة الإسلامية ، جاريا مع روحها ، ذلك

1 .شخصيات إسلامية في النقد والأدب . د: وليد قصاب . ط: دار الثقافة . الدوحة . 1992. ص: 45.

2 . العمدة . ابن رشيق . ط: دار الجيل بيروت . 1972. ج1 . ص 48.

أن حوشية الألفاظ ومعاظلة الجمل أسلوب أدنى إلى البداوة وأقرب إلى الأعرابية ، وبذلك يكون أبعد من روح الإسلام ، إذ هي أقرب إلى الحضارة ، وإلى تنفير الناس من البداوة والأعرابية التي تحمل عناصر الحيلة الجاهلية وتدعو إليها " (1) .

فهو يرفع من شأن الشعراء الذين يمجّدون المعاني الإسلامية ، وينوّهون بالأخلاق الكريمة ، ويميلون إلى الصدق ، ويؤثرون الحق ، ويسلكون سبيلَ الإنصاف ، ويبتعدون عن المبالغة والتشادق . كما أوضح اهتمامَه بالشكل الفني . فليس صحيحاً أن السمي وراء المضمون يشفع للشاعر التغافل عن الشكل ، مع العلم أن التأكيدَ على المضمون ملمح واضح في النقد الأخلاقي . وهذا يتضح بجلاء في ممارسات عمر – رضي الله عنه – النقدية . فهو مثلاً أثناء حديثه عن غاية الشعر ودوره نجده يقول : " إن الشعر يدعو إلى مكارم الأخلاق ، ويعلّم محاسن الأعمال ، ويبعث على جميل الأفعال ... وينهى عن الأخلاق الدنيئة ، ويزجر عن مواقع الريب ، ويحض على معالي الرتب " (2) . كما أنه : " يدل على معالي الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب " (3) .

فهذا كلام صريح عن وظيفة الأدب ، فهو مسؤول إلى حد بعيد عن نشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة ، فما كان يزين مكارم الأخلاق ويشجع عليها ، فهو المقدم ، وما كان خلافَ ذلك فهو مرفوضٌ ، لأنه لا يطّلع بالمهمّة الحقيقية التي أوكِلت إليه ؛ ولا يخضع لمقاييس الحق وتعاليم الدين .

وواضح جدا أن نقد عمر – رضي الله عنه– هنا ، وتنظيره كان موجها للمضمون دون الشكل ، كما يفعل غالبا .

لقد حرص عمر – رضي الله عنه – على أن يجعل الشعر في منأى عن بعض مظاهر الجاهلية وتقاليد شعرائها ، لذا نجده يقف موقفًا متحفّظا من بعض الأغراض الشعرية التي كان يسير بعضُ الشعراء فيها على خطا الجاهليين ، فضيّق من نطاقها،وحدَّ لها الحدودَ ، ورسم لها الطريقَ ...فقد نهى مثلا عن التشبيب

---

1. في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية . د/ طه الحجري . ط : دار النهضة ، بيروت ، 1982 . ص :60
2. نضرة الإغريض في نصرة القريض . المظفر العلوي . تحقيق د: نهى عارف الحسن . ص: 357.
3. العمدة ج1 ص : 15

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالنساء الأجنبيات، كما تصدّى للغزل الفاحش الذي يخدش الحياء ؛ ويعبر عن النوازع الشريرة ، فهو لا يتغاضى مثلا عن سحيم عبد بني الحسحاس حين يسمعه يقول :

تُوَسّدني كفًّا وتثني بمعصم عليَّ ، وتحوي رجلها من ورائيا

أو : ولقد تحدَّر من كريمة بعضهم عرقٌ على جنب الفراش وطيبُ.

فأمام هذا الاستهتار والفحش وقف عمر – رضي الله عنه – موقفا شديدا ، حين هدد هذا الشاعر ومن ساروا على هذا المنوال بالقتل ، فقال : " ويلك إنك لمقتول " (1) . فعمر – رضي الله عنه – بحكم موقعه كخليفة للمسلمين " شديد الحرص على وظيفة الشعر الخلقية ، وعلى تجنيده في الدعوة والإصلاح ؛ وفي إرساء القيم الفاضلة ، وإن أي ارتكاس في هذا المسار النبيل لابد أن يعرض صاحبه للمساءلة والعقاب " (2)

ولما كان الهجاء في الأعم الأغلب مطية لتناول أعراض الناس بالسب والقذف ، حاول عمر أن يقطع الطريق أمام مثل هذا الشعر، لأنه يثير الأحقاد ويحدد الضغائن ، ويهدم أواصرَ الأخوة التي تجمع المسلمين . لذا لم يقف عند مجرد النهي ، فإدراكه لخطورة التسامح في هذه المسألة دفعه إلى حدّ معاقبة الشعراء الذين خرجوا عمّا تمليه النظرة الأخلاقية للشعر ، كل ذلك شعورا منه بالمسؤولية التي يمليها عليه موقفه كخليفة وراع لشؤون الأمة على اختلاف مناحيها .

وموقفه من الحطيئة مشهور ، إذ كان هذا الشاعر الهجاء قد جاور الزبرقان بن بدر ، فلم يحمد جواره فتحول عنه إلى بغيض بن عامر الذي أكرم جواره ، فهجا الحطيئة الزبرقان هجاءً موجعاً (*)، ومدح بغيضًا ، فاستعدى عليه الزبرقان عمرَ بن الخطاب ، فاستدعاه عمر إليه ، واستنشده ، فأنشده الحطيئة ما قال فيه ، فقال عمر : ما أسمع هجاءً ، ولكنه عتاب . فقال الزبرقان : أو ما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس ؟ فقال

---

1. الشعر و الشعراء . ص :409.

2 . شخصيات إسلامية .ص: 30.

* : من بين ما قاله له : دع المكارم لا ترحل لبغيتها و اقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي .

عمر : علي بحسان . فجيء به . فسأله فقال : لم يهجه ، ولكن سلح (تغوط) عليه . حينذاك أمر عمر بحبسه ، بعد أن وعَى خفايا هذا الكلام . (1) ووعى أيضا ما أثر عن النبي – صلى الله عليه وسلم- في النهي عن الهجاء (*). إن هذا الموقف الحاسم من عمر – رضي الله عنه – يعد تحذيرا رسميا للشعراء جميعا في شخص الحطيئة النموذج ، وبيانا نقديا من ولي الأمر بأمراض الكلمة وملامحها الهجينة التي يرفضها الإسلام ، ويدعو إلى احتنائها .

وضح إذن أن معيار عمر في الحكم على الشعر قبولا أو رفضًا ؛ هو معيار إسلامي خلقي ، فهو يتابع رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – في التنظير للأدب ، وفي ترسيخ مفهوم الرؤية الأخلاقية للفن ، واستئصال القيم الجاهلية، وإخراج الأدب من العبث إلى الالتزام ، ومن اللامسؤولية إلى الهدف ، ومن اللاّوعي إلى مراقبة الضمير الحي ومحاسبته (2).

وكما أسلفنا فقد تبنى باقي الخلفاء هذا الاتجاه، ونافحوا عنه ،وحاولوا إلزامَ الشعراء بما تمليه النظرة الأخلاقية للشعر ؛ كل ذلك في حدود طاقة كل خليفة وظروفه السياسية التي نعلم جميعًا مَدى اختلافها من خليفة إلى آخر .

ولتأكيد ما نحن بصدد الحديث عنه، نورد بعضَ النماذج والأمثلة من الأحكام التي رويت عن الخلفاء الثلاثة ؛ أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب – عليهم الرضوان – والتي تحمل مقاييس هؤلاء في قبول الشعر أو رفضه.

ولعله من المفيد – قبل إيراد النماذج والمحاولات النقدية لهؤلاء الخلفاء- الإشارة إلى مسألة قد يشكل أمرها بعض الشيء وهي سبب شهرة الخلفاء سواء في صدر الإسلام أو عصر بني أمية في مجال النقد والأدب .

---

*: فقد قال : " إن أعظم الناس جرما إنسان شاعر يهجو القبيلة من أسرها " . و قال " سباب المؤمن فسوق و قتاله كفر " . و قوله أيضا: " من قال في الإسلام شعرا مقذعا فلسانه هدر " . و " من روى في الإسلام شعرا مقذعا فهو أحد الشاتمين ".

1. الأغاني . ج2 ص :150.
2. شخصيات إسلامية . ص:35

والأمر عند التأمل في الظروف التي ميزت تلك العصور – إضافة إلى اهتمام الخلفاء بالشعر حفظا ونقدا- تتمثل في تأخر التدوين بشكل واسع ومنظم ومرتب إلى القرن الثاني ، مما جعل المحاولات النقدية التي تصدر عن أشخاص عاديين لا يُلقى لها بالٌ ، وضاعت مع ما ضاع من الشعر وغيره من الفنون .

وبقيت المحاولات التي قام بها الخلفاء محفوظةً ، ولو رواية ، حتى دونت في عصور لاحقةٍ . وهذا أمر طبيعي ، فكل ما يفعله ويقوله أولياء الأمر و متصدّروا الناس يُحفَظ ، لأن هؤلاء في الحقيقة هم مركز اهتمام الناس .

لهذا كلّه نجد كتبَ النقد والأدب أثناء معالجتها لهذين العصرين تكاد تخلو من محاولات نقدية منسوبة إلى غير الخلفاء ، اللهُمَّ إلا بعض من اشتهر أمره لسبب من الأسباب ...

سبق وأن أكدنا أن باقي الخلفاء ترسموا خُطا النبي – صلى الله عليه وسلم- وعمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في هذا المنحى ، فأبوبكر – رضي الله عنه – عندما يقدم النابغة عن غيره من الشعراء ، فلأنه " أحسنهم شعرا وأعذبهم بحرا ، وابعدهم قعرا " (1) . والنابغة المعني هنا ، هو النابغة الذبياني ، فقد كان يقدّمه أهل الحجاز مع زهير على غيرهما من الشعراء . وقد فضّله عمرُ بن الخطاب – رضي الله عنه – أكثر من مرة ، وأُعجِب بشعره حسانُ بن ثابت – رضي الله عنه – حين سمع قصيدته في النعمان بن المنذر – وكان حسان مع هذا الأخير – والتي يقول فيها :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعَت لم يبدُ منهن كوكبُ.

فقال حسان : "...فما حسدتُ أحداً حسدِي النابغة ، لِمَا رأيتُ من جزيل عطيته ، وسمعتُ من فضل شعره ." (2).

فما تقدم أبي بكر – رضي الله عنه –للنابغة على غيره من الشعراء إلا لكونه كما يقول ابن قتيبة : "أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأذهبهم في فنون الشعر ..." (3) .

---

1. العمدة . ج1 ص: 78.
2. الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ط: دار إحياء العلوم . بيروت. 1984. ص: 92-93.
3. السابق . ص: 87 .

ويضيف ابن سلام على هذا الكلام :"كان شعره كلاما ليس فيه تكلّف " (1). وعلى ضوء ما قاله ابن قتيبة وابن سلام ،فاستحسان أبي بكر -رضي الله عنه - لشعر النابغة كان من ناحية شكله ومضمونه وبعده عن التكلف والتصنع والمبالغة التي هي بخلاف الصدق الذي يعد المعيار الرئيس في قبول الشعر ورفضه في هذا النوع من النقد .

أما عثمان بن عفان -رضي الله عنه-فيروي عنه صاحب الأغاني :أنه لما أنشد قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

قال :أحسن زهير وصدق ...

وزهير كما مرّ معنا أثناء حديثنا عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-قد نال إعجابه واستحسانه لما يتسم به شعره من سمات فنية وأخلاقية .يقول بن سلام :"وقال أهل النظر :كان زهير أحصفهم شعرا وأبعدهم من سخف ،وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ،وأشدهم مبالغة في المدح ،وأكثرهم أمثالا في شعره " (2)

إن استحسان عثمان -رضي الله عنه-لشعر زهير مبني على كونه محكم الرأي ،جيد التدبير ،بعيدا عن المبالغة ،أدنى إلى الواقعية والصدق .فعثمان -رضي الله عنه -أعجب بالصدق لذاته ،لأنه من مكارم الأخلاق وسلامة الفطرة .

وابن سلام في قوله :"أشدهم مبالغة في المدح "لايتعارض مع قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه - :"لا يمدح الرجل إلا بما فيه"،فلم يذهب إلى المبالغة الذميمة ،بل أراد الاجتهاد في تصحيح معنى المدح وتوفيته حقه .

أما علي -رضي الله عنه-فقد روى صاحب العمدة عن أستاذه عبد الكريم أنه-رضي الله عنه-فضّل امرئ القيس وعلل ذلك بقوله:"رأيته أحسنهم نادرة ،وأسبقهم بادرة ،وأنه لم يقل لرغبة.

---

1. طبقات فحول الشعراء . ج1 ص :56.

2 . نفسه . ج1 ص :64.

ولا لرهبة " (1).

ومما يلاحظ بشأن امرئ القيس، أنه عِيبَ عليه " تصريحه بالزنا والذيب إلى حرم الناس، والشعراء تتوقى ذلك في الشعر ،وإن فعلته " (2) .

وقد ذكره النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال: " ذاك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسي في الآخرة خامل فيها ، يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار " (3). وذكره عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقال : "سابق الشعراء خسف لهم عين الشعر " (4).

ولعلنا نجد أنفسنا أمام موقفٍ غريب بعض الشيء من علي – رضي الله عنه – بإزاء امرئ القيس ، فعلى استهتاره المعروف واشتهاره بالتهتر، و مجاهرته في شعره بالرذائل، إلا أن عليًّا – رضي الله عنه – قدَّمه وخالف إلى حدّ بعيدٍ مَن سبقوه في تقييمه لهذا الأخير . فالنبي– صلى الله عليه وسلم –كما مرَّ معنا –مع اعترافه بضُلوعه من الناحية الفنية إلا أنه ينعى عليه جانبا آخر .

وهو عدم التزامه بما تمليه الفطرة الإنسانية ، وبما تعارف عليه الناسُ من محمود الأخلاق ومكارمها ، نفس الشيئ يقال عند عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فهو مع إقراره من الناحية الفنية بقصب السبق في هذا الميدان لامرئ القيس، نجده يلمح إلى أنه كان سببًا في الكثير من المزالق التي انغمس فيها ودرج عليها مَن جاء بعده من الشعراء .

ولا يعني مطلقا هذا الكلام أن عليًّا – رضي الله عنه – يخالفُ النبي – صلى الله عليه وسلم- وباقي الخلفاء في المنحى النقدي الذي رسموه ، ويمكن أن نستشف ذلك من تعليله ، ففضل امرئ القيس حسب علي – رضي الله عنه- لما صنع بطبعه وعلا بسجيته عن غير طمع ولا جزع ، وواضح أن هذا النقد يقوم على ما تقرر بخصوص صناعة الشعر – من وجهة أخلاقية- إذ يطلب من الشاعر أن يلائم بين الأحكام الفنية

---

1. العمدة . ص:77.
2. الشعر والشعراء . ص: 71
3. الشعر والشعراء . ص: 65.
4. نفسه . ص: 65.

والأخلاقية ، ومع الطمع والجزع قد يحيد الشاعرُ عن الطريق ، ويجاوز المقدار ، فيتكلف أو يبالغ كاذبا ، وهذا في رأي علي – رضي الله عنه- ما لم يفعله امرؤُ القيس ، فنال بذلك استحسانَ عليّ – رضي الله عنه-.

لقد حاول الخلفاء كما رأينا إبعادَ الشعر عن الهجاء المقذع والمدح الزائف والغزل الفاحش ، وطلبوا من أرباب الشعر أن يتعففوا في روحانية سامية، ورقة دينية شفافة ، وأن يكونوا أصحاب رسالة إصلاحية ، تهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى أعلى مدارج الكمال ، وذلك بلفت انتباه المتلقين إلى الفضائل الإنسانية المثلى ، وتلقينها بطريقة متميزة ، تكون أدعى إلى تمثلها وتعلق النفس بها .

لقد تبنّ الخلفاء مفهومًا للشعر يتماشى والإطار الذي سبق وأن وضعه الرسولُ الكريم –صلى الله عليه وسلم- هذا المفهوم الذي يرى أن المهمةَ الأساسية للشعر هي مهمة أخلاقية بالدرجة الأولى ، فالشاعر يجب عليه أن يكون رسولَ خيرٍ، يبشّر به ويدعو إليه ، لا رسولَ شرٍّ وفساد .

ونحن أثناء استعراضنا للنقد الخلقي عند الرسول – صلى الله عليه وسلم-وخلفائه يمكننا أن نلمح التشدد الذي أبداه بعضُهم تجاهَ نماذجَ شعريةٍ ، وخلائق من الشعراء لم يطّلعوا بمهمتهم المنوطة بهم على أكمل وجه ، وأحسن صورة ، كلُّ ذلك إدراكًا منهم لأهمية الشعر وخطورته ، فهو وسيلة فنية تقدم الفضائلَ أو الرذائل- على حدِّ السواء -تقديمًا مؤثرا ، لذا نجدهم شدّدوا على هذا الجانب ، وحاولوا توجيهَ الشعر ليكون فنًّا – يجمع بين المتعة والجمال والمحتوى الأخلاقي – وانطلاقا من هذه النظرة فالشاعر صاحبُ رسالة ،ومن شأن صاحبِ الرسالة أن يتصدرَ الناسَ، ويفضلهم ، ولن يتحقق له ذلك إلا بوعيه وإدراكه لدوره ومهمته تجاه نفسه وأمته .

إلى جانب الخلفاء الراشدين، فقد جاراهم بعضُ الشعراء في اتجاههم النقدي ، وأبدوا اهتمامًا بقضايا الشعر والموازنة بين الشعراء . ولعل أشهرَ من رُوِيت عنهم بعضُ الأحكام النقدية لَبيد ، والحطيئة ، فهذا الأخير مثلا عندما يسأله ابن عباس – رضي الله عنه- عن أشعر الناس ، نجده يقدم زهيرا والنابغة ويردف قائلا : "ولكن الضراعة أفسدته – يعني النابغة- كما أفسدت جرولا – يعني نفسه – والله ياابن عم رسول الله لولا

الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين ، فأما الباقون فلا تشك أني أشعرهم وأصردهم (أنفدهم) سهما إذا رميت " (1).

إن الحطيئة مع كونه رقيق الإسلام لئيم الطبع ،كما يقول ابن قتيبة ، وكما تشهد بذلك أخباره ، أدرك أن الطمع والجشع يؤثران على شعر صاحبهما ، ويحطان من قيمته ، لِعلمه أن الطمعَ يدفع إلى المبالغة والكلام الزائف الذي لا يمت إلى الحقيقة بصلة ، وفوق ذلك فإن التلاقي بين سلوك الشاعر وما يقوله يُؤخَذ بعين الاعتبار في هذا النقد الذي مارسه النبي – صلى الله عليه وسلم-وخلفاؤه الراشدون .

وواضح جدا أن الحطيئة جارى نقاد ذلك العصر ، وأدخل القيمَ الأخلاقية كمقياس في هذه المحاولة النقدية.

من الشخصيات العلمية البارزة في تلك الحقبة ، والتي كان لها اهتمام مذكور بالأدب والنقد ؛ ابن عباس – رضي الله عنه – فكثيرا ما كان يحث الناس على تعلُّم الشعر وروايته ، لأنه ديوان لغتهم التي بها يُفهَم كتابُ الله تعالى ، وكثيرا أيضا ما كان يخوض في قضايا الشعر ، وتقوده محاوراتٌ طويلة مع الشعراء يبرز فيها رؤيته لهذا الفن ، ويتحدث فيها عن الضَّوابط التي يجب أن يلتزم بها الشعراءُ . ولعلَّ من المحاورات التي لعب فيها ابن عباس – رضي الله عنه – دورَ الموجه -ولا عجب وهو مَن هو – ما دار بينه وبين الحطيئة الذي سبق الحديث عنه كم من مرة . فقد أراد أن يلتمس منه فتوى في أمر هجائه الذي لم يسلم منه أحدٌ حتى أمه وأباه .

أقبل الحطيئة على ابن عباس – رضي الله عنه – وهو جالس في أحد مجالسه مع الناس ، فقال له : ...أتخاف علي جناحًا إن ظلمني رجلٌ فظلمته، وشتمني فشتمته ، وقصر بي فقصرت به ؟ فقال : العفوُ خير ، ومن انتصر فلا جناحَ عليه "(2).

---

1 .الأغاني . ج2 ص: 193.

2 .الأغاني . ج2 ص: 192

إن ابن عباس – رضي الله عنه – يحاول أن يبعد الحطيئة عن نماذجه الشعرية التي تتنافى وروح الإسلام الذي يدعو إلى الأخوة ، والحلم ، وضبط النفس ، وإزالة كل ما من شأنه أن يكون عائقا في طريق بناء مجتمع تنتشر فيه أخلاق الإسلام وتعاليمه ، ولما كان الهجاء هو أكثر ما كان يقوله الحطيئة ، حثه ابن عباس – رضي الله عنه – عن الابتعاد عنه ، وأن يسلك طريق الخير والبناء ، لا طريق الشر والهدم .ليعلمه أن كثيرًا من الأحكام التي يأتي ذكرها في الأهاجي ، لايتفق مع الحقيقة ، وأغلبها تتصف بالكذب والبعد عن الصدق الذي يُعَد فضيلة لا تنكَر ، ومقياسًا مهمًا في النقد الذي نحن بصدد الحديث عنه .

لقد انطلق كل هؤلاء (نقاد عصر صدر الإسلام) من حقيقة وعاها الكلُّ ، ترتكز – كما يقول د: " جابر عصفور " – على مفهوم (التقوى) الإسلامي، الذي يرى أن طبيعة الإنسان شبه محايدة ... ومن ثَمَّ تتوقف الصفات الأخلاقية للإنسان على نمط التربية الأخلاقية التي يتلقاها في مجتمعه ، ونوعية القيم الأساسية التي ينبغي أن تسود المجتمعَ ؛ ولهذا فهم يؤمنون أن سماتِ الشخصية الإنسانية واتجاهاتها الأخلاقية يمكن تغييرها تغييرا إراديا ، لو توَسَّل الإنسانُ بالجهد اللازم لهذا التغيير ، وما دام مفهوم التقوى الإسلامي يردُّ التمايز بين البشر إلى جهدهم الإنساني في التمسك بتعاليم الإسلام ، وما دامت أخلاق الإنسان قابلةً للتبدل في ضوء مسعاه ومكابدته في التحلي بفضائل الإسلام ، أو تعلُّم أخلاق الحكمة ؛ فإن الإلحاح على مفهوم الفضائل وجعلها أساسا لفهم الشعر يمكن أن يحقق نتائج مثمرة .

أولها: أنه يدعم المحاولات الإصلاحية التي تحاول أن تعدل من فساد المجتمع ، وتقترب به من الصلاح .

وثانيها : أنها تؤكد دور الشعر في عملية تغيير القيم ، واصطناع الوسائل المناسبة لتغييرها . (1)

وخلاصة القول، فإن هذه المرحلةَ شهدت ميلاد النقد الخلقي ، هذا النقد الذي كان نتاجا طبيعيا للحياة الجديدة التي كان الإسلام سببها . وقد أسهم في بيان ملامحه الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بأحكامه النظرية وتطبيقاته العملية ، حيث وضع أسسا وقواعد للكلمة ، على ضوئها يسير أربابُ الأدب،

1.مفهوم الشعر . د: جابر عصفور. ط: 4 سنة : 1990. مطبوعات فرح . ص: 81.

والشعر منه خاصة ، وجاء خلفاء الرسول – صلى الله عليه وسلم– من بعده ، وبعض صحابته وتابعوا رسالته ، وحاولوا إلزام الشعراء بهذه النظرة التي ترى بأن يسير الشعر على مناهج السلوك القويم ، والأخلاق السامية ، نظرة تهدف إلى أن يكون الأدب في خدمة المجتمع الجديد ، وأن يساهم في بنائه مساهمة إيجابية ، وغايتـــــه أن يكون الأدب مدعِّما للأخلاق لا مدمِّرا لها .

إلى جانب هذا نلاحظ اتفاق أعلام النقد ، ومن أولوا عنايةً بالشعر في عصر صدر الإســـلام ، فقـــد انطلقوا في ممارستهم النقدية من نظرة واحدة ، ولا يوجد في حدود علمنا من اختط لنفسه وجهةً مخالفة للاتجاه النقدي العام في تلك المرحلة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3- التحولات السياسية و الفكرية في القرن الأول الهجري

و أثرها في النقد

لقد شهد القرن الأول الهجري مرحلتين متمايزتين تقريبا في كل شيء ؛ فالنصف الأول منه كان أمر الخلافة فيه مبنيا على أساس مبدأ الشورى المقرر شرعا . وكان حرص الرسول – صلى الله عليه وسلم – وخلفائه الراشدين – على أساس أن تسير حياة الناس على اختلاف مناحيها وفق تعاليم الإسلام وروحه – شديدًا ، حتى صارت هذه الحقبة بحق حلقة ناصعة من حلقات تاريخ الإسلام.

ولأسباب لا نريد الخوض فيها ثارت نزاعات بين آخر الخلفاء الراشدين علي – رضي الله عنه – وبين معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه- أدت في النهاية إلى مقتل علي – رضي الله عنه- وانتقال الخلافة إلى معاوية –رضي الله عنه- الذي عرفت الخلافة على يديه انعطافا خطيرا ، حيث جعلها ملكًا متوارثًا في أهله وبنيه .

وليس من شكّ في أن هذا الأمرَ قد مهّد لفتنة كبرى ، انقسم فيها المسلمون إلى شيع سياسية ،كان على رأسها حزب بني أمية الذي استقر السلطان بين يديه ؛ إلى جانبهم نجد العلويين ، الزبيريين ، الخوارج ، وغيرهم .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وكنتيجة طبيعية وُجِدتْ بين هذه الشيع صراعاتٌ مريرة ، وخصوماتٌ عنيفة ، وثوراتٌ كثيرة ، كانت كلها مظاهرَ لهذا الانحراف الذي مُورِس من طرف الأمويين .

وحرصًا من هؤلاء على بقاء الحكم واستقرار السلطان في أيديهم ، عمل بعضُهم على إحياء ما أماتته الإسلامُ من عصبيات جاهلية ، انحرفت بسياستهم نوعا ما عن منهج الإسلام الذي يدعو لأن يكون المسلمون اخوة متحابين ، لا أعداءً متقاتلين .

وهكذا عرفت هذه المرحلةُ تغيراتٍ على أصعدة مختلفة ، فعلى الصعيد السياسي : كثرت الخلافات والثورات وتفشى الاضطهاد السياسيُّ لخصوم الدولة.

وعلى الصعيد الاجتماعي : طفت بعضُ مظاهر الجاهلية وسلوكاتها ، وتفشّت بين الناس وحتى الساسة .

أما على الصعيد الأدبي : فقد عادت الفنون الأدبية الجاهلية القديمة إلى الظهور ، من الفخر الكاذب و المنافرات ،والمفاخرات المرة ، إلى جانب نشأة الأدب السياسي والخطابة ، وازدهار فن المدح والحماسة، ووصف المعارك ، ورثاء القتلى .

ولعلّ من نافلة القول في هذا الصدد الإشارة إلى كون بعض مؤرخي الأدب يالغون ، بقصدٍ أو بغير قصد ، في كثير من الأحيان ، حينما يعرضون للحديث عن الانحراف الاجتماعي الذي حدث على أيام بني أمية، وكنا أثناء الكلام عن أخبار الخلفاء .

فعلى سبيل المثال نجد الدكتور : محمد عبد المنعم خفاجي يقول : " وأما الآثار الاجتماعية ، فإنك تعلم أن إحياء العصبية معناه سيطرة التفكير الجاهلي على الناس، وعلى الساسة ، وبذلك انحرف الأمويون ، بل الناس كلهم عن منهج الإسلام"(1).

والمؤكد أن واقع المسلمين آنذاك لم يكن بهذه الصورة التي يجيء بها هذا الكلام ، والمسألة لا تحتاج إلى

---

1 .الحياة الأدبية في عصر بني أمية . ط: دار الكتاب اللبناني . بيروت. ص:12..

كثير من الجدل لأن التاريخ يطالعنا بما يتناقض صراحةً مع هذا الكلام .

نفس الشيء وقع مع الدكتور : طه حسين * أثناء حديثه عن بعض الخلفاء ،حيث وسمهم بأقبح الصفات التي كـــان الخلفـــاء -أكثر من غيرهم- شديدي الحرص على أن يترفعوا عنها ، والعكس هو الصحيح ، فقد كان الواحد منهم يؤدب ويعلم بأورع المؤدبين والعلماء .

ولله ذرُّ الأستاذ : رفيق العظم حين قال : " وقد غالى بعض الإخباريين في إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس في الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق ، لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد عن معنى الأدب ...على أنه لو صح شيء منه لما كان لنا أن نتخذه دليلا على شيوع الفحش والفجور والشك بين أهل ذلك العصر، لأنه مجون لا يجوز أن يتعدى الماجن مهما تطاول إلى النيل من سواه باسم المجون ..." (1).

فالكثير من الروايات القصصية بعيدة عن الصحة ، ولا يصح أن تتخذ دليلا على حالة الأمة الروحية والخلقية في ذلك العصر ... وخاصة عندما نعلم أن التأريخ لمرحلة من المراحل يكون بعد مرورها بوقت قريب أو بعيد .

إضافة إلى تأخر عصر التدوين إلى أواخر القرن الثاني الهجري . والكل يدرك حدة التنازع بين الشيع الإسلامية والمذاهب السياسية ، وما يمكن أن ينجم عنه ، فكتب التاريخ تنقل أخبارا مثلا ينسبها شيعُ العباسيين إلى خلفاء بني أمية صوروا فيها انحطاط أخلاقهم و وضاعة سيرتهم ،اضف إلى ذلك ، فهناك الكثير من الكتاب من غير المسلمين اندسوا في المجتمع بنية مبيتة بهدف ضرب الإسلام ، وذلك بتشويه صورة القائمين بأمور الحكم ، وحتى من يتصدرون الناس عادة من أدباء وشعراء وغيرهم ... "فلو سلمنا بكل ما جاء في تلك الكتب والأقاصيص ، واعتبرناها أخبارا صحيحة ليس فيها شائبة ...لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التي نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد " (2).

---

* انظر : حديث الأربعاء . ج2 ص: 406.

1. مقال للأستاذ : رفيق العظيم نشر بالسياسة في 8- فيفري – 1923.
2. نفس المقال .

أما الجانب الأدبي فالجميع يشهد بازدهاره وقوته ، من ناحية كمه وتنوع أغراضه وألوانه ، كما يشهد الجميع أيضا بذلك الانحراف الذي تبدى في نتاج الشعراء ، حيث جاهر بعضهم بما يتنافى صراحة وتعاليم الدين وروحه السمحة ، كما هو الحال في تلك الأهاجي التي اشتعلت نيرانها بين الثلاثي المعروف : جرير والفرزدق والأخطل ؛ في مسرح المربد ، والتي كانت تأخذ شكل لعبة طريفة، يتجمع الناس لمشاهدتها والفرجة عليها ؛ وعلى الرغم من أن شعر الهجاء فيه تمزق الأعراض، وتنتهك حرم الآباء والأمهات، وتذكر العورات ، وفي كل ذلك تطاول على نظام القيم ومبادئ الإسلام وأحكامه ، التي تهدف إلى وأد كل ما من شأنه أن يكون سببا في العداوة ، أو مثيرا ومنبها للأحقاد ، لقد انتكست " الكلمة -وقد ولى عهد الراشدين وبعض الأمويين --- في بعض علل الجاهلية مرة أخرى ، وعادت الملامح المعينة التي احتثها الإسلام لتشوه وجهها ، رجع كثير من الشعراء إلى سابق عهدهم يمدحون ويهجون ويتاجرون بالكلمة ، ويشببون بالنساء تشبيبا فاضحا ، عادوا يهيمون في أودية القول ويمتطون ظهر السفه ... انتشر المديح بشعا حادا ، وشاع الهجاء الفاحش ، وصار في بعض الأحيان غرض دعابة وتسلية وشغل للناس ، وراحت تنتهك فيه الأعراض والحرمات ، وتتفجر فيه حماقات الجاهلية القديمة ...لقد بدأت الصورة الكريمة التي دعا إليها الإسلام ، وثبتها الراشدون المهديون تهتز ..."(1)

أما في مجال النقد ، فإني أسارع في بداية الأمر فأقول : إن مَن أولوا عناية بالنقد قد تجاذبتهم اتجاهات مختلفة ، أو بالأحرى أصبح الجانب الأخلاقي غير محترم عند بعضهم ؛ فقد عاشت الرؤية الأخلاقية للشعر -- في هذه المرحلة -- حالات من المد والجزر ، والظهور والاختفاء . كل ذلك نتيجة ظروف وملابسات، نتعرف عليها بعد عرضنا لشواهد نقدية تخص هذا العصر.

ولعله من المفيد هنا الإشارة إلى أن أصناف الناس الذين كانت لهم آراء ذات طابع نقدي -- في هذه الفترة -- هما طائفتان :

---

1. شخصيات إسلامية . ص: 72-73.

طائفة الخلفاء : ونأخذ منهم على سبيل المثال معاوية بن أبي سفيان وعمر بن عبد العزيز – رضي الله عنهما– ، وطائفة الأدباء ومن اهتموا بالأدب ونقده : ونذكر منهم على وجه الخصوص ابن أبي عتيق وسكينة بنت الحسين .

فالطائفة الأولى : ومثالاها يمثلان في الحقيقة النقد الخلقي ، فقد نافحوا عنه ووجهوا الشعراء انطلاقا من هذه الرؤية ، وقيموا أشعارهم من خلالها ، وهذا ما سنلاحظه أثناء حديثنا عن معاوية وعمر بن عبد العزيز – رضي الله عنهما – .

أما الطائفة الثانية : ومثالاها يمكن أن يكونا أنموذجين لمن تسامح في عدم التأكيد على المهمة الأخلاقية للشعر ، والتي كانت تؤخذ بعين الاعتبار عند الجميع في العصر السابق.

1. فمعاوية بن أبي سفيان –رضي الله عنه– يعد من الخلفاء الذين عرف عنهم اهتمام مذكور بالشعر والشعراء ، فقد أثرت عنه ملاحظات أدبية وآراء ذات طابع نقدي . ولا عجب فقد استوفى الأدوات التي تسعفه على ذلك والخبرة التي تجعله أهلا للخوض في هذا النشاط الأدبي ، فهو من أرباب الفصاحة والبلاغة والعلم ؛ حفظة للشعر ، كثير التمثل به والاستشهاد بعيونه وشوارده .

وإذا ما تأملنا آراء معاوية النقدية ، نجد فيها حديثا عن وظيفة الشعر ودوره الخلقي الإصلاحي ، فهو مثلا عندما يعاتب زيادا عن تقصيره في تعليم ابنه الشعر، نجده يقول : " ما منعك أن ترويه الشعر ؟ فوالله إن كان العاق لترويه فيبر ؛ وإن كان البخيل لترويه فيسخو ، وإن كان الجبان لترويه فيقاتل " (1).

ودخل عليه مرة الحارث بن نوفل ومعه ابنه عبد الله ، فسأله معاوية : " ما علمت ابنك ؟ قال : القرآن والفرائض . فقال : روِّه فصيحَ الشعر ، فإنه يفتح العقل ، ويفصح المنطق ، ويطلق اللسان ، ويدل على المروءة والشجاعة " (2).

1 .العقد الفريد . ابن عبد ربه .تحقيق أحمد أمين و إبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون .القاهرة 1949.ج5 ص:274.

2 . المصون في الأدب . أبو هلال العسكري .تحقيق عبد السلام هارون .الكويت .1960.ص: 136-137.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهاتان الكلمتان نجد فيهما لمسة نقدية، تحدد دور الشعر ومهمته ، فقد دعا معاوية إلى ضرورة الإقبال عليه، لأنه وسيلة فعالة تؤثر في حياة الفرد والمجتمع ، فتعينه على رفع مستواه الفكري والأخلاقي ، وتبعده عن الأنانية ونضوب خوالج النخوة والمروءة والإحسان والكرم والشجاعة ، إنه مشعل ينير الطريق أمام الناس ، يكشف لهم العيوبَ والهِنات والرذائلَ ، ويقبحها وينفِّر الناسَ منها ، ويطلب القضاء على رواسبها وآثارها البغيضة ، وفي المقابل يبين المعتقدات والفضائل الإنسانية المثلى التي يتوقف صلاحُ المجتمع وتقدمُه نحو غاياته وأهدافه على مدى تجذُّرها ورسوخِها في حياة الناس .

ونحن إذا ما حاولنا مقارنة هذه الكلمات وما سيأتي مع ما سبق من آراء عمر النقدية ، اتضح أن معاوية يسير على خطا عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في هذا المنحى الخلقي من الحديث عن الشعر ، وبيان أغراضه ووظائفه، والإلحاح على تعلُّم النماذج الخيرة منه . وفي المقابل وانطلاقا من هذه النظرة ، أثر عنه استهجانُه لضروب من الشعر، وسفه قائليها، ونهى عنها، ورأى فيها منقصة لقائلها ،وضربا من الإفساد والعبث ، وقد تجلى ذلك فيما قاله لعبد الرحمن بن الحكم ؛ حينما أراد أن يبصره بطريق الشعر الهادف الجاد : " يا ابن أخي ، إنك شهرت بالشعر ، فإياك والتشبيب بالنساء ، فإنك تغر الشريفة في قومها ، والعفيفة في نفسها ...وإياك والهجاء ، فإنك لا تعدو أن تعادي كريما ، أو تستثير به لئيما ...وإياك والمديح ، فإنه طعمة الوقاح وتفحش السؤال ... ولكن افخر بمآثر قومك ، وقُل من الأمثال ما تزين به نفسَك ،وتؤدب به غيَرك " (1).

إن النزعة الدينية والخلقية واضحة في هذا النص الهام ، لقد نهى معاوية عن أغراض حسيسة في الشعر ، وعلل ذلك تعليلا خلقيا ، نهى عن التشبيب بالنساء ، لما فيه من الفحش واعتداء على الأعراض وفضح للحرمات ، ولما فيه من إغراء بالرذيلة واستبهار بالفاحشة وتزيين للمنكر ، ونهى عن الهجاء ، فهو قذف يزرع الحقد ، ويولد البغضاء ، ونهى عن مديح التكسب الذي لا يميز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب ، وإذا

1 .العقد الفريد . ج5 ص: 271.

كان ولابد ، فليمدح الشاعر أهل الفضل والخير، توقيرا لا طمعا ، وتجسيدا للمثل لا جشعا ؛ إن هذا النص واضح الدلالة على أن الشعر فن جاد ذو غاية وهدف ، ولا يجوز اتخاذه مطية للعبث والإفساد ، والشاعر صاحب رسالة ، فهو مؤدب مصلح ، يروج للحق ويمجد الخير ويسمو عن مواطن الريب والسفه (1).

معاوية – رضي الله عنه- كما عهدناه خبير بفن الشعر، عالم بأسراره ، لذا نجده يشجع بعضَ الشعراء الذين ساروا بفنهم على الطريق الذي ارتضاه وضبط معالمه ، فاستحسن الشعر الذي لم يجانب الحق والصدق ، وكافأ عليه ، فقد روي عن عقبة بن هبيرة الأسدي ، أنه وفد على معاوية وسلّمه رقعةً فيها ما يلي :

فهبنا أمةً ذهبت ضياعاً يزيدٌ أميرها وأبو يزيد

أكلتم أرضنا فجردتموها فهل من قائم أو من حصيد

أتطمع في الخلود إذا هلكنا وليس لنا ولا لك من خلود

ذَرُوا خَوَن الخلافة واستقيموا وتأمير الأراذل والعبيد

وأعطونا السوية لاتزركم جنود مُردفات بالجنود.

فدعاه معاوية ، فقال له : ما جرّأك عليَّ ؟ . قال : نصحتك إذ غشُّوك ؛ وصدقتك إذ كذبوك . فقال : ما أظنك إلا صادقاً ، فقضى حوائجه (2).

فالشاعر صوَّر واقعا ربما كان يخفى على معاوية – رضي الله عنه- و لم يكن أحدٌ ليجرأ على مكاشفته له . وهذا ما يفهم من قول معاوية : " ما جرأك علي؟" ؛ لخطورة ما تناوله هذا الشاعر ؛ فلقد استطاع أن ينقل معاناة الرعية ، وبعض مظاهر الفساد في الحكم ، نقلاً صريحا لاالتواءَ فيه ، يخالف مخالفة تامة طريقةَ أولئك الذين تحدث عنهم الشاعر ، فهؤلاء تبنوا الغش والكذب وتعمية الحقائق ، لحاجة في انفسهم . فشاعر كهذا يمثل في الحقيقة الشاعر الملتزم الجاد الصادق الذي يسعى جاهدا ليكون لسان مجتمعه ، وعينًا على ما يُحمَد ويذَم منه ، وهذه هي المهمة التي يريد معاوية أن يتولى أمرَها الشعراء ُ، ويسخِّروا شعرهم لها ، وهذا سبب

1 .شخصيات إسلامية . ص: 62.

2.خزانة الأدب . البغدادي . تحقيق عبد السلام هارون . ط: مكتبة خانجي 1979. ج2 ص: 260-261.

وفي المقابل أثر عنه استهجانه لأشعار ، خرج أصحابها فيها عن دورهم المنوط بهم ، ليخوضوا في شطحات جاهلية تضر بالمجتمع ، وتعود به إلى ماضيه الجاهلي البغيض ؛ فمعاوية يسعى إلى كبح جماح نزوات هؤلاء الشعراء ، إذا كان في قولهم وسلوكهم ما يمس الدين، أو الخلق، من قريب أو بعيد ، ولا عجب فهو خليفة المسلمين والقائم بأمورهم ، ومن واجبه المحافظة على أخلاق الرعية ودينها من التلاعب والاستهزاء .

وإذا كان معاوية قد يعجبه من الشعر حتى يكافئ عليه ، فإنه قد يسخط على بعضه حتى يعاقب عليه ، ولعل ما رواه صاحب الكامل أوضح دليل على ذلك :

بلغه أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت هاجى عبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي بهذه الأبيات :

فأما قولك الخلفاء منا ... فهم منعوا وريدك من وداج

ولولاهم لكنت كحوتِ بحر ... هوى في مظلم الغمرات داجي

وكنت أذلّ من وتد بِقاع ... يشجج رأسه بالفهر واجي.

فكتب معاوية إلى مروان ان يؤدبهما، وكانا تقاذفا ، فضرب عبد الرحمن بن حسان ثمانين ، وضرب أخاه عشرين(1).

وموقفه مع أبي دهبل الجمحي الذي شبب بابنته يدل على مقته لبعض الأغراض الشعرية الخسيسة ، حيث جعل هذا الشاعر بدهائه وحكمته يخرج إلى مكة هاربا على وجهه.

وهكذا فقد صدر معاوية – رضي الله عنه – في آرائه النقدية عن نزعة خلقية ، فهو يؤثر المعاني الهادفة النبيلة ، والشعر الملتزم البناء ، وينفر من شعر السفه ، والمعاني التافهة ، والأغراض الدنيئة ،كالتشبيب والهجاء وغيرهما .

مرت عقود من الزمن في خلافة بني أمية ، حتى رجع كثير من الشعراء بالشعر إلى سابق عهده في

1 . الكامل، المبرد، تحقيق محمد الدالي ، ط: مؤسسة الرسالة بيروت، 1976، ، ص: 342

الجاهلية ، فالكثير من الشعراء

بطبعهم ميالون إلى الجموح والتمرد ، ومجاوزة المقدار ، ولما كان شأن بعض الخلفاء هو مجاراة هـذا الصنف من الشعراء ومكافأتهم في كثير من الأحيان – لأسباب سياسية يعلمها الجميع –وُجِد الجو المناسب لهؤلاء كي يخوضوا في شطحات ما كانت لِتوجد ، لولا مساعدة بعض الخلفاء ، وانعدام الخليفة الحازم الـذي يوجههم ، ويأخذ على أيديهم إذا استدعى الأمر ذلك .

في أواخر القرن الهجري الأول ، وبداية القرن الهجري الثاني، انتقلت الخلافة إلى الخليفة الملهَم ؛ عمر بن عبد العزيز –رضي الله عنه–الذي وجد أوضاعَ الدولة وأحوال المجتمع في حاجة إلى إصلاح .

وكان مما يجب أن تمتد إليه يد التقويم الشعرُ ، باعتباره وسيلةً ذات خطر ،وخاصة في حياة العـرب في تلك العصور ،فالناس شديدو التعلق به ، وما يصدر عن الشعراء يجد منفذه وطريقه إلى النفوس غالبا .

وإدراك عمر هذه المسألة لا يتطرق إليه الشكُّ ، فقد كان فصيحاً عالماً ،فقيهاً ،كثيَر الحفظ للشـعر والتمثل به ،عليمًا بأسراره وخفاياه . فقد بدا ساخطا على كبار شعراء ذلك العصر ، وتبين سخطه هذا مِـن عزوفه عنهم ، وعدم الاكتراث بهم ،لأنهم لا يراعون ، ولا يلتزمون بالمسؤولية المنوطة بهم .

وشعراء أمثال هؤلاء لا يستحقون أن يكونوا ممثلي مجتمعهم ، ولا يصلحون شهداءَ على عصرهـم ، ولا يمكن أن يحظوا برضَى الناس ، نتيجة تجاوزهم نظام القيم الأخلاقي، وما تمليه تعاليمُ الدين ، وهذا ما دفـع عمرَ كي يرفض استقبال العديد من الشعراء لأنهم يمثلون الزيغَ والعبثَ والاستهتارَ بكل شيء .

مثلاً أبى استقبالَ عمر بن أبي ربيعة – حينما جاءه مهنئا بانتقال الخلافة إليه – لأن أغلب شعره فيـه هتك للأعراض ، وفضح للحرمات ، واستهتار بالأخلاق ، و استبهار بالفاحشة...

وقد ذكر عمر بن عبد العزيز بعضَ الأبيات الشعرية لهذا الشاعر، ليبيِّن لمن معه سببَ عزوفه عنـه ، فقال أليس القائل :

ثم نبهتْها فهبـت كِعَـابـا طلقة ما تبـين رجع الكـلام

ساعة ثم إنـــها بعد قالـــت ويلتا،قد عجلت يا ابن الكرام

أعلى غير موعد جئت تسري تتخطى إلى رؤوس النيـــــــام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه ،لا يدخل والله علي أبدا.

ثم انتقل للفرزدق فقال : أليس هو الذي يقول :

هما دلتاني من ثمانين قامـــــة كما انقض باز أكتم الريش كاســره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا أحي يرجى ، أم قتيل نحاذره ؟

لا يطأ والله بساطي " (1)

فهذه النماذج التي قدمها عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - تعكس بوضوح المنازع الفكرية لهؤلاء الشعراء ، فهي أشعار منحرفة ، تنم عن استهتار كبير بقيم الدين ، وجهر بالفاحشة ، واعتداء صارخ علـــى القيم النبيلة .

لقد زهد عمر - رضي الله عنه - فيما تهالك عليه بعض خلفاء بني أمية ، وقدموا عنه المكافآت ؛ مـــن المديح الزائف ، والفخر بالقيم الجاهلية ، والغزل الفاحش . وحاول جاهدا كبح جماح الشعراء المصرين علـــى السير في هذا المنحى . وفي المقابل راح يدعو الناس قائلا : " تحدثوا بكتاب الله تعالى ، وتجالسوا عليـــه ، وإذا مللتم فحديث من أحاديث الرجال حسنٌ جميل " (2)

كما خاطب الناس قائلا : " أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا ، يرفع إلينا حاجـة مَن لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير ما لا نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعيـة ، ولا يعترض فيما لا يعنيه . فانقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد . وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعلُه قولَه " (3)

---

1 . سيرة عمر بن عبد العزيز . ابن الجوزي . تحقيق محب الدين الخطيب . ط : مطبعة المؤيد والمنار . مصر . ص : 167.

2 . سيرة عمر بن عبد العزيز . عبد الله بن الحكم . تحقيق أحمد عبيد . ط: عالم الكتب . بيروت . 1984. ص: 95.

3 . مختصر تاريخ دمشق . ابن منظور . تحقيق نخبة من الأساتذة . ط : دار الفكر دمشق . ج: 19 . ص: 108.

لقد تمكن عمر بعد أن ذاعت أخبارُه ، وما يتميز به عن بعض من سبقوه ، وتناقل الناسُ كلامه أن يعيد لفنِّ الشعر صفاءَه ، وللشعراء الشعورَ بالمسؤولية المنوطة بهم . وكان من الشعراء الذين وعَوا مضمونَ كلام هذا الخليفة ،جرير ؛ فقد أنشد عمر قصيدة منها :

لجت أمامةُ في أمـــري وما عَلِمـــت ... عرض اليمامة روحَاتي ولا بكـــري

ما هوَّم القومُ مذ شدوا رحالهـــــم ... إلا عشاشًا لدى أعصارها اليســـر

يصرَحن صرْحَ حصى المِعزي إذا ... وقعت شمسُ النهار وعاد الظل للقمر

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا ... من الخليفةِ ما نرجو من المـــطَـــــر

أأذكر الجهدَ والبلوى التي نَزلت ... أم أكتفي بالذي أُنبئتَ من خبَـــري

ما زلتُ بعدك في دارٍ تقحُّمُني ... وضاق بالحيِّ إصعَادي ومنحَدَري

لا ينفع الحاضرُ المجهودُ باديَنا ... ولا يعـــودُ لنا بـــادٍ على حضَـــر

كم بالمواسم من شعثـــاءَ أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيف الصوت والنظر

فأبدى عمر إعجابه بما سمع ، وقال لجرير : إنك لتصف جهدك (1).لأن جرير رفع إليه شكوى مـــن لايستطيع ، وأخبره عن ضراء أمسكت المسلمين في بعض أجزاء الخلافة . الأمر الذي جعل الخليفة عمر يجـــهز عيرًا إلى الحجازِ ، تحمل نفقاتٍ توزع على المحتاجين والفقراء . وليس من شك أن هذا المثـــل أراده الإســـلام للمسلمين ، حتى تجتمع كلمتهم ، ويكون عونا لهم على تنفيذ أحكامه ، وتمثل تعاليه في حياتهم.

ويُفهَم مما تقدَّم أن عمرَ – رضي الله عنه – ينظر إلى الشعر على أنه فنٌّ جادٌ ذو غاية وهدف ، وليس مجرد وسيلة للمتعة ، وإثارة حماقات الجاهلية المقيتة.

لقد انظم عمر إلى من نادوا بضرورة ابتعاد الشعراء عن التهريج ، واعتبار الشعر لعبة للتسلية و تجزيـــة أوقات الفراغ،ورسم مع أضرابه صورةً تستمدُّ ملامَحها من مثالية الإسلام الرفيعة ، ومما عاش فيه هؤلاء من

1 .نفسه . ص: 170.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مؤثرات مختلفة ، دعا الناس أن يقبلوا على الشعر الحسن الجميل ، لأنه سيكون عونًا لهم على معرفة الخير وسلوك سبيله ، ومعرفة الشرِّ واجتنابه ، كما دعا الشعراء أن يكونوا من الذين استثناهم الله –عز وجل– من الغواية و الإغواء ، وذلك بالإيمان و الإقبال على الصالحات ، وتزيينها والدعوة إليها ، والابتعاد عن الرذائل والمنهيات ، وتقبيحها والتنبيه عليها ، وأن يكونوا أصحابَ رسالة نبيلة ، يدعون إلى الفضائل الإنسانية المثلى ، فالشعر إضافة إلى المتعة الفنية التي يحدثها في نفس المتلقي ، فهو أيضا وسيلة إصلاحية تقوِّم اعوجاجَ المجتمع وفسادَه.

وواضحٌ جدا مما تقدم من آراء عمر ذات الطابع النقدي ، أنه تبنَّى النزعة الخلقية ، وانطلاقاً منها استحسن ما استحسنَ من الشعر، واستهجن ما استهجن منه ، وعلى ضوئها بنى تصوّرَه لمهَمَّة الشعرِ .

أشرنا في الصفحات السابقة إلى أن استغلالَ القصيدة للدعوة للفكرة الأخلاقية والدينية قد تقلَّص، وانكمش ،في فترات من العصر الأموي ، حيث عاد بعضُ الشعراء بالشعر إلى مجرَاه الأول ،واتجاهه الجاهلي ، إذ تركوا الدين والأخلاق جانبًا غير مكترثين بما يفترض أن يضطلعوا به من مسؤوليات ، وما يؤدوه من مَهَامٍّ.

وللأسف نسجل انسياق بعض النقاد ومؤازرتهم لهؤلاء الشعراء في هذا المنحى، إذ " لم يتخذوا من الدين أو الأخلاق أساسًا يرفعون به شاعرًا ويخفضون آخر ، واستبعدوا الخيرية من ميدان الحكم النقدي ، وربما رأوا مترعَ الشرِّ أقربَ إلى طبيعة الشعر أو أنه على الأقل مما يحسن به فن الشعر " (1).

فنحن مثلا إذا ألقينا نظرة على ابن أبي عتيق في بعض آرائه النقدية نجده يقدم عمر بن ابي ربيعة ويعلل ذلك قائلا : " لشعر عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب ، وعلوق بالنفس ، ودرك للحاجة ليست لشعر ؛ وما عصي الله عز و جل ؛ بشعر أكثر مما عصي بشعر عمر بن أبي ربيعة ، فخذ عني ما أصف لك : أشعر قريش من دق معناه ، ولطف مدخله وسهل مخرجه ، ومتن حشوه ، وتعطفت حواشيه ، وأنارت معانيه ، وأعرب عن حاجته " (2).

---

1 .الأسس الجمالية في النقد الأدبي . د: عز الدين إسماعيل . ط: دار الفكر العربي . 1955. ص: 185.

2 .الأغاني . ج1 ص:84.

فهذا النص يمكننا من خلاله إدراك حقيقتين ، أولاهما : أن النص يمثل مرحلة متقدمة في النقد المعلل الذي يبرز المقاييس التي يبنى عليها الحكم النقدي ، فهو يرجع تقدم الشعر إلى القيم المعنوية والشعورية والشكلية التي ينطوي عليها ، وكذا بلوغه إلى الإعراب عن حاجته والوصول إلى إطراب متلقيه.

وثاني الحقيقتين : إضافة إلى الجانب الإيجابي في هذا النص أطلعنا بمقياس جديد كان في العصر السابق ، وحتى عند أغلب نقاد عصر صاحبه سببا في استهجان الكثير من الأشعار والطعن في أصحابها والاستياء من مرديها .

فعدما كان الشعر يقدم بمقدار ما يحويه من معان سامية نبيلة ؛ وما يدعو إليه من فضائل وما يجليه من حقائق . أصبح خلاف ذلك تماما ، فالشعر الذي يدعو إلى الاستبهار بالفاحشة ، والاستهتار بالدين ، والإغراء بعصيان الله تعالى وعدم الالتزم بقواعد الأخلاق ؛ هو المثال الذي يجب أن يحتدى به ، ويصغى إليه ويروى بين الناس .

ومما لاشك فيه أن هذا المعيار الجديد يتعارض صراحة مع المنحى النقدي الذي دعا إليه النبي – صلى الله عليه وسلم- والخلفاء الراشدون وغيرهم ممن تناولنا بعضهم بالدراسة . فالأحرى والأجدر أن تكون هذه السمة التي وصف بها شعر عمر بن أبي ربيعة مبررا للطعن فيه وإنكار إباحيته التي عبثت بكل شيء ؛ وليس رفعه إلى مصاف أشعر الناس.

وربما لا نتفق مع الذين يقولون أن هذا الناقد الذي يتصل نسبه بأبي بكر الصديق – رضي الله عنه- يمثل عصره ، لأن هناك الكثير من الأخبار الدالة على أن قطاعا كبيرا من الذين كانت لهم رؤى نقدية أبدوا تحفظهم من شعر عمر بن أبي ربيعة الذي شذ عن المتعارف عليه ؛ إذ مزق ستار الحياء وأطلع الناس على شعر تمجه الأذواق السليمة ، وتنفر منه النفوس المستقيمة.هذا الأخير ألهم ابن أبي عتيق بذلك المقياس الغريب عن الفكر النقدي لهذا العصر .فأنى يكون ممثّلا لـه ؟.

ومن الذين تفطنوا إلى هذه المسألة " هشام بن عروة " حيث نبه إلى خطورة شعر عمر بن أبي ربيعة – لإباحيته التي لاتعرف حدا – سعيا منه للحفاظ على المجتمع من الفساد .فقال :" لا تروووا فتياتكم شعر ابن

أبي ربيعة ليتورطن في الزنا تورطا "(1).

علما منه بأنه يسهم في غلبة سلطان الهوى فتهيج الدواعي الدنيئة وتنحصر خواطر الخير ، والإنسان ضعيف ،.....والنفس كما يقول ابن الأنباري (ت 328 ه) "في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كرة منحدرة من رأس رابية إلى قرار فيه نار ، إن لم تحبس بزواجر الدين والحياء أداها انحدارها إلى مافيه هلكتها ". (2)

لقد أبدى ابن عتيق تسامحا كبيرا حين اعتبر أن جودة الشعر لا تقاس بما فيه من قضايا خلقية . وأن ضعف الأخلاق وعدم الاهتمام بها في الشعر ليس مدعاة إلى فساده وقبحه . حيث ركز كل اهتمامه على الجانب الفني الصرف ، لذا فهو في الكثير من الآراء النقدية لا يعترض على الغرض الشعري الغالب على البيئة الحجازية -أعني الغزل- ، ولا يرى ضرورة لقطع الطريق أمام فلتات أو بالأحرى تجاوزات الشعر التي أفرط فيها شاعره المفضل عمر بن أبي ربيعة ، بل يدعوهم إلى التفنن في إظهار الصبابة والهوى ، وتصرف أحواله بنفوس أصحابه ، وسرد قصصهم والإقرار بمفواهم التي توحي بمدى ما وصل إليه الترخص في أمور الدين والبعد عن التشدد فيها ، ومن أمثلة التجاوزات التي دأب عليها عمر بن أبي ربيعة والتي تعبر عما كنا بصدد الحديث عنه ؛ من عبث بالأخلاق واستهزاء بالدين تلك الأبيات التي يقول فيها :

قالت لها أختها تعاتبها لا تفسدن الطواف في عمر

قومي تصدي له لأ بصره ثم اغمزيه يا أخت في خفر

قالت لها : قد غمزته فأبى ثم اسبطرت تشتد في أثري

ويقول:

يقصد الناس للطواف احتسابا وذنوبي مجموعة في الطواف.

وأيضا :

بينما ينعتني أبصرني دون قيد الميل يعدو بي الأغر

---

1 .الأغاني . ج1. ص: 62.

2 .جمع الجواهر في الملح و النوادر . الحصري القيرواني . تحقيق علي البجاوي ، ط1:البابي الحلبي .1953 . ص: 40.

قالت الكبرى : أتعرفن الفتى ؟ قالت الوسطى :نعم ، هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها : قد عرفناه وهل يخفى القمر ؟

وغيرها من الأبيات الغارقة في المجون والتعهر .

فبعد أن سمع ابن أبي عتيق هذه الأبيات الأخيرة قال له : أنت لم تنسب بهن وإنما نسبت بنفسك . وإنما كان ينبغي لك أن تقول : قالت لي فقلت لها . فوضعت خدي فوطئت عليه (1).

فهذا الموقف النقدي يبرز أن صاحبه لا يرى بأسا في الغزل كغرض شعري ، بل يعترض فقط على تغزل عمر بنفسه وتصوير المرأة طالبة لا مطلوبة . أما أنه لو التزم ما تمليه الأعراف الفنية المستقاة من الموروث الشعري العربي فلاحرج عليه.

وبذلك فتح الطريق أمام الخطوات الأولى للذين لا يقدرون للكلمة وزنها ، وتطور الأمر حتى أصبح التغزل بالغلمان مستساغًا بعد أن كسر عمر و أمثاله من الغزلين الحواجز ،وزادوا في انحراف الأخلاق ومما لاشك فيه أنه لو وجد نقد ملتزم قوي يبسط سلطانه على الساحة الأدبية في الحجاز يوجه الشعراء ويتتبع عثراتهم لما وصلت أحوال الشعر والشعراء إلى ما وصلت إليه.

ومن المؤكد أنه لو لم يكن لعمر وأمثاله سندا من أهل الأدب لما استطاع أن يمضي في سبيله ، فاحتفاء ابن أبي عتيق بشعر عمر علىوجه الخصوص واهتمامه الزائد به كان قوة دعم حقيقية استفاد منها عمر بن أبي ربيعة في إكمال مشواره البغيض ، وأداء دوره في إفساد أخلاق الناس . والإغراء بالتمرد على القيم الاجتماعية والدينية التي أرساها الإسلام.

وعلى الرغم من وجود آراء أخرى يعبر فيها ابن أبي عتيق عن استيائه من أشعار لعمر فيها تصريح بالفاحشة أو معارضة لأعراف المجتمع الإسلامي ، فإنه يؤخذ عليه عدم الجدية والتردد والغموض والتناقض ،ويفسر هذا ربما بكونه لم يلتزم رؤية محددة واضحة لوظيفة الأدب .

---

1 - العمدة . ج2 ص 124.

فالناقد حتى تكون أحكامه واضحة ومنسجمة ، ينبغي أن ينطلق من مناخ فكري معين يعصمه مـــن التناقض و الغموض ، ويمكنه من أداء دوره كاملا غير منقوص .

وهكذا عرفت الساحة الأدبية مع نقد كهذا ــ لا يربط الشعر بالأخلاق والدين ربطا شـــجاعا ، وفي ظل ملابسات سياسية واجتماعية يعلمها الجميع- تحررا مطلقا من كل القيود حيث انتكست في حمأة الجاهلية، وتمرد قطاع كبير من الشعراء على القيم الأخلاقية المقررة .

وأتصور أن الأمر أيضا انتقلت عدواه إلى الناس فأصبحوا لا يراعون الغاية النفعية أو الأخلاقية للشـــعر بل يسعون جاهدين لتحقيق المتعة الفنية الخالصة من خلال توفر النص على قيم فنية شكلية ألح عليها نقـــاد في نهاية القرن الأول والقرنين الثاني و الثالث الهجريين و أولع بها الناس معهم .

قلت النقد الذي مارسه ابن أبي عتيق قد انعكس –من وجهة نظر خلقية – سلبا على الأدب والنقـــد على حد السواء .فالآثار السلبية على الأدب ألمحنا إليها . أما في ميدان النقد فقد اختط له طريقا ســـار عليـــه بعض من حاولوا أن يضيفوا شيئا إليه ومن بينهم اسم مشهور تحدث عنه أغلب من دونوا في تـــاريخ النقـــد و أعني به سكينة بنت الحسين بن علي ، فقد سلطت هي أيضا محاولاتها النقدية على الغرض المنتشر في الحجاز وهو الغزل ، وتعاملت مع أشعاره معاملة لينة متسامحة ، غاضة الطرف عن الكثير من الهفوات التي تجاوز فيـــها الشعراء حدود الحياء والتستر ، وحاولت فقط أن تبين ما ينبغي و مالا ينبغي أن تخاطب به المرأة ، فأحكامـــها كما يرى زكي مبارك تتسم بالغيرة على الجنس والدفاع عن النوع ، و نقدها متأثر بالعطف على المرأة بلا نظر إلى قيمة الشعر من الوجهة الفنية أو النفعية أو الأخلاقية . ومن الأمثلة التي يظهر فيها ما قلناه جليا مـــا رواه صاحب الأغاني بشأن تلك الموازنة التي أجرتها سكينة بين خمسة من الشعراء هم جرير و الفـــرزدق و كثـــير و جميل ونصيب ؛ هؤلاء جميعا نزلوا في ضيافتها ، وبعد مكوثهم أياما يقول الخبر : "... أذنت لهم فدخلـــوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها وتسمع كلامهم . ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قـــد روت الأشـــعار والأحاديث . فقالت : أيكم الفرزدق ؟فقال لها : هأنذا ، قالت أنت القائل :

هما دلتاني من ثمانين قامـــــــة كما | انحط باز اقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا | أحي نرجي أم قتيل نحـــاذره
فقالت أرفعوا الأمراس لا يشعروا بنا | و أقبلت في أعجاز الليل أبادره
أبادر بوابين قد وكــــــلا بنــــــا | و أحمر من ساج تبص مسامره

قال : نعم ، قالت : فما دعاك إلى إفشاء سرها و سرك ، هلا سترت عليك و عليها ؟! خذ هـــــذه الألــف و الحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتما و خرجت ، فقالت : أيكم جرير ؟ قال : هأنذا ، فقالت أنت القائل:

طرقتك صائدة القلوب و ليس ذا | حين الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنـــه | برد تحدر من متون غمـــام
لو كان عهدك كالذي حدثتنـــا | لوصلت ذاك و كان غير لمام
إني أواصل من أردت وصالــه | بحبال لا صلـــف و لا لـــوام

قال نعم ، قالت : أولا أخذت بيدها ، و قلت لها ما يقال لمثلها؟ أنت عفيف و فيك ضعف . خذ هذه الألف و الحق بأهلك.

ثم دخلت إلى مولاتما و خرجت . فقالت : أيكم كثير ؟ قال هأنذا ، فقالت أنت القائل:

و أعجبني مثله يا عز منك خلائق | كــرام إذا عــــد الخلائق أربـــع
دنوك حتى يدفع الجـــاهل الصبا | و دفعك أسباب المنى حين يطمع
فو الله ما يدري كريم مما طـــل | أينساك إذ باعـــدت أو يتصدع

قال: نعم، قالت ملحت و شكلت ، خذ هذه الثلاثة الآلاف و الحق بأهلك.

ثم دخلت على مولاتما ثم خرجت ، فقالت : أيكم نصيب ؟ قال : هأنذا ، فقالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب | لقلت بنفسي النشأ الصغار

سقتني كل مهضوم حشاها إذا ظلمت فليس لها انتصار

فقال : نعم . فقالت : ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا . خذ هذه الألف والحق بأهلك .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت ، فقالت : يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك : والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بوادي القرى إني إذا لسعيد

لكل حديث بينهن بشاشة وكل قتيل عندهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة . وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف دينار والحق بأهلك . (1)

فهذه القصة وما صدر فيها من أحكام يمكننا من خلالها الوقوف على حقائق معينة . أولها :أن سكينة لم تبد تحرجا من الغرض الشعري الذي وازنت فيه بين الشعراء ،مع العلم أن الغزل والهجاء من الأغراض الشعرية التي تعامل معها النقاد الأخلاقيون تعاملا خاصا ،ونجد في العصور اللاحقة من يخلي مؤلفاته من ذكر الأشعار التي تعالج هذين الغرضين كابن بسام الأندلسي في الذخيرة مثلا .

وثانيها :تتمثل في كون بعض الأحكام التي وردت في الموازنة دفاعا محضا عن المرأة دون اكتراث بالقيم الشعورية والفنية التي تحتويها هذه الأمثلة.فالأشعار التي تحرك أحاسيسها وتوافق هواها كامرأة تستحسنها وتعلي من شأنها وإن كان فيها ضعف ووهن من ناحية المحتوى .

أما ثالثها :فكل الأحكام التي قالتها هذه الناقدة حاولت فيها التعليل ببيان مواطن الحسن والقبح من وجهة نظرها.هذا عمل يحسب لها ، وإن كان تعليلا بسيطا مقتضبا إلا أنه يتماشى مع ما وصل إليه النقد في تلك المرحلة .

وآخر هذه الحقائق تتعلق بطريقة الموازنة، فالموازنة بهذه الكيفية التي تمت هنا تمثل مرحلة متقدمة فعلا في النقد ، إذ سوف تصبح في العصور اللاحقة من الأعمال النقدية المتميزة ،كما وقع مع الآ مدي في موازنته والجرجاني في وساطته.

---

1 الأغاني ج 14 ص 384، 386

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بعد هذا العرض المختصر لبعض آراء سكينة النقدية ، يمكننا أن نلاحظ بجـــلاء أن وظيفـــة الشـــعر الإصلاحية فقدت معناها في ظل انتشار الغزل في بيئة الحجاز و انقياد المتلقين و بعض النقاد لهذا التيار الجارف الذي ذهبت معه معالم نظرة – انطلق منها نقاد كثيرون تناولنا بعضهم بالدراسة – تعلي من شـــأن الشـــعر و تجعله مدرسة تهذيبية يتعلم فيه الناس محمود الخصال و فضائلها ، و يكتشفون فيها حقائق أنفسهم و موقعهم في الحياة .

وخلاصة القول فإن النقد في النصف الثاني من القرن الأول بقي من ناحية شكله وعمقـــه الفكـــري في مستوى الأحكام التي أصدرها النقاد في العصر السابق ؛ وإن كانت ظاهرة التعليل قد اتسعت نوعا مـــا إلا أنها لا تنطلق من تصور محدد لهذا الجانب في الكثير من الأحيان و تعاني من الفوضى والغموض نتيجـــة عـــدم وعي كامل بمهمة الإنسان في الحياة وصلة الفن و الشعر منه خاصة بتلك المهمة ، أو مجاراة من بعض النقـــاد لشعراء ودفاع عنهم لأنهم صادفوا هوى في أنفسهم أو لاقوا استحسانا من العامة ودعما من الساســـة ؛ وفي كلتا الحالتين تجاهل واضح للوظيفة الاجتماعية للشاعر ، وما يمكن أن يقدمه من نفع وفائدة إذا التزم طريقـــه الصحيح الذي لا يرى ضرورة للكذب والنفاق والتعمية ، بل يطلب منه السعي إلى الكمال بكشف مظـــاهر التردي ، والحث بطريقة نوعية وكيفية جذابة على ضرورة الارتقاء إلى مدارج الكمال الإنساني .

ونحن إذ نقول هذا الكلام فإنّنا لاتحمّل من أولوا عناية بالشعر فوق طاقتهم ، ولا نعيب عليهم ذلـــك المستوى الذي وصلوا إليه فقد بذلوا جهدهم ، وهذا ما أسعفهم الوسع لبلوغه ، ومن الحيف أن نطلب منـــهم ما لا يطيقون ؛ ومن الطبيعي أن يكون النقد في تلك المرحلة انطباعيا هينا بسيطا إذا ما قورن بما وصل إليـــه في العصور اللاحقة .

ولكنه يمثل الخطوة على طريق الميل كما يقال . ولولا هذه البدايات لما تمكن النقد أن يسير في طريـــق التنور والنضج والاستقلال .

ولكن ثمة سؤال يطرح نفسه ونحن نطالع أحكاما مثل التي سبقت هو : لماذا هذا التغير في المنحى

النقدي العام الذي عرفه عصر صدر الإسلام ؟. و لم لم يعد محتفلا به عند جميع النقاد ؟.

الحقيقة أن الواقع النقدي في هذه المرحلة سجل وجود الكثير من النقاد الأخلاقيين الذين أكدوا المهمة الأخلاقية للشعر علما منهم " أن الشعر ينطوي على قيمة أخلاقية وجمالية في آن ، ولذلك يمكن أن يستجيب له الناس ويؤثر في سلوكهم على نحو لا يستطيعه علم الأخلاق بمقولاته النظرية المجردة ...إن الشعر يهدف إلى كمال الحياة ، وما دام يسعى نحو هذا الهدف فلا بد من أن يتبنى المخطط الأخلاقي الذي يصل الإنسان بهدي منه إلى الفضيلة والسعادة ؛ ولكن الشعر لا يوصل قيم هذا المخطط الأخلاقي بطريقة مباشرة ، إنه يوصلها من خلال وسيط نوعي يقدم قيم هذا المخطط تقديما فنيا مؤثرا ... من هنا تبدو أهمية الشعر لو قورنت بأهمية الأخلاق "(1).

لهذا نجدهم يلحون على أهمية الشعر لأنه وسيلة إصلاحية تحافظ على الأمة من الفساد ، وتحمي المجتمع من التفسخ والانهيار ، وتحث الناس على ما فيه فوزهم وفلاحهم وسعادتهم.

ومقابل هؤلاء نجد نقادا لم يكترثوا بالبعد الأخلاقي للشعر لأسباب يمكن حصرها فيما يلي :

أولها : الظروف السياسية والاجتماعية التي ميزت النصف الثاني من القرن الأول ، والتي كانت سببا في انحراف الشعر وانتكاسه في دعاوى وشطحات جاهلية كانت بدورها سببا في ظهور نقاد جاروا شعراء معاصرين لهم في تمردهم على أعراف المجتمع الإسلامي وأخلاقه ودينه ؛ واستلهموا منهم معايير لا تجد بأسا في تقديم أشعار عبثت بكل شيء ؛ حتى استحال الشاعر مع هؤلاء إلى وسيلة للإفساد والدعاية والتسلية وجرد من وظيفته الاجتماعية التي تجعله فردا رساليا داخل المجتمع .

وثانيها :راجع إلى رقة إسلام بعضهم ، و إلى بداية بوادر الموجة التي ستظهر بقوة على الساحة الأدبية ، والتي تدور حول ضبط قواعد اللغة ، مما دفع العلماء لجمع الشعر ، وشرحه ، والتعرف على غريبه، ومشكله و استنباط قواعد لغوية منه . كل ذلك محاولة منهم منع اللحن في القرآن الكريم ، وسعيا وراء فهم معانيه .

---

1. مفهوم الشعر . ص: 164.

هذه الغاية حالت في كثير من الأحيان دون إعارة المحتوى الأخلاقي للشعر أي اهتمام ، طالما أنه يقدم فائدة يطمح إليها خاصة اللغويون وتصو أنفسهم للوصول إليها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث

تذبذب الأحكام الأخلاقية و الفنية في القرنين الثاني و الثالث الهجريين.

- مميزات الساحة السياسية و العلمية و الأدبية في العصر العباسي.
- معيار التقديم الشعري عند النقاد في هذه المرحلة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- مميزات الساحة السياسية و العلمية و الأدبية في العصر العباسي.

أشرنا في الفصل السابق إلى أن القرن الأول قد شهد مرحلتين متمايزتين تقريبا في كل شيء ، فالتغير في النظام السياسي كانت له انعكاسات اجتماعية وسياسية وأدبية ، ألمحنا إليها في مكانها باختصار ، ورأينا أن النقد بدوره قد تأثر بعض الشيء جراء ما شهده العصر من تغيرات . إلا أنه كما يرى الكثير من الدارسين فالعصر الأموي الذي دام حوالي 72 سنة قد كان مشتلة -إن صح هذا التعبير – للكثير من التحولات الفكرية التي عرفها العصر العباسي الذي يبدأ كما يعلم الجميع في العقد الرابع من القرن الثاني الهجري .

وخلاف ما حدث في العصر الأموي عند انتقال الحكم إلى الأمويين ، لم ير أثر عند انتقال الحكم إلى العباسيين إذ كان تقريبا حلقة جديدة من حلقات الحكم الأموي على مستوى طبيعة النظام ، يضاف إلى العباسيين ذلك التطور و الازدهار الذي عرفته الحياة في كل مجالاتها على أيامهم . فالاستقرار وتمازج الشعوب التي تكون الأمة الإسلامية بكل ما تحمله من أرصدة ثقافية و اجتماعية وسياسية – على قدر لا بأس به من النضج – مع إسهامات الخلفاء و تشجيعاتهم و اهتمامهم المشهود لهم به . كل هذه العوامل مجتمعة كانت سببا في تلك التحولات الكبرى التي شهدها العصر العباسي و التي نعتقد أننا لو تأملنا جيدا في تاريخ العصر الأموي ، سنجد لها بذورا فيه .

فالتأليف والتدوين بدآ في أواخر العصر الأموي ، فبعد تدوين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف

اتجهت أنظار العلماء إلى أمور أخرى كسيرة الرسول –صلى الله عليه و سلم – وأخبار الفتـــوح ، واللغة والأدب ،وغيرها . إلا أن حركة التأليف ازدهرت واتسعت لتشمل العلوم والمعارف المختلفة بعد اطلاع العرب على صناعة الورق بالطريقة الصينية ، والتي تمكنوا منها في سمرقند عام 94 ه ، وانتشرت الكتابة عليـــه بشكل واسع على أيام الخليفة هارون الرشيد (170 ه–193 ه) ، ومنذ هذه الفترة عرف المســـلمون حركـــة تأليف وترجمة نشيطتين أثمرت هذا الكم الهائل من الكتب التي تعد مفخرة ودليلا على مقدار ما وصلته الساحة الثقافية من تقدم آنذاك .(1).

أما إذا انتقلنا إلى العلوم التي ظهرت في العصر العباسي ، فإن الكثير منها نجد له بواكـــير في العصـــر الأموي ؛ فالنحو مثلا يعلم الجميع أن من وضع اللبنة الأولى فيه هو أبو الأسود الدؤلي (ت 69 ه).ثم يأتي عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي (ت 117 ه)الذي يمثل نقطة تحول في مسار النحو الذي بدأ بسيطا ساذجا يتنـــاول أطرافا من المسائل المتفرقة لا يجمعها باب واحد، حتى استوى علما قائما بذاته ، بعدما تطورت تلك النظـــرات ونمت وتفرعت بجهود علماء كأبي عمروبن العلاء ، وعيسى بن عمر الثقفي (149 ه) ، و ســـيبويه (180 ه) وأستاذه الخليل بن أحمد (170 ه)...وغيرهم .

و علم الأصول عرفت بعض قواعده و مناهجه المتبعة لإستنباط الأحكام الشرعية في عهد الصحابـــة و اتسعت في عهد التابعين ، حتى إذا جاء الإمام محمد بن ادريس الشافعي (150 هـــ – 204 هــــ) و جـــد أمامه هذه الثروة فقام بتدوين القواعد التي كانت معروفة منذ عهد الصحابة و التابعين فكان كتابه "الرســـالة" و كانت تلك القواعد هي أصول الفقه.

أما الفقه الذي هو علم بالأحكام الشرعية مع أدلتها، فلا خلاف في كون مسائله كان أمرها متعارفـــاً عليه متداولاً . إلى أن جاء عصر الأئمة الأربعة (الإمام مالك <95 هـــ – 179 هــ> ؛ الإمام أبي حنيفـــة <80 هـــ – 150 هــ) ؛ الإمام الشافعي (150 هـــ – 204 هــ) ، الإمام أحمد بن حنبل (164 هـــ –

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

---

1. مصادر اللغة في المكتبة العربية ، د.عبد اللطيف الصوفي ، ط: دار الهدى ، ص: 15 ،29.

241 هـ) > حيث بوبوا مسائله و قضاياه ، فكان لهم فضل الإجتهاد و الجمع و التدوين (1).

أما التفسير فقد شرع المسلمون منذ بداءة عهدهم بالدين يعنون بدراسة القرآن ، و تفهم معانيه ، و استنباط الأحكام منه فنشأ عن ذلك علم التفسير ، و عرف من المفسرين المتقدمين عبد الله بن عباس و ابن سيرين و الحسن البصري و غيرهم ، على أن هذا العلم لم يتم جمعه و تدوينه إلا في العصر العباسي، و اشتهر من المفسرين في هذا العصر سفيان بن عينية ، و وكيع بن الجراح ، و الفراء ...و غيرهم.

و نفس الكلام يقال في علم الحديث فقد اهتم المسلمون بالحديث اهتماماً خاصاً لمكانته أولاً و خوفاً عليه من نسبة ما لا يمت إليه من كلام بصلة ثانياً ، و كان الإمام مالك في طليعة من دونوا الأحاديث فقد جمع في كتابه الموطأ نحو ثلاثمائة حديث ، ثم جاء الإمام أحمد ابن حنبل فألف كتابه المسند و ضمنه نحو خمسين ألف حديث على أن هذا العلم لم ينضج إلا عند الإمام البخاري (194 هـ — 256 هـ) و معاصره الإمام مسلم في صحيحهما (2).

أما الحياة الأدبية فقد واصلت ازدهارها و تطورها حيث شهد الشعر — على وجه الخصوص انتشاراً و حركة سريعة كللت مع مرور الوقت بهذا الكم الهائل الذي أثر عن شعراء ، خاضو في كل أغراض الشعر و تناولوا ما تناولوا من الموضوعات المختلفة.

و إذا كان الانحراف على الصعيد الأدبي قد بدأ في عصر بني أمية ، فإنه قد استمر في العصر العباسي مع شعراء سلكوا سبيل رواد ذلك الانحراف من هجائيين و مداحين و غزلين من أمثال : الأخطل و الفرزدق و جرير و عمر ابن أبي ربيعة و غيرهم ... فنجد أسماء حملت على عاتقها مسؤولية المضي في خطوات أخرى تضاف إلى الأشواط التي قطعها سابقوها ؛ و من أشهر من تطلعوا بهذه المهمة بشار بن برد ، أبو نواس ، والبة بن الحباب ، مسلم بن الوليد و غيرهم .

1. ظاهرة الإعراب في النحو ، تطبيقاتها في القرآن الكريم ، د/أحمد سليمان ياقوت . ديوان المطبوعات الجامعية سنة 83 ص 155 و ما بعدها.

2. أدباء العرب في الأعصر العباسية . بطرس البستاني . ط : دار مارون عبود ، سنة 1979 ، ج2 ص:71 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كما واصل شعراء الفرق و المذاهب شعرهم السياسي ، سعياً وراء نشر أفكارهم و آرائهم و مناهجهم العقدية و التي عرفت ملامح جديدة تزايدت مع تعقد الحياة الفكرية و تشعبها في القرن الثاني الهجري.

أما النثر الفني فقد عرف تطوراً بعد أن توفرت ظروف جعلته ضرورة لمواكبة ما بلغه المستوى الفكري من نضج، فالشعر لا يمكنه تلبية رغبة الناس في الاستمتاع بما يحتويه من قصص و أحداث و أحاديث و ما يطلبه شداة الأدب من لغة . بخلاف النثر الذي يتأتى معه ذلك.

إن الساحة الأدبية عرفت كثيراً من ألوان التعبير النثري بما أتاحه العصر من دواعي و مبررات، فقد ظهر في شكل رسائل و مقالات و مقامات و كتب مؤلفة أو مترجمة إلى اللغة العربية (1).

و إذا ما انتقلنا إلى النقد فهو بدوره قد خطا خطوات لا يستهان بها بفضل جهود من أولوا عناية بهذا العلم الذي بدأ بسيطاً هيناً في شكل أحكام جزئية تغلب عليها الانطباعية شأنه في ذلك شأن أي علم يعاني صعوبة البداية و مخاض الميلاد.

فبعد أن تراكمت الأحكام النقدية على اختلاف توجهات أصحابها على مدار أكثر من قرنين تمكن هذا العلم من بناء شخصيته . و تحديد مهامه بإسهامات علماء أجلاء بذلوا وسعهم لتوضيح ملامحه بآراء نظرية و تطبيقات عملية، استمرت لقرون عرف بها هذا العلم نضجه و استقلاله.

إلا أن المادة النقدية إذا أردنا أن نظفر فيها بآراء نقدية تجمعها رؤية واحدة ناتجة عن ناقد معين فيمكن الوقوف عليها من خلال من كان لهم فضل المحاولات الأولى في التأليف النقدي و البلاغي ، و نعني بهم على وجه التحديد : بشر بن المعتمر ؛ الأصمعي، و من سار على دربهم ممن تلاهم في القرون اللاحقة من أمثال : ابن سلام الجمحي ، الجاحظ ، ابن قتيبة ، ابن قدامة ، ابن طباطبا ، ابن رشيق ...و غيرهم.

و تحتم علينا منهجية البحث الاكتفاء بهذه اللمحة المقتضبة ، و الانتقال في الصفحات الموالية لتسليط الأضواء على ما نحن بصدد دراسته ، حيث سنتتبع من وقفوا في صف الدعوة الخلقية ، و من لم يلتزموا بها

---

1 . للتوسع أنظر : الشعر و الشعراء في العصر العباسي : د/ مصطفى الشكعة ، ط؛دار الملايين ط.7 سنة 1991 .

معالجين آراء كل فريق بالطريقة التي تناولنا بها نقاد المراحل السابقة ، دون أن ننسى بأن الغرض من الدراسة ليس هو الإحصاء بقدر ما هو تتبع الفكر النقدي من خلال بعض رواده ، للوقوف على مدى ما بلغه من تطور أولاً ، و على تياراته و اتجاهاته ثانياً.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2 - عيار التقديم الشعري عند النقاد في هذه المرحلة

فبشر بن المعتمر (210 هـ) الذي قضى أغلب حياته في القرن الثاني بما عرفه من تحولات فكرية و ما طرأ على ساحته من مستجدات ، نتيجة حركة التدوين التي مست كل العلوم كما رأينا و حركة الترجمة التي أفاد منها علماء الكلام خاصة أيما إفادة ، فحاولوا إعادة بناء الفكر على ضوء ما عرفوه من منطق و فلسفة.

ويعد بشر شيخ المتكلمين المعتزلة ، ونلمس ذلك في صحيفته التي استطاع فيها أن يبني تصورا متكاملا لعملية الإبداع من حيث ماهيتها و أدواتها ووظيفتها . ومن ثم معايير الحسن و القبيح منه لأن الحكم على الشيء جزء من معرفته .

والمتصفح لهذه الرسالة يلمس اهتمام بشر بالشعر و النثر معا ؛ حيث حاول وضع قواعد للخطابة و النظم هذا الجمع بين الفنين كان مفتقدا عند من سبقوه من النقاد ، إذ هما طائفتان إحداهما انشغلت بالشعر وثانيهما بالكتابة و الخطابة كعبد الحميد الكاتب مثلاً.

بدأ بشر حديثه بلحظة الإبداع التي يتصيدها المبدع ، ويسعى جاهدا لاستغلالها واقتصار محاولاته الإبداعية فيها ، لأنها هي الكفيلة باستجابة النفس فيها لما طلب منها ، وما عداها من الأوقات ، فيحتاج فيها إلى المجاهدة والتكلف ، وشتان بين عملين أدبيين صادف أحدهما استجابة النفس واستعدادها ، و أخطأها الثاني يقول في هذا الشأن : " خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك و إجابتها إياك . فإن قليل تلك الساعة

أكرم جوهرا وأشرف حسبا و أحسن في الأسماع ، وأحلى في الصدور ، وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ؛ من لفظ شريف ومعنى بديع ، واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد و المطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمحاورة . ومهما أخطاك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ..." (1) .

ثم يتدرج إلى صميم العمل الإبداعي ، ويلح على ضرورة الوحدة الفنية من ناحية الشكل والمضمون، حيث يرى لزاما على المبدع ، أن يراعي العلاقة بين المعنى والألفاظ يقول :" ومن أراد معنى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما... وكن في ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ....."(2) .

كما ينبغي عليه مراعاة المتلقين فلا يخاطب العامة بما تخاطب به الخاصة ، ويجدر بالبليغ الحاذق أن يفرق بين الحالات والمقامات يقول : " ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني و يوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات "(3) .

وفي خضم حديثه عن عناصر التجربة الفنية ؛ المبدع والمتلقي والعمل الفني و الرباط الذي يجب أن يربط هذه العناصر ، وضع معيارا للمعنى ومفهوما للفصاحة على ضوئهما يمكن أن نحكم على العمل الفني ....يقول مبينا مفهوم الفصاحة ومحددا مواصفات اللغة التي يريدها " وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا

---

1. البيان والتبيين . الجاحظ . ط: دار الكتب العلمية . بيروت. ج1 ص:75.

2. نفسه . ج1 ص: 75-76.

3. نفسه . ج1 ص: 77.

ساقطا ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا..."(1).

فهو ينظر إلى اللغة كأداة ووسيلة لتحقيق غاية ، لذا لا يجب أن يضيع الجهد في تصيد الألفاظ الغريبة والأساليب التي تهدف إلى إثارة الإعجاب من خلال التلاعب على مستوى الشكل ، فهذا الأخير في الحقيقة يستمد قيمته مما يعالج من معان ومضامين .

والآن ما هو معيار المعنى الحسن عند بشر بن المعتمر ؟ يمكننا أن نقف على ذلك في قوله : " والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة ، وكذلك لا يتضع بأن يكون من معاني العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال " (2). فهو يرى بأن المعنى يستمد شرفه من صوابه وما ينطوي عليه من منفعة ، والصواب الذي ألح عليه بشر يلتقي مع الصدق على المستوى الأخلاقي لأن الأفهام عندما تجمع على صواب مسألة ما فهذا يعني صدقها أخلاقيا ومنطقيا .

إن بشر انطلق في كل كلامه من نزعة أخلاقية نجد لها آثارا من بداية الصحيفة إلى نهايتها ، فأول لمسة أخلاقية نجدها أثناء كلامه عن المبدع فقد طلب منه أن يبتعد عن الافتعال والاستكراه والتكلف ، بمعنى أنه حريص على أن يكون صادقا مع نفسه ، مخلصا في التعبير عن التجربة التي يريد نقلها للمتلقين ، لأن ذلك كفيل بتدفق الأفكار والخواطر بكل عفوية وصدق ، ومع الاستكراه والتكلف والمجاهدة لا يتأتى ذلك ويكون محلة لفاحش الخطإ وعظيم الزلل .

كما تظهر ملامح النزعة الأخلاقية جلاء أثناء حديثه عن المعنى ، حيث يرى أن الحسن منه ما وافق الصواب والحق ، أي ما اتفقت عليه تجارب الناس وما أوحاه تصرف الحوادث وأحوال الزمن وأجمع العقلاء على حيازته الخير والنفع والصلاح .

لقد انتصر بشر بهذه الصحيفة للدعوة الحنفية ، حيث وضح الأسس والقواعد التي يرتكز عليها العمل الفني في مستوياته الثلاث المبدع والمتلقي والإبداع الفني ، والتي تجتمع خيوطها عند مهمة وغاية الأعمال الفنية .

---

1 . الجاحظ . البيان والتبيين . ج1 ص:80.

2 . الجاحظ . ج1 ص: 76.

فوظيفة المبدع من وجهة نظر بشر هي التأثير في المتلقي تأثيرا إيجابيا يسمح بتغيير سلوكه نحو الأفضل .ومن المؤكد أن تأثر المتلقي لن يكون إلا بجمالية الصياغة وتوافقها مع المحتوى الأخلاقي، بهذا فقط يمكن أن يسلهم الإبداع الفني شعرا ونثرا في البناء الأخلاقي للفرد .وهذا ما يسعى بشر للوصول إليه من خلال رسالته التي تنطوي على قيمة جليلة بالنظر إلى التنظير الأخلاقي الذي مارسه ، و ما تركته من أصداء في كتابات من جاؤوا بعده من النقاد.

والقرن الثاني لو استثنينا بعض المحاولات التي درسناها والمحاولة التي سنتناولها بعد قليل "فحولة الشعراء" غلب عليه نشاط النحاة واللغويين ،وهذا كما أشرنا في الصفحات التي مضت ، فرضته ظروف وملابسات تتمحور أساسا حول السعي لفهم القرآن الكريم أولا ، والحفاظ عليه من التحريف واللحن ثانيا، بعدما امتزجت بالعرب شعوب يخالف لسانها لسان العرب وظهرت بوادر الخطإ في قراءة القرآن عند البعض ، مما دفع بعلماء قيضهم الله تعالى لهذه المهمة ، حيث شرعوا في الخطوات الأولى في الدراسات النحوية واللغوية، واستمر الأمر على هذا الحال .و لم يجد العلماء بدا من الرجوع إلى ديوان العرب الشعر ،فراح الرواة واللغويون منهم يجمعونه لما وجدوه من تحفيزات مادية ومعنوية ، ولما أبداه غيرهم من رغبة في التعرف على مزيد منه وبخاصة عند اشتداد المنافسة بين المدارس النحوية، مما لفت أنظار جل العلماء الذين لهم الصلة بالشعر إلى العناية بشرح مشكله ، والتعرف على غريبه واستلهام قواعد لغوية ونحوية منه، هذا الاهتمام صرفهم في أغلب الأحيان عن الجوانب الجمالية والأخلاقية وبتأثير هذه الموجة استحسن بعضهم من الشعر ما ينطوي على مضامين تثير الريبة الأخلاقية والدينية .

والنشاط اللغوي والنحوي بهذه الصورة ألقى بظلاله على النقد في هذه الفترة ، فقد كان يستضيء بالآراء النحوية واللغوية ، وفوق ذلك فالنقد كان يمارسه أهل النحو واللغة ، ونادرا ما نجد آراء لغيرهم ، حيث أضحت الصحة والسلامة اللغوية هي المعيار الأساسي في الحكم على الشعر .ومع ذلك فقد نما على أيديهم الفكر النقدي في هذا القرن ، حيث وضعوا النواة الأولى له بآرائهم وبفضل جمعهم لآراء سابقيهم.

ومن بين الذين أثروا هذه الحركة أبو عبيدة (ت 209 ه) ، الأصمعي (214 ه) أبو عمرو بن العلاء (154 ه) أبوزيد القرسي (170 ه) وغيرهم كثير .

ولنحاول الوقوف مع الأصمعي من خلال محاولته " فحولة الشعراء " والتي أراد فيها جمع الشعراء واستقصاءهم والحكم عليهم من خلال سؤال يطرحه " السجستاني " وهو يجيبه عنه . وأول معيار استند إليه لوصف شاعر ما بالفحل هو القدم ، إذ يجل القدماء على المحدثين . وثاني معيار يتمثل في الكم ، فالمكثرين مقدمين على المقلين . وثالث المعايير ، هو الصحة والسلامة اللغوية ، أما ما عدا هذه المعايير فلا يعيرها اهتماما ، وهو بذلك يخالف معاصره " بشرا بن المعتمر " وأستاذه " أبا عمرو بن العلاء " ، فكلاهما مع اهتمامهما بالشكل لم يغفلوا المضمون ، إذ ربطوه بالأخلاق والدين ربطا شجاعا ، بخلاف الأصمعي الذي كان واضحا في موقفه من الشعر والأخلاق . فهو يقول أثناء تفسيره لسبب ضعف شعر " حسان بن ثابت " – رضي الله عنه – بعد إسلامه : " طريق الشعر إذا أدخلته في باب الخير لان ، ألا ترى حسان بن ثابت كان علا في الجاهلية والإسلام ، فلما دخل شعره في باب الخير من مراثي الرسول – صلى الله عليه وسلم – وحمزة ، وجعفر ، – رضوان الله عليهما – وغيره لان شعره ، وطريق الشعر طريق الفحول مثل امرئ القيس ، وزهير ، والنابغة ، من صفات الديار ، والرحل ، والهجاء ، والمديح ، والتشبيب بالنساء ، وصفة الخمر ، والخيل ، والحروب ، والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان "(1).

وبعد إبعاد صفة الفحولة عن لبيد بن ربيعة ، يقول أبوحاتم (رواية عن الأصمعي) في سبب ذلك : " وقال لي مرة كان رجلا صالحا كأنه ينفي عنه جودة الشعر "(2) . فهذا الكلام يقرن ضمنيا " جودة الشعر بالتحرر من الروابط الأخلاقية أو الالتزام الديني أو – على الأقل – يؤكد الجودة على حساب المحتوى الأخلاقي فينفصل بين الحكم الأخلاقي والنقدي من حيث الظاهر ، وذلك أمر – مهما كان – لا يشجع كثيرا على الشعر ، بل هو أقرب إلى التشكيك في جدواه ، مما يثير الحساسية الدينية والأخلاقية ، وبالتالي يهاجم الشعر

1. [illegible] ص 228.

2. [illegible]

دون أن تشفع الجودة الفنية في درء الهجوم أو دفع ما ينطوي عليه الشعر من شر . (1)

وهكذا فإن الأصمعي لم يحاول أن يستغل الشعر للدعوة الأخلاقية ،أو ينظر إليه كوسيلة إصلاحية تعدل من فساد المجتمع ،وتدفع به قدما نحو العفة والطهارة وتنمي فيه روح المسؤولية ،بل العكس ،فقد رأى احتواء الشعر لمحتوى أخلاقي مدعاة لتهافته وضعفه ولينه.

ومع هذا فقد جانب الدكتور :"عز الدين إسماعيل الصواب حينما قال :"...ولم يكن النقاد منعزلين عن الشعراء فوقفوا بجانبهم في موقفهم ،ولم يتخذوا من الدين أو الأخلاق أساسا يرفعون به شاعرا ويخفضون آخر ،واستبعدوا الخيرية من ميدان الحكم النقدي وربما رأوا مسرح الشر أقرب إلى طبيعة الشعر ،أو أنه على الأقل مما يحس به فن الشعر ،ويفهم من هذا أن الإسلام لم يكن له أي تأثير إيجابي على الأدب والنقد " (2)

فهل بالفعل لا يوجد اتجاه يتجاوز النظرة الفنية الصرفة إلى نظرة تجعل من الشعر وسيلة وأداة تسهم في حركة إيجابية تهدف إلى الابتعاد عن كل ما يثير الريبة الأخلاقية ؟

الواقع أن نظرة متأنية فيما تناولناه إلى حد الآن تجيب بعض الشيء عن هذا التساؤل .

نعم هناك من لم يعر اهتماما يذكر للوظيفة الأخلاقية للشعر .ولكن قراءة تسبر أغوار الكتب والنصوص النقدية على امتداد القرون ،تؤكد أن الكثير من النقاد كانوا متمسكين بالوظيفة الأخلاقية للشعر ،وأسسوا على ضوئها مفاهيمهم وأحكامهم النقدية .

وفيما يأتي سنقف مع شخصيات مرموقة في النقد أجحف البعض في الحكم عليها وحملوها مالا تريد كقدامة بن جعفر (ت 310 هـ) مثلا.

وقبل ذلك ، واحتراما للترتيب الزمني ،نبدأ بالحديث عن النقد في القرن الثالث ،وبداية مع "محمد بن سلام الجمحي "(139-232هـ) من خلال كتابه "طبقات فحول الشعراء"،وابن سلام من أهل بيت لهم في العلم باع ،فهو من الإخباريين الرواة الأدباء ،وطبقاته مظهر لتنوع معارفه وسعتها ،ويختلف منهج الطبقات

1 . مفهوم الشعر ، ص: 34، 35 .

2 . الأسس الجمالية في النقد الأدبي ، دار الفكر ، 1955 ، ص: 185 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عن فحولة الشعراء للأصمعي . فالأول عرفنا كيف أدار كلامه ، وأقام عمله ، أما ابن سلام فوضع الشعراء في طبقات ، كل طبقة تتكون من أربعة شعراء ، ما عدا طبقة شعراء القرى العربية التي تتكون من اثنين وعشرين شاعرا ، وطبقة شعراء اليهود التي تضم ثمانية شعراء ، فهم جميعا مائة وأربعة عشر شاعرا ، إذا أضفنا إليهم أربعة شعراء تكون طبقة أصحاب المراثي .

ومن المؤكد أن ابن سلام قد اعتمد على معايير محددة تمكن من خلالها أن يضع كل شاعر في الطبقة التي تليق به ، وإذا تأملنا في مقدمة كتابه وجدنا أن الأسس التي بنى عليها نظرته في هذا العمل ، وما يريده من تأليف الكتاب . يقول : " ذكرنا العرب وأشعارها ، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيامها فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغني عن علمه ناظر في أمر العرب ، فبدأنا بالشعر "(1).

وبعدها يقول : " ففصلنا الشعراء من أهل الجاهلية و الإسلام والمخضرمين الذين كانوا في الجاهلية وأدركوا الإسلام ، فنزلناهم منازلهم ، واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة ، وما قال فيه العلماء ...فاقتصرنا من الفحول المشهورين على أربعين شاعرا ، فألفنا من تشابه شعره منهم إلى نظرائه ، فوجدناهم عشر طبقات ، أربعة رهط كل طبقة متكافئين معتدلين " (2).

وقال : " ثم إنا اقتصرنا – بعد الفحص والنظر ، والرواية عمن مضى من أهل العلم – إلى رهط أربعة ، اجتمعوا على أنهم أشعر العرب طبقة ، ثم اختلفوا بعد ، وسنسوق اختلافهم واتفاقهم ، ونسمي الأربعة ونذكر الحجة لكل واحد منهم – وليس تبدئتنا أحدهم في الكتاب بحكم له ولا بد من مبتدأ – ونذكر من شعرهم الأبيات التي تكون في الحديث والمعنى " (3).

وواضح من كلامه أنه اقتصر على الفحول من الشعراء ، وهؤلاء في نظره هم المشهورون المعروفون

---

1 . طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. مطبعة المدني . القاهرة. . ج1 ص:3.

2 .نفسه . ج1 ص: 23 24.

3 .نفسه . ج1 ص: 49 50.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

من أهل الجاهلية والإسلام الذين أجمع أهل العلم على تقدمهم في هذه الصناعة ،حيث جمع في كل طبقة من تتشابه مذاهبهم في الشعر ،وساق من الأخبار والآراء والأحكام التي تمت إلى هؤلاء بصلة من قريب أو بعيد ، وركز جل اهتمامه على هذه المسائل .إلا عند انصرافه إلى تصحيح نسبة بعض الأشعار إلى أصحابها ،وكذا عند التنبيه على بعض الأخطاء اللغوية والعروضية ، وكتابه من بدايته إلى نهايته يسير على وتيرة واحدة ،وتغيب في ثناياه -في أغلب الأحيان - آراء ابن سلام الشخصية.

وكخلاصة لتتبع دقيق لما جاء في كتابه يمكننا القول بأن ابن سلام ، وإن كانت له أفضال جليلة على تاريخ الأدب والنقد ،بجمعه هذا العدد المهم من الشعراء ،وبإيراده للكثير من آراء العلماء وأحكامهم وحفظها في ثنايا كتابه ،إضافة إلى تصنيف الشعراء في طبقات ، إلا أننا لا نجد " للمقياس الأخلاقي أي أثر في تقويم العمل الفني ،وهو يتحدث عن شعراء جاهليين أخلاقيين وغير أخلاقيين ،لكنه لا يجعل لذلك أثرا أي أثر في الحكم النقدي الذي يقيم على ضوئه طبقات الشعراء ،بدليل أنه يعد في الطبقة الأولى شعراء وصفهم بالتعهر والبعد عن المعيار الأخلاقي كامرئ القيس والنابغة" (1)

يقول :"فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ،ويتعفف في شعره ،ولا يستبهر بالفواحش ولا يتهكم في الهجاء ،ومنهم من كان ينعى على نفسه ويتعهر منهم امرىء القيس" . (2)

ونفس الكلام يقال عن الطبقة الأولى من طبقات الإسلام ،والتي جمع فيها جريرا والفرزدق والأخطل وعبيدا بن حصين بن جندل المدعو راعي الإبل ،وهم كما هو معروف -وخاصة الثلاثة الأوائل- من سلك كل سبيل في الهجاء ،وهتك أعراض الخاصة والعامة في عصرهم وشغل الناس بمهاترات شديدة الإمعان في الفحش والبذاءة وهي ما يصطلح عليها بالنقائض ،ومدائحهم أيضا لا تخلو من نفاق وكذب ومبالغة ، ومع ذلك لم يخل ابن سلام كتابه من النماذج المنحرفة ،بل بالعكس فقد طال حديثه عن هؤلاء وأشعارهم ولا يبدي ما يوحي بتحرجه من بعضها أو ما يمكن أن تثيره أعراض شعرية كالهجاء.

---

1. [illegible] ص 1006- 1007.
2. طبقات فحول الشعراء، ج1، ص 41.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مثلا من حساسية أخلاقية و دينية.(1)

ومن العلماء الأدباء في القرن الثالث أبوعثمان الجاحظ (ت 255ه) وهو أحد أعلام النقد في الأدب العربي ذو ثقافة واسعة متنوعة أحاطت " بسائر ألوان المعرفة الذائعة في عصره ، فهو عالم من علماء الدين ،ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين، ونحاة في اللغة وبيانها وآدابها، وقد خاض في بحار العلوم والمعارف ما كان منها عربيا أصيلا و ما كان مترجما منقولا من الأمم الأخرى ..." (2). أما أفضاله على النقد والبلاغة فلا تحتاج إلى من ينوه بها ، فكل من جاء بعده من النقاد اعترف من معين أفكاره ، واستضاء بآرائه والتي نجد لها أصداء في كل مؤلفاتهم تقريبا.

وإذا حاولنا تقصي ملامح النزعة الأخلاقية عنده ، فإننا نتصور إمكانية الوقوف عليها خلال معالجته للقضايا النقدية التي أثارها كالشكل والمضمون ، والطبع والتكلف ، والصدق والكذب ، وموقفه من بعض الأغراض الشعرية ...

يكاد يحصل إجماع بين الدارسين في كون الجاحظ من أنصار اللفظ ، وهم في ذلك انطلقوا من قوله :

" ... وذهب الشيخ-أبوعمرو الشيباني- إلى استحسان المعاني ، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي ، والبدوي والكردي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج وصحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعة وضرب من الصبغ وجنس من التصوير " (3).

ومن خلال هذه الكلمة -والتي نحس عند قراءتها وكأن الجاحظ كان في موقف هجوم اضطره لتوظيف ألفاظ توحي باقتناع صارم بما يقول - أصدروا حكمهم عليه وجعلوه على رأس أنصار اللفظ ، والحقيقة أن الحكم على الجاحظ بإزاء مسألة كهذه يقتضي مسحا شاملا لآرائه المنثورة في كتبه حول هذه القضية .

---

1. للوقوف على الكثير من النماذج الشعرية عبر المفرزة أخلاقيا ، انظر : طبقات فحول الشعراء ، ج1 ص : 296 – 521 مثلاً .

2. أبو عثمان الجاحظ . د/ محمد عبد المنعم خفاجي . ط: دار الكتاب اللبناني -بيروت ص: 94.

3. الحيوان . ج3 ص :131.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يقول في معرض حديثه عن البيان :"والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قنـــاع المعنى وهتـــك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ،ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ،ومن أي جنس كان ذلك الدليل لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع الفهم والإفهام ،فبـــأي شـــيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع. (1)

فهذا النص ينطوي على إشارتين مهمتين :أولهما تخص وظيفة الأدب ،فالغرض منه ليس هو الإمتاع بما يأتي في الإبداع الفني من الألفاظ المتخيرة والصور البديعة -وإن كان الإمتاع غاية من غايات الفن -بـــل هـــو وسيلة يسخرها المبدع للتعبير عن تجارب إنسانية ،ومعان مختلفة ،بهدف نقلها إلى المتلقين. فالأدب بأجناسه يعد وسيلة فعالة تقدم المعنى وتوضحه بطريقة فنية مؤثرة تسهم في نشر الوعي من خلال معالجة خاصة تجعل المتلقي يتخذ موقفا ما. وبذلك يكون المبدع قد وصل إلى بغيته ،وهي الإفهام الذي يؤكد عليه الجاحظ أيما تأكيد لان مدار الأمر ، والغاية التي يصبو إليها القائل والسامع هو الفهم والإفهام .

أما ثاني الإشارتين فتتمثل في احتفاء الجاحظ بالمعنى ،وهذا يفهم من فحوى كلامه ،وإلا فما سر حصر الجاحظ لوظيفة الإبداع الفني في الإفهام ،لأن الألفاظ لا تخصها الفهم -وإنما الأمر يتعلـــق بـــالمعنى ،يقـــول :"ومدار الأمر على فهم المعاني لا الألفاظ والحقائق لا العبارات " (2).ومن الأقوال التي تؤكد الأهمية البالغـــة للمعنى عند الجاحظ قوله:"فاحتر من المعاني ما لم يكن مستورا باللفظ المنعقد مغرقا في الإكثار والتكلف ،فمـــا أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى ،مع براعة اللفظ وغموضه على السامع ،بعد أن يتبين له القول وما زال المعنى محجوبا لم تكشف عنه العبارة ،فالمعنى مقيم على استخفائه وصارت العبارة لغوا وظرفا خاليا" (3).فالشـــكل الذي لا ينطوي على مضمون ،أو لا يعبر عن معنى أو تجربة يعد من قبيل اللغو الذي لا طائل من ورائه.

ومما تقدم من النصوص . فالمعنى هو المهم عند الجاحظ ما دام اللفظ خادما له .ويحق لنا بعد هذا أن

1 . البيان والتبيين . ج : دار الكتب العلمية . بيروت . ص: 42-43 .

2 . الحيوان . تحقيق عبد السلام هارون . ط . مصطفى البابي الحلبي . 1938م . 1356هـ . ج3 . ص: 131-132 .

3 . رسائل الجاحظ . هامش الكامل . ج . مطبعة التقدم العلمية . القاهرة . 1323 هـ . ص: 38 .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

نتساءل عن المضامين والمعاني التي يريدها ، وأهم الضوابط التي يلتزم بها المبدع إزاتها ؟.

إن المعاني التي يستحسنها هي التي يتقبلها المنطق السليم ، ويستوعبها وتصلح بها حياة الناس ، كما يلح على المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها ، ولا تعمر الصدور إلا بما يتماشى والمنطق الإنساني السليم ، والجميع يعلم أن ما هو مقبول منطقيا مقبول أخلاقيا ، ويتدعم هذا الفهم بإلحاح الجاحظ على ضرورة التزام الصدق والابتعاد عن الكذب والمبالغة التي هي من قبيل المحال أو ما لا يمكن وقوعه . ويعلل إيثاره للصدق ، بأن الأديب الصادق أقدر على تبليغ أفكاره . وهذا أمر منطقي ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه كما يقال. وينقل الجاحظ في هذا الصدد قولا لعامر بن عبد القيس : " الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الأذان " (1).

ويقول أيضا : " ولا نرى بالغناء بأسا ، إذ كان أصله شعرا مكسوا نغما ، فما كان منه صدقا فحسن وما كان منه كذبا فقبيح ، وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم- " إن من الشعر لحكمة " ، وقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- " الشعر كلام ؛ فحسنه حسن و قبيحه قبيح "، ولا نرى وزن الشعر قد أزال الكلام عن جهته ، فقد يوجد ولا يضره ذلك ، ولا يزيد منزلته من الحكمة " (2). والصدق الذي يدعو إليه الجاحظ يتعلق بالمبدع في حد ذاته ، فالتعبير عن التجربة يجب أن يكون مطابقا للواقع الداخلي ؛ كما يتعلق الصدق أيضا بمضمون الإبداع الأدبي ، فينبغي أن يكون متماشيا مع الواقع الخارجي ، وما اتفقت عليه تجارب الناس.

وقد ساق الجاحظ نماذج شعرية كأمثلة للكذب والمبالغة المذمومة ، من ذلك قول المهلهل :

فلولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تُقرع بالذكور.

فهذا البيت كذبه بين واضح ، لأن منزله كان على شاطئ الفرات من أرض الشام ، وحجر هي قصبة اليمامة.

---

1 .البيان والتبيين . ج1 ص:47.

2 .رسائل الجاحظ . ج2 ص: 160-161.

ومن أمثلة الإفراط في المبالغة قول دريد بن الصمة :

أعاذل إنما أفنى شبابي ركوبي في الصريخ إلى المنادي

مع الفتيان حتى خل جسمي . وأقرح عاتقي حمل النجاد

وهكذا يرفض الجاحظ الكذب والإفراط في المبالغة التي لا يقبلها العقل ، وينوه بمنزلة الصدق ، ويجعله مقياسا من مقاييس العمل الفني الناجح ، يقول : " وأنفع المدائح للمادح وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثرا وأحسنها ذكرا أن يكون المدح صدقا ، وللظاهر من حال الممدوح موافقا وبه لائقا " (1).

ثم يقرر حقيقة لكي يستضيء بها الشعراء في المدح والهجاء ، ثم يؤكدها ببعض ما قاله الشعراء المشهورون فيقول : " وإنما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ ، فأما الاشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوئ دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف .

قال حريش السعدي :

أخ لي كأيام الحياة إخاؤه تلون ألوانا على خطوبها

إذا عنت منه خلة فتركته دعتني إليه خلة لا أُعيبها.

وقال بشار :

إذا كنت في كل الأمور معاتبا صديقك ، لم تلق الذي لاتعاتبه

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه مُقارف ذنب مرة ومجانبه.

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت ، وأي الناس تصفو مشاربه.(2)

وتستوقفنا هنا عبارة مما قال وهي " وأجداها على الممدوح وأبقاها أثرا " . فالجاحظ مقتنع بأن للأدب وظيفة يؤديها ، وهي التأثير في سلوك المتلقين من خلال معالجة صادقة تبرز المحاسن وتشيد بها ، وتكشف المساوئ وتفضحها ، وهو عندما يؤكد بأن الناس لا يخلو أحدهم من مساوئ ،فهو يعطي مبررا لوجود الأدب

---

1 . رسائل الجاحظ . ج1 ص: 36-38.

2. نفسه .

ويعلي من شأنه ، تجعله وسيلة إصلاح ، تهدف إلى الارتقاء بالإنسان إلى مدارج الكمال الإنساني ، بالابتعاد عما يشينه من مظاهر الفساد ومساوئ الأخلاق.ولن يتوصل إلى هذه النتيجة إلا مع أدباء صادقين مع أنفسهم ومع غيرهم مبتعدين عن الكذب والمبالغة والنفاق .

ومن المواقف التي سجلها الجاحظ والتي تنطوي على بعد أخلاقي ،هجومه على التكلف والاستكراه ، يقول :" وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكأن الله –عز وجل–قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب صاحبه وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا وكان صحيح الطبع ، بعيدا عن الاستكراه ومنزها عن الاختلال ، مصونا عن التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة "(1).

فالتكلف والاستكراه عادة ما يقود صاحبه إلى مزالق ، كالكذب وتحميل المعنى أكثر مما يطيق ، وتصيد ألفاظ نابية عن السياق العام للكلام ، وهكذا..والحقيقة أن الوضوح والابتعاد عن التكلف وتصيد الألفاظ الوحشية والغريبة الذي طلبه الجاحظ ، يستمد مرجعيته من مفهوم الفصاحة والبلاغة الذي استقر عليه الناس بعد استيعابهم لروح الإسلام وسماحته، فالفصاحة التي تعني الابتعاد عن الألفاظ الوحشية ، والبلاغة التي تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال أقرب إلى الإسلام الذي يتصف بالوضوح واليسر واللين ، وقد كان أيضا للقرآن الكريم والحديث النبوي بنظميهما أثرا إيجابيا ، حيث استلهم النقاد منهما مفاهيم جديدة للبلاغة والفصاحة .

والجاحظ من الذين عايشوا أزهى عصور الإسلام بمثاليتها وواقعيتها ، وجدت هذه المعاني طريقا إلى نفسه وانعكست في الكثير من القضايا التي أثارها . فالتكلف أبعد ما يكون على هذه الروح ، لذا استهجنه الجاحظ ، وأسقط صفة الحسن عن الكثير من الأشعار التي بدا فيها تكلف أصحابها واضحا ...ولعل الجاحظ بأسلوبه أراد أن يضرب المثل للمدعين ، حيث تجسد فيه الوضوح والسهولة والأناقة الفنية الممتعة .

---

1 . البيان والتبيين . ج1 ص:41.

وخلاصة القول ، فإن إدراكنا تام ، بأن احتفال الجاحظ بالشكل لا يمكن تجاهله ، لأن كتبه حافلة بـــالحديث عما يتعلق به من قريب أو بعيد . كما نؤكد أيضا بأنه قد أبدى عناية فائقة بالمعنى والمضمون ، وهذا يبـــين إحساس الجاحظ بأهمية اللفظ والمعنى على حد السواء في تأدية الوظيفة التي أنيطت بـــالأدب ، والأدب عنـــد الجاحظ هدفه الأساسي أخلاقي ، وغايته البعيدة إصلاح المجتمع والمضي به في روحانية سامية ، نحو الاستقامة في أسمى معانيها.

ولعلنا وقفنا بجلاء على الكثير من اللمسات الأخلاقية في معالجته النقدية ، كتأكيده على الصدق وذمه الكذب والتكلف والاستكراه ، ومواقفه من بعض الأغراض الشعرية كالمدح مثلا...كما وقفنا على وظيفـــة الأدب في نظره.

و هذه بعض أقوال الجاحظ نختم بها كخلاصة لأراءه التي أخطأ الكثير في تقديرها ، والسبب في رأيـي راجع إلى ضخامة مؤلفاته ، وإلى منطق الاستطراد والشيء بالشيء يذكر الذي اعتمده فيها ، الأمـــر الـــذي جعل الغموض يكتنف مضمون بعض ما يريد الوصول إليه .

يقول : " وقال إبراهيم بن هانئ – وكان ماجنا خليعا كثير العبث متمرداً ، ولولا أن كلامه هـــذا الذي أراد به الهزل يدخل في باب الجد ، لما جعلته صلة الكلام الماضي... "(1) .ويقول في شأن المعـــنى : " وقال من علم حقّ المعنى أن يكون الاسم له طبقا وتلك الحال له وفقا ..." (2) . " ثم اعلموا أن المعنى الحقير الفاسد والدنيء الساقط ، يعشش في القلب ، ثم يبيض ، ثم يفرخ ، فإذا ضرب بجرانه ومكّن لعروقه استفحل الفساد وبزل (انشق) وتمكن الجهل وفرخ، فعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه. اللفـــظ الهجـــين الـــرديء والمستكره الغبي أعلق باللسان ، وآلف للسمع ، و أشد التحاما بالقلب من اللفظ النبيه الشـــريف ،و المعـــنى الرفيع الكريم ..." (3) .

---

1. البيان والتبيين . ج1 ص: 52.
2. نفسه .
3. البيان ج1 ص:48.

لقد انطلق الجاحظ من رؤية أخلاقية للأدب، حاول من خلالها أن يخرجه من الهزل إلى الجد، ومن اللاوعي إلى المسؤولية ،ونظر إليه على أنه فن جاد ذو غاية وهدف ووسيلة إصلاحية على جانب خطير من الأهمية ، لذا حاول أن يبعد الأدب عن مواطن الريب ، ويسمو بأربابه إلى مصاف الرساليين الذين هم على وعي تام بمسؤولياتهم تجاه أنفسهم وأمتهم .

ومع أن الجاحظ لم يربط الأدب بالأخلاق ربطا صريحا ، إلا أنه بالتأمل نجد منطلقه الأول والأخير أخلاقي ، و الرؤية الأخلاقية واضحة في كل ما يقول ، ولا عجب ، فهو شيخ المتكلمين الذين كان لهم فضل الدفاع عن الدين والأخلاق أمام الزنادقة والمشككين ...

وإذا كان الجاحظ قد استفاد من الحقائق العلمية التي توصل إليها العلماء في اللغة والنحو ، أو الفلسفة والمنطق، أو البلاغة والبيان واتخذ منها أسسا يقيس بها الأدب ، فإنه لم يغفل كما أسلفنا طبيعة الفن الشعري وأهمية الجانب الوجداني فيه . لذا جاءت آراؤه إلى طبيعة الشعر وقضاياه الفنية أقرب .

إلا أننا إذا التفتنا إلى معاصره ابن قتيبة (ت276 ه) الذي يعد بدوره من علماء القرن الثالث الأجلاء ، فهو لم يقتصر على المعارف الأدبية واللغوية ، بل كان عالما باللغة والنحو وغريب القرآن و معانيه والشعر والفقه ، حتى قيل عنه فقيه الأدباء وأديب الفقهاء ، وقد كان له من حسن الدفاع عن الحديث والقرآن ضد النزعات الفلسفية المنحرفة ما جعل فريقا من الناس يعتبرونه لسان أهل السنة ، وحامل لواء الحوار والجدل والمنافحة عنهم (1) – نجده مع كل هذه الملابسات- يصدر آراءً نقدية توحي ، بأن صاحبها لم يستفد كبير استفادة مما بلغه النقد من نضج في هذا العصر ، ومع ذلك فإنها تحتاج إلى وقوف طويل لاستجلاء أمرها .

ولعل أهم الآراء النقدية لابن قتيبة ، تلك التي أجملها في مقدمة كتابه " الشعر والشعراء " و " أدب الكاتب " ، إلا أن هذا الأخير جمع بين دفتيه أبوابا اعتبرها دعامة لمن أراد أن يكون كاتبا ناجحا متميزا . أما كتاب "الشعر والشعراء " فقد ضمنه آراءً نقدية تدور حول الفن الشعري ، أجملها في مقدمة الكتاب خاصة ، وكذا أثناء تناوله للشعراء ...

1.أدب الكاتب . ابن قتيبة . تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، ص:6 – 7.

ويمكننا في البداية أن نقرر أن إسهامات ابن قتيبة النقدية ، ومجهوداته دفعت النقد خطوات أخرى إلى الأمام على طريق المنهجية والنضج .فقد حاول أن ينظّر للأدب ، ويضعه في مكانته اللائقة به . فقد سعى جاهدا لأن ينتقل بالأدباء والشعراء من وضع تهجم عليه تهجما شديدا إلى وضع يسهمون هم في إيجاده ، ولن يصلوا إليه إلا إذا فهموا هم أساساً مسؤولياتهم ، واطّلعوا بمهامهم على أكمل وجه وأحسن صورة .

لقد حاول أن يرد للأدب مكانته وللمبدعين منزلتهم ، وذلك من خلال إعلامهم بوضعهم الطبيعي في المجتمع ، فهم أفراد رساليون لهم مميزاتهم في أمة يفترض أن تكون متميزة بأخلاقها و بموروثها الثقافي والديني.

إلا أن ثقافة ابن قتيبة ومكانته الإجتماعية أثرت على طريقة معالجته ، ولعل اشتغاله بمنصب القضاء كان له دور في ذلك ، فأحكامه النقدية تتميز بالصرامة ، وتحس عند قراءة مؤلفيه السابقين ، بأن تأليفه في علوم شتى وما تحتاجه هذه العلوم من دقة وحزم ، قد افتقدته المرونة التي تحتاجها في تعاملنا مع الأدب والشعر منه على وجه الخصوص .

هذا الكلام لا يعني أن ابن قتيبة أخفق في الوصول إلى الغاية التي يصبو إليها ، بل على العكس فقد ترك بصمات إيجابية على النقد ونقاط مضيئة على طريقه الطويل . ولعل من إيجابياته أنه حاول أن يربط الشعر بالبعد الأخلاقي ربطا شجاعا لا مواربة فيه ، حيث حكم على الشعر لما فيه من فكرة تعليمية أو نفعية أو أخلاقية . يقول : "كان عمرو بن العلاء يستجيد للمثقب العبدي قصيدته التي منها :

إما أن تكون أخي بحق ... فأعرف منك غثي من سميني

وإلا فاطّرحني واتخذني ... عدوًّا أتقيك وتتقيني

فما أدري إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يليني

أألخير الذي أنا أبتغيه ... أم الشر الذي هو يبتغيني

ويعقب عليها بقوله : لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلموه ...(1)

---

1. الشعر والشعراء . ابن قتيبة . ط: دار الثقافة . بيروت . ج1 ص: 311 312.

كما مثل للشعر الحسن بأمثلة ، منها قول أبي دؤيب :

والنفس راغبة إذا رغبتهـــا وإذا ترد إلى قليل تقنـــع . (1)

فالشعر الجيد عنده هو الذي حاز على الحسن من جانبيه اللفظ والمعنى ، والشعر الرديء هو الذي لايتوفر على جمالية الشكل وجودة المضمون ، ويأتي بينهما ما اختل فيه وصف من هذه الأوصاف ، بأن كان فيـــه خطـــأ لغوي أو عروضي أو إعرابي أو انطوى على مضمون يثير الحساسية الأخلاقية أو الدينية ، أو لا يحقق نفعـــا ولا يجلب فائدة.

ومع صنيع ابن قتيبة الإيجابي ، إلا أنه عندما جاء ليمثل لهذه الأضرب أتى بأمثلة تحصر المضامين الحسنة في تلك الموضوعات التي تنطوي على حكمة أو فكرة تعليمية أو أخلاقية مباشرة ، والحقيقة أن المضامين الحسنة من وجهة نظر موضوعية لا يمكن تحديدها بهذه الطريقة ، لأن الغاية الأخلاقية للشعر تتحقق بمعالجة خاصـــــة تفرضها طبيعة الفن الشعري الذي يقدم المضامين الأخلاقية تقديما متميزا لا مباشرا ، لأن ذلك أدعـــى لتـــأثر المتلقي بها ، و تغير سلوكه تغيرا إيجابيا نحو الأحسن ، وهذه الحقيقة وعاها كما رأينا الجـــاحظ ، وغمضـــت طريقة معالجته ملامحها . وسنجدها تتردد عند ابن طباطبا ، و قدامة بن جعفر ، بشيء من الوضوح والدقـــة ، فقد أولوا المعيار الفني والأخلاقي أهمية بالغة في تقييم الشعر " لأن نبل المشاعر لا يكفي لإنتاج فن نبيـــل ، وأن جلال المضمون لايغني بديلا عن طاقة وأداة مخصبة تملك قدرة الإيحاء الفني " (2). هذه الأداة هي بالتحديد مـــا نصطلح عليه بالمعايير الفنية.

ولعل ابن قتيبة نسي أن الإمتاع غاية من غايات الفن الشعري إلى جانب الإفادة ، لهذا لم يعر الشـــكل كبير اهتمام . فالشعر ليس وسيلة تعتمد على مجرد صلب الواقع وتجميده واستغلال موضوعات ذات طـــــابع خطابي وعظي ، فالشعر لا تتحقق أصالته بنماذج من هذا القبيل ، إنما تتحقق إذا ما راعينا خصوصيات الفـــن الشعري وطريقته المتميزة في معالجة الموضوعات.

1.الشعر والشعراء . ج1 ص: 12.

2.فلسفة الالتزام في النقد الأدبي . د/ رجاء عيد. ط: منشأة المعارف 1988. ص: 376.

لقد تأثر ابن قتيبة بالأفكار التي ترددت في عصره حول اللفظ والمعنى ، والفصل الصارم بينهما ، الأمر الذي جعله يتغافل عن الجانب الجمالي والشعوري ، والوحدة الفنية بين الشكل والمضمون ، الأمر الذي دفعه إلى تقسيم الشعر أقساما فصل فيها اللفظ عن المعنى فصلا تاما ، وراح يبحث عما يحتويه كل بيت من المعاني الحكيمة والمفيدة متصورا أن الألفاظ تطّلع بمهمة تحديد هذه المعاني وتمييزها بشكل مستقل .

إن بداية ابن قتيبة في وضع مقاييس لتمييز الجيد من الشعر كانت موفقة ، حيث حاول إبعاد الشعر عن مظاهر الإفساد والفساد والارتقاء به إلى أن يكون وسيلة متميزة ذات هدف وغاية أخلاقية ، إلا أنه حينما جاء ليمثل للشعر الذي يراه بإمكانه الإطلاع بهذه المهمة ، نجده يخفق في اختيارها ، أو بتعبير آخر لا يحسن التوفيق بين الجانب النظري والتطبيقي ، لأن مسعاه جليل ومسؤول ، وهذه الأمثلة تجعلنا نقتنع بعدم جدوى الشعر لأداء هذه المهمة لأنها تدفعنا لتكوين تصور عن الشعر الذي يريده ، هذا التصور المبدئي يتغافل عن كثير من الحقائق المتعلقة بالفن الشعري وماهيته ووظيفته من وجهة نظر علمية موضوعية.

أما اللمسة الأخلاقية الثانية فإننا نظفر بها أثناء حديثه عن التكلف والطبع . يقول : " ومن الشعراء المتكلف والمطبوع ؛ فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهير والحطيئة ..." (1). ثم يتحدث عن مظاهر التكلف قائلا : " والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوي العلم لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكير ، وشدة العناء ، ورشح الجبين ، وكثرة الضرورات ، وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعنى غنى عنه ..." (2).

ثم ينتقل للحديث عن المطبوع من الشعراء فيقول : " والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي وأراك في صدر بيته عجزه ، وفي فاتحته قافيته ، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ، وإذا امتحن لم يتلعثم ..." (3).

---

1. الشعر والشعراء . ج1 ص: 22-23.
2. السابق . ج1 ص: 32.
3. السابق . ج1 ص: 34.

وبغض النظر عن خلطه بين الطبع والارتجال والتكلف والتثقيف ، فإن ابن قتيبة كغيره من النقاد فضل الشعراء المطبوعين ، لأنه يراهم صادقين في مشاعرهم وأحاسيسهم ، وكذا معالجتهم للمضامين بشكل طبيعي يكون أدعى للوصول إلى الهدف الذي يصبو إليه كل مبدع ؛ ألا وهو الإمتاع ، وإدخال الارتياح على المتلقي بسبب مشاركة وجدانية أو عقلية بينه وبين المبدع ؛ هذا التجاوب لن يحصل إلا إذا كان المبدع فنانا أصيلا موهوبا ، صادقا مع نفسه مقتدرا على إحداث نوع من التفاعل بين مظاهر الحياة ، وحقائق الوجود في صياغة متناغمة بعيدة عن الاستكراه والتكلف الذي عادة ما يؤول بصاحبه إلى مزالق تثير الريبة الأخلاقية كالكذب والعزف على أوتار موضوعات محفوفة بالنزعات الشيطانية والبهيمية ، والتركيز على الزخارف اللفظية لإبعاد الأنظار عن ضعف الموهبة ،وغياب الجانب الفني الجمالي الراقي ، الذي لا يؤتاه إلا مبدع مطبوع صادق مع نفسه وغيره متفهم لرسالته تجاه مجتمعه وأمته.

فابن قتيبة في الحقيقة حينما أبغض التكلف ، والاستكراه ، فهو في الحقيقة قد رغب في الصدق ، فهو يرى بأنه مزية ذات فضل لا ينكر في العمل الأدبي ، ومقياسا مهما من مقاييس التقدم الشعري .

وخلاصة القول فإن مع ابن قتيبة لا نلمح تأثره بآراء أرسطو وأفلاطون ، كما هو الحال عند بشر والجاحظ وقدامة مثلا ، بل حاول أن يسير في الاتجاه العربي الخالص ، وهذا ما يفسر حملته على المنطق والفلسفة سعيا منه لتأصيل جذور الثقافة العربية...

لقد حاول ابن قتيبة الربط بين الأديب ومجتمعه من خلال التأكيد على وظيفة الأدب وغايته، فهو يعول عليه في إصلاح فساد المجتمع ، لهذا فلا ينبغي للأديب أن ينحرف عن مهمته الرئيسة ، فيتناول أغراضا من شأنها أن تكون سببا في الفساد ، بل عليه أن يستغل الأدب – وهذا جزء من رسالته – في الدعوة الأخلاقية ، وأن يسلك به سبل النهوض بالأمة ، بزرع بذور الخير والفضيلة في أفرادها ، واجتثاث دابر الشر والرذيلة من نفوسهم ، وأن يكون شمعة مضيئة تنير الطريق أمام الناس.

وتمثل هذه المحاولات ، وإن كان يكتنفها في بعض الأحيان القصور في التصـــور المتكـــامل للعمـــل الإبداعي ، إلا أنها نجحت في المحافظة على استمرار التيار الخلقي في النقد .

***

ويتناوب المد والجزر علاقة الشعر بالدين والأخلاق في هذا القرن ، ويتبدى هذا التناوب في رســـالتين نقديتين مشهورتين ، إحداهما لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري (ت 328 ه) الأديب اللغـــوي المعـــروف ، والأخرى في الرد عليها لابن المعتز (ت 296ه) الشاعر الناقد المشهور ؛ فابن الأنباري ربط في رسالته الشـــعر بالأخلاق ، ورأى أن ضعف الأخلاق في الشعر ، بدعوته إلى الرذائل أو تشجيعها مدعاة إلى سقوطه وتأخره . يقول في هذه الرسالة التي وجهها إلى ابن المعتز : " جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانئ والشعر الـــذي قاله في المجون ... وإن لكل ساقطة لاقطة ، وإن لكلام القوم رواة ، وكل مقول محمول ، فكان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم ولا يدونوه في كتبهم ، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم ...فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبليته ، لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى ، فيهيج الدواعي الدنيئة ، ويقوي الخواطر الرديئـــة ، والإنسان ضعيف...والنفس في انصبابها إلى لذاتها ، بمنزلة كرة منحدرة من رأس رابية إلى ما فيـــه هلكتـــها . والحسن بن هانئ ومن سلك سبيله في الشعر ، كشفوا للناس عوارهم ، وهتكوا عندهم أستارهم ، وأبدوا لهم مساويهم و مخازيهم ، وحسنوا ركوب القبائح . فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم ، وأن يستقبح ما استحسنوه ، وقول هذا الخليع ؛ ترك ركوب المعاصي إزراء بعفو الله تعالى ، حض على المعاصي أن يتقرب إلى الله عز وجل بها تعظيما للعفو وكفى بهذا مجونا."(1)

إن ابن الأنباري استقبح شعر أبي نواس لأنه يشجع النفس الإنسانية على التردي في مهاوي الانحـــلال والفساد ، فأبو نواس ومن سلك سبيله لم يطّلعوا بالمهمة الموكلة إليهم ، وعلى العكس فقد جعلوا الشعر وسيلة للترويج للرذيلة والاستخفاف بأحكام الدين ،لهذا طلب من الكتاب إعفاء كتبهم من أشعاره ، ومن النـــاس كف ألسنتهم عن تداوله .

---

1 . جمع الجواهر في الملح والنوادر . الحصري القيرواني . تحقيق : علي البجاوي . ط: البابي الحلبي . 1953. ص: 40.

إن هذه الرسالة صريحة في ربط الشعر بالدين والأخلاق ، وضعف الأخلاق فيه سبب في ضعفه ورداءته.

أما ابن المعتز فلم يول هذا المعيار أهمية تذكر ، إذ يعد من النقاد الذين فهموا آراء الجاحظ حول اللفظ فهما سطحيا متطرفا ، وقصَروا سبب جودة الشعر عليه ، وما احتفاؤه بالبديع إلا مظهر من مظاهر هذا الفهم فهو يفصل بين الشعر والأخلاق فصلا تاما ، ولا يرى ضرورة لالتزام الشاعر في أشعاره بأحكام الدين وقواعد الخلق ، لأن الحكم على الشعر إنما يكون بمقدار ما فيه من الجمال الفني ، أما المقياس الخلقي فلا دخل لـــه في تقييم الشعر ، فللشاعر أن يصول ويجول ويقول ما يريد ، سواء أوافق الأخلاق أم لا ، فقط شرط أن يكـــون بطريقة فنية جميلة.

وقد لخص رأيه بصراحة في رده على رسالة ابن الأنباري السابقة ، يقول : " لم يقل أبونـــواس تـــركُ المعاصي إزراء بعفو الله تعالى ، وإنما حكى ذلك عن متكلم غيره ، و لم يؤسس الشعر بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ، و لم يقر بصبوة ، و لم يرخص في هفوة ... ولو سلك بالشعر هذا المســلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وعدي بن زيد ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيـــرًا ومواعظَ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة . فقد قال امرؤ القيس :

سموت إليها بعدما نـــام أهلهـــا سموّ حباب الماء حالاً على حال

فأصبحت معشوقًا وأصبح بعلها عليه القتام سيء الظـــن والبـــال .

وهل يتناشد الناس شعر امرئ القيس ، والأعشى ، و الفرزدق ، وعمر بن أبي ربيعة ، وبشار ، وأبي نـــوا س على تعهّرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم ، إلاعلى ملإ من الناس ، وفي حلق المســاجد ، وهـــل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم ... وما نهى النبي – صلى الله عليه وسلم-ولا السلف الصالح مـــن الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر أو فاجر. " (1).

وبغض النظر عن الأخطاء التي وقع فيها ابن المعتز فيما يتعلق بآراء النبي –صلى الله عليه وسلم –حول

---

1 . السابق . ص: 41.

الشعر وكذا حنفائه ،والتي وقفنا معها مطولا في الفصل الثاني ،وبغض النظر أيضا عن كون الشـــهرة ليست دليلا على التقدم في صناعة الشعر ،إضافة إلى أن المعايير النقدية تغيرت بتغير العصور ، فإن ابن المعـــتز امتطى هذه المقدمات الخاطئة ليصل إلى الرأي الذي يصبو إليه ،فهو لا يريد أن يتنزه عن الهفوات والصبـــوات ولا يضيره كما لا ينقص من قيمته ،اشتماله على كفر أو دعوته إلى رذيلة أو تخليه عن فضيلة.

ومن الضروري أن ننبه إلى رواية العلماء الموثوق بصدقهم لبعض الأشعار المشار إليـــها لم تكـــن إلا لخدمة العربية وتقنين قواعدها ، ولم يكن قصدهم الحرص على إنشادها لما فيها من خروج عـــن مواضعـــات الدين والأخلاق ،ومن الخطأ أن نعتقد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم-وخلفاءه الراشدين قد أباحوا روايـــة شعر العاهرين والفاجرين فقد سبق وأن تناولنا نماذج من كلامهم الذي ضمنوه آراء تخص الشعر ؛تؤكد كلـها أن لا مكان في أمة الإسلام لأدب مكشوف ،ولا لشعر ماجن ، ولا لهجاء مقذع، ينال مـــن قـــوة الأمـــة ووحدتها.

لقد سعى الرسول -صلى الله عليه وسلم-وخلفاؤه الراشدون لأن يكون الأدب وسيلة إصلاحية فعالة تسهم في الارتقاء بالأمة روحيا وأخلاقيا مما يدفعها قدما للقيام بمهمتها المنوطة بها .ولم يرض الرسول -صلـــى الله عليه وسلم- ولا خلفاؤه بشعر حاد عن هذا الطريق حيث أعلنوا رفضهم المطلق للنماذج المنحرفة ووصـــل الأمر ببعض من أصروا على السير في المنحى الذي ورثوه عن الجاهلية إلى العقاب . كل ذلك إدراكا منـــهم لخطورة الشعر إذا ما استغل كوسيلة للهدم و الإفساد.

و الآن لا نجد مبررا و لا مستندا واقعيا يدعم ما ذهب إليه ابن المعتز فتأكدت مجانبته للصواب.

و مهما يكن فإن هذه المحاولات النقدية في القرن الثالث على تضارب اتجاهاتها فإنها مهدت الطريق أمام ابن طباطبا و قدامة بن جعفر لكي يتجاوزا بالنقد الأدبي مرحلة الإنطباعية إلى مرحلة التصور الذي يشكل معايير للقيمة . و على هذا النحو برز علم الشعر على يدي هذين العالمين اللذين انتقلا به إلى التأصيل بوعي تام بمهمة.

الإنسان في الحياة وعلاقة الفن بتلك المهمة . ولولا صلتهما الوثيقة بالفلسفة لما استطاعا الخوض في تلك الآفاق بنظرة شاملة ، ومنهج منسجم في المعالجة النظرية لقضايا النقد ...

فأبو الحسن محمد بن أحمد ابن طباطبا (ت322 ه) من العلماء الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن الثالث ، وأخذ الأدب عن مشايخها واستوعب الفكر الذي تمخض عن تفاعل ثقافات مختلفة . ألف عدة كتب في الأدب و الشعر و النقد . أهمها في النقد كتابه "عيار الشعر "الذي اقتصر فيه على صناعة الشعر ، وما يتصل به من قريب أو بعيد . وهو كتاب نظري حاول فيه أن يضع أصولا لفن وقواعد الشعر ، تبرز ماهيته و تحدد معايير تقييمه ، بهذه المفاهيم والتصورات ، حاول ابن طباطبا أن يخرج من الانطباعية إلى العلم بكيفية النظم ومعايير تميز الشعر الجيد من الرديء. لقد استطاع ابن طباطبا في عيار الشعر أن يبني تصورا نقديا متكاملا حول الشعر لم نألفه في كتب المتقدمين ، وقد أعانه على ذلك كما أسلفنا ما تلقفه من معارف الفلسفة في عصره. حيث بدأ كتابه بتعريف الشعر وانتهى بتحديد الغاية من نظمه ، وفي خضم ذلك تناول أدواته وكيفية صناعته والمقاييس التي ينبني عليها الحكم النقدي .

طرق تقريبا كل القضايا التي عالجها معاصروه ، والمتقدمون عليه كقضية اللفظ والمعنى ، والطبع والتكلف ، والصدق والكذب ...الخ.

إن انطلاقة ابن طباطبا في تحديد عيار الشعر كانت من وعيه بالوظيفة الاجتماعية لهذا الفن ، فالغاية منه هي التأثير و " التأثير يعني تغيرا في الاتجاه وتحولا في السلوك ، والبداية الأولى للتأثير هي تقديم الحقيقة تقديما يبهر المتلقي من ناحية ويبدهه بها من ناحية أخرى ، وذلك أمر لا يمكن أن يتم بمجرد النظم العاري للأفكار ، بل يتم بضرب بارع من الصياغة تنطوي على قدر من التمويه تتخذ معه الحقائق أشكالا تخلب الألباب ، وتسحر العقول ، فتتبدى الحقائق من خلال ستار شفيف ... والتلطف قرين الرفق والحذق في التوصل إلى الأشياء فهو خاصية أصيلة من خصائص التوصيل الشعري الناجح ، وتلطف الشاعر في التقديم يعني أن الشاعر

لا يقدم المعنى كما هو ، بل يقدمه بضرب من التمويه لا يفارق الصدق في النهاية "(1).

وإدراكا من ابن طباطبا لهذه المسألة نجده يعنى عناية فائقة بالصياغة التي رأى مثالها – الذي ينبغي أن يحتدى –في القدماء من جاهليين وإسلاميين ، واقتناعا بتقدمهم في هذه الصنعة ، فقد بنى تصوره لعيار الشعر من خلال رجوعه للشعر القديم ، لذا نجده يسوق نماذج منه كلما أراد التمثيل للشعر الجيد . يقول مثلا : " فمن الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني قول زهير:(2)

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا –لا أبالك– يسأم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته، ومن تخطئ يعمر فيهرم

ومن لايصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ، ويوطأ بمنسم

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقي الشتم يشتم

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم

ولعل أهم خاصية جعلت ابن طباطبا يولي الشعر القديم هذه العناية ، إضافة إلى ما قلناه ، اتصافه بالصدق ، فقد بنى أغلبه على الصدق إلا ما احتمل فيه الكذب في حكم الشعر ، كالإفراط في التشبيه ، فالشعراء كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحا وهجاءً وافتخاراً ووصفًا وترغيبًا وترهيبًا " (3).

وعلى هذا الأساس ألح على الصدق وربطه بالشعر ربطا شجاعا ، بل ربطه بالمبدع أيضا ، فهو يريد من المبدع أن يتنزه عن الكذب ، ويقصر شعره على المعاني الصائبة والتجارب الصادقة ، ويضع نصب عينيه

---

1. مفهوم الشعر . ص: 43.
2. عيار الشعر . ص:48.
3. عيار الشعر . تحقيق د/ طه الحاجري. ود/ محمد زغلول سلام.المكتبة التجارية الكبرى.1956. ص:9.

المتلقي ، فيحاول بصدق أن ينقل إليه تجاربه ، لأن ذلك هو سبيل التأثير فيه ومن ثم تغيير سلوكه نحو الأفضل ، وهذه هي الغاية التي ألمح إليها ابن طباطبا في الكثير من المناسبات . ومادام الصدق يعكس قيمة إسلامية راسخة ، فإنه يمكن أن يكون دعامة لصياغة فنية ناجحة . ومن هنا يصبح للصدق مغزاه الأعمق ،إذ كلما كان المبدع صادقا مع نفسه كان قادرا على التأثير في الآخرين، فيعلمهم ويمتعهم في آن واحد.

فابن طباطبا يرى أن الصدق من العناصر الهامة اللازمة في الشعر حتى يكون له الشأن ، ولهذا فهو يربط الشعر بالصدق في نواح عدة، وخلاصة رأيه الذي نثره في مظان عدة من عيار الشعر .أن الفهم الذي هو منبع الشعر ومصبه ، لا يجد لذته إلا في الكلام الصحيح الشريف ، الذي يكشف بحق وصدق ما يعتمل في النفس يقول : " والفهم يأنس من الكلام بالعدل والصواب الحق ...ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل "(1).

لقد سعى ابن طباطبا إلى وضع مقاييس محددة يرجع إليها ، في تمييز الشعر الجيد من الرديء ، وقد حصرها في أمرين : تناسُبُ القصيدة في ذاتها ، وتناسُب القصيدة مع الغاية التي نظمت من أجلها .

وقد رد المقياس الأول إلى عناصر ثابتة وهي اعتدال الوزن ، وصواب المعنى ، وحسن الألفاظ ، أما المقياس الثاني فيرجعنا إلى الغاية من نظم الشعر ، وقد أشرنا إليها سابقا.

فالشعر الحسن هو الذي يجمع الجودة من ناحية الصياغة ، ومن ناحية المحتوى ، بحيث يحقق الإمتاع باعتدال وزنه وحسن ألفاظه ،والفائدة بصواب معناه واستقامة محتواه . وشعر كهذا لا محالة سوف يسهم في البناء الأخلاقي للفرد ،فعندما يمدح الشاعر فهو يمدح بالفضائل والصفات الأخلاقية المثلى ،وعندما يهجو فهو يذم الرذائل ومساوئ الأخلاق .والغاية من ذلك في النهاية هي إرادة الخير و الابتعاد عن الشر بتمجيد الفضائل وتقبيح الرذائل ، وهذا ما يقودنا إلى البعد الأخلاقي للشعر ودوره في عملية تغيير القيم واصطناع الوسائل المناسبة لتغييرها .

---

1. عيار الشعر . ص:14-15.

وواضح أن ابن طباطبا من خلال تأكيده على الصياغة لا يريد للشعر أن ينقلب إلى مواعظ وإرشادات ،لأنه في نظره ذو خصوصية تجعل منه تعبيرا جميلا مؤثرا عن تجارب الإنسان وحقائق الوجود. وليس من المستغرب أن يحمل ابن طباطبا رؤية كهذه ، فهو شاعر وعالم بخفايا الشعر ، لذا نجده على دراية كبيرة بخطورة الشعر ، الأمر الذي دفعه للتأكيد على جملة من المقاييس التي تعلي من شأن الفن الشعري ، وتضعه في إطاره اللائق به ، لهذا فوظيفة الشاعر الحقيقية عنده ، هي المساهمة الإيجابية في التكوين الأخلاقي للفرد، ولن يتسنى له ذلك إلا إذا كان على وعي تام بأنه فرد رسالي ، وجد لأداء رسالة نبيلة في المجتمع ، وإحساس كهذا من شأنه أن يعصمه من الكثير من المزالق التي تردى في دركاتها من لا يقدرون للكلمة قدرها .

وبعد: يمكننا أن نقرر أن ابن طباطبا قد سار على خطا من سبقوه من النقاد ، وأفاد من غيره في تكوين تصوره للشعر الذي ربطه بالأخلاق ربطا واضحا ، ولعلنا لسنا في حاجة إلى طول تأمل في كلامه للتأكد من ذلك ، فالبعد الأخلاقي مبثوث في ثنايا كتابه ، والأمثلة التي أوردناها لهي أوضح دليل على النزعة الأخلاقية في معالجاته النقدية...

ومن الذين استوعبوا ثقافة القرن الثالث ، والتي التقت فيها ينابيع الفكر الإنساني ، قدامة بن جعفر (260-337هـ) أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الأجلاء ؛ تلك الثقافة تأثر بها ، وعلى هدي من الفكر الفلسفي بنى تصوره لعلمٍ أراد أن يكون وسيلة لتمييز رديء الشعر من جيده ، وكذا وضع قواعد ، ومعايير لهذه الصناعة ؛ سواءً ما تعلق منها بجانب الشكل أو المضمون ، ونتيجة لوعيه التام بخصوصية الفن الشعري ، فقد أولى عناية فائقة بالعناصر التي جعلته متفردا عن الفنون الأخرى ، وأعني بذلك الشكل ، إذ الصياغة بجزئياتها هي التي تميز الشعر عن النثر ، لذلك نجده يقول : "وليس فحاشة المعنى في نفسه مما يزيل جودة الشعر فيه ، كما لا يعيب جودة النجارة في الخشب رداءته في ذاته "(1). وكسابقه الجاحظ فقد حكم عليه من خلال هذه الكلمة بأنه من أنصار النظرة الجمالية الصرفة ؛ والحقيقة أن نظرة قدامة بن جعفر أبعد من ذلك بكثير ،

---

1. نقد الشعر . قدامة بن جعفر . تحقيق : كمال مصطفى ، ط: القاهرة 1963 . ص:14 .

فهو ينظر إلى الشعر نظرة متكاملة منسجمة ، ويستحيل حسبه فهم حقيقة الشعر فهما يقوم على العناية بالمضمون دون الشكل ، لأن الشعر يستمد قوته من طريقة تقديمه للمضامين ، و نقل التجارب والمواقف ، و التأثير الإيجابي لن يكون إلا بكيفية خاصة قادت قدامة بن جعفر للحديث عن الكثير من تفاصيلها وأدواتها .

لقد ركز قدامة على التجويد في هذه الصناعة والوفاء بالغرض المقصود ، ولا يهم إذا كان المعنى المعالج مما يثير الحساسية الدينية أو الأخلاقية ، المهم عنده هو معالجة المعنى المطروق معالجة شعرية على قدر معين من الفنية التي لا تتحقق بمجرد السرد العادي والتقديم العاري للمضامين . لهذا نجده وقف موقفا حذرا من الصدق لأنه في رأيه قد يقوده إلى بعض المزالق التي لا يريد للشعر أن يقع فيها ، كالتقريرية ، ومحاكاة الواقع وتجميده ، لهذا نجده يقول : " إن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديما ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه ؛ وكذا يرى فلاسفة اليونان في الشعر على مذهب لغتهم "(1). والكذب الذي يبيحه للشعراء ليس معناه قلب حقائق التاريخ ، ولا قلب حقائق الوجود، ولا تصوير العواطف تصويرا غير إنساني ، لأن ذلك مردود على صاحبه ، ولكن الكذب الذي أباحه هي ألوان الخيال المختلفة التي يستعملها الشاعر ليجعل شعره أكثر وضوحا وتأثيرا ، كالتمثيل والمبالغة...

فقدامة يحاول إبعاد الشعر عن التقريرية وتقديم المضامين تقديما مباشرا غير مؤثر ، ويريد من خلال فتح المجال أمام الشعراء لولوج أي معنى ومعالجته ، رفع القيود التي تحد من شاعرية الشاعر أولا ، وقناعته بأنه يمكن الوصول إلى هدف أخلاقي من خلال معالجة موضوع غير أخلاقي ، كالهجاء مثلا ، فهو غرض يثير الحساسية الأخلاقية والدينية ، إلا أنه يمكن به أن يبرز الشاعر الجانب السلبي للخصال المهجو بها ، وخاصة عندما نعلم أن قدامة وضع ضوابط للمدح والهجاء ، وبماذا يكونان .

فالمدح الجيد عنده يكون بالفضائل الأساسية الأربع ؛ العفة والشجاعة والعدل والعقل ، أو ببعضها أو ما يتفرع

---

1. نقد الشعر ص:26 .

عنها ، والهجاء يكون بأضدادها ، أما الصفات العرضية ، فالمدح والهجاء بها مما يجب على الشاعر أن يتورع عنه ، لأن ذلك سبب من أسباب سقوط شعره " فالمدح الجيد مرتبط بالفضائل الأساسية للإنسان كإنسان ، وأن أفضل المدح هو الذي يمدح فيه الرجال بما يكون للرجال وفيهم ، وأن البشر لا يتميزون إلا بحسب قدرتهم على تحصيل الفضائل ، لأن الفضائل مكتسبة وليست موروثة " (1). فالشاعر لا يمدح بالصفات الخَلقية كما لا يهجو بها ، لأن ذلك لو حصل يؤكد عدم جدوى الشعر ، طالما أن الإنسان لا يملك تغيير شيء من صفاته الخَلقية ، أما التأكيد على الفضائل والأخلاق ، فهذا شيء يدعم منزلة الشعر ، ومكانة الشاعر في المجتمع، إذ يصبح وسيلة إصلاحية على جانب كبير من الأهمية ، وهذا مبرر هام لوجوده.

وتسليما منه بكون الصفات الأخلاقية متوقفة على نمط التربية الأخلاقية ، فهو يؤمن بأن سمات الشخصية الإنسانية ، و اتجاهاتها الأخلاقية يمكن تغييرها تغييرا إراديا . وما دامت أخلاق الإنسان قابلة للتبدل في ضوء مسعاه ومكابدته في التحلي بالفضائل ، فإن الإلحاح على مفهوم الفضائل الأربع ، وجعلها أساسا لفهم الشعر ، يمكن أن يدعم المحاولات الإصلاحية التي تحاول أن تعدل من فساد المجتمع ، وتقترب به من الصلاح ، كما أنه يؤكد دور الشعر في تغيير القيم واصطناع الوسائل المناسبة لتغييرها (2).

وفي الأخير يمكن أن نقول أن الغاية النهائية للشعر عند قدامة بن جعفر هي غاية أخلاقية ترتبط بتأكيد مفهوم الفضائل في نفس المتلقي .

وقد سجلنا في القرن الرابع الهجري كذلك بعض الآراء النقدية التي ترى أن الدين و الأخلاق لا ينبغي أن يكونا معيارين للشاعرية و دليلين على القيمة الفنية .

فأبو بكر الصولي (ت 336 هـ) أثناء دفاعه عن أبي تمام حين اتهم بضعف العقيدة و الإخلال بفروض الدين نجده يقول : " و قد ادعى قوم عليه الكفر ، بل حققوه و جعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره ، و تقبيح حسنه ، و ما ظننت أن كفراً ينقص من شعره ، و لا إيماناً يزيد فيه " (3).

---

1. مفهوم الشعر .ص:81.
2. نفسه . ص:81.
3. أخبار أبي تمام . أبو بكر الصولي . نشر المكتب التجري للطباعة و التوزيع . بيروت .1937 ص:172-173 .

إن هذا النص صريح في الدلالة على أن القيمة الفنية للشعر لا ينبغي أن يكون مقياسها ما كان عليه مبدعه من إيمان أو كفر ؛ و لكن الصولي ذهب بعد ذلك يروي من الشعر ما يتناقض صراحة مع ما تفرضه الأخلاق السامية ، هذا العمل الذي قام به الصولي ، أفسد المعنى الذي ضمنه كلمته السابقة و التي كانت تبدو و مستساغة إلى حد ما.

و على نفس الدرب جرى القاضي الجرجاني (ت 366 هـ) حين قرر أنه :" لو كانت الديانة عاراً على الشاعر ، و كان سوء الاعتقاد سبباً لتأخير الشاعر ، لوجب أن يمحى اسم أبي نواس من الدواوين و يحذف ذكره إذا عدت الطبقات ، و لكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية ، و من تشهد الأمة بالكفر عليه ، و لوجب أن يكون كعب بن زهير و ابن الزبعرى و أضرابهما ممن تناول رسول الله –صلى الله عليه و سلم – وعاب من أصحابه بكما خرساً ، لكن الأمرين متباينان ، و الدين بمعزل عن الشعر "(1).

إن الفهم السطحي لكلام كهذا يثير الدهشة و الاستغراب ، فكيف يصدر رأياً كهذا من عالم راسخ القدم في الإسلام كالجرجاني ، هل يريد بكلمته هذه فسح المجال أمام الشعراء للنيل من الدين و الاستهزاء بالقيم و المثل التي أكدها.

إن مراد الجرجاني في اعتقادي أبعد ما يكون عن هذا المعنى . بل كان مقصده أن شخصية الشاعر الواقعية و ما هي عليه من دين و أخلاق ليس لها اعتبار في الحكم على القيمة الفنية لإبداعاته ، فمراعاتهما من شانها إذا اجتمعت مع عناصر العمل الفني الناجح أن تجعل منه النموذج المطلوب و المستحسن . هذا ما كان يقصده الجرجاني و الصولي قبله.

و لكن من أسف أن يفهم الدكتور" عز الدين اسماعيل " من نصوص كهذه ما نبهنا إليه قبل أسطر و يصدر بناء على فهمه هذا أحكاماً جائرة كما في قوله :" و الملاحظة التي وقف عندها النقد العربي ، و أصر في كل حالة على موقفه ، هي أن الفن القولي لا يمكن أن يعيش في كنف الدين أو الأخلاق ، و كأن الأهداف

---

3. الوساطة بين المتنبي و خصومه.ط3: دار إحياء الكتاب العربية . القاهرة (د.ت). ص:64 .

الدينية و الأخلاقية لا تأتلف و طبيعته ".(1)

و قوله معقباً على كلام الجرجاني السابق : " فعزل الدين عن الشعر ، ووقوفه خارجه منع النقاد من أي حكم نقدي يرفع شعراً لما فيه من نزعة دينية أو يخفضه لوقوفه موقفاً يبدو مضاداً لها". (2)

و جميعنا متيقنين بما اجتمع لدينا من آراء و أحكام نقدية مستفيضة مدى خطا هذا الكلام.

و بالتأمل يمكننا إدراك مراد ابن المعتز في كلامه السابق (*) فهو لا يرى حرجاً في رواية ، و إنشاد شعر ذو محتوى يثير الريبة الأخلاقية ، أما الصولي و الجرجاني في عبارتيهما فمرادهما يختلف تماما عن هذا المعنى إذ دفاعهما – ربما- القوي عن أبي تمام و المتنبي، و محاولة كل واحد منهما الانتصار لشاعره و حشد الحجج لدعم ذلك ؛ جعلهما يفصلان بين الشخصية الواقعية للشاعر و بين شخصيته الفنية.

إن الشاعر عندهما لا يقيم إلا من خلال نتاجاته الفنية ، و لا دخل لدينه و أخلاقه في ذلك ، فالإبداعات الفنية هي التي تحكم لصاحبها بالتقدم أو التأخر ، و لا يكفي أن يكون على مستوى من الأخلاق أو التدين حتى يحتل منزلة الصدارة أو العكس.

إن الطعون و الشبهات التي أثيرت حول أبي تمام و المتنبي ، هي التي أوحت للصولي و الجرجاني بهذه الفكرة التي تبقي نشاط الناقد يدور حول العمل الفني و لا يتعداه إلى شخص الشاعر .

و يبقى علينا أن نعيد النظر في الكثير من النقاد حين نصنفهم ضمن تيار أو آخر، لأن الحكم على ناقد انطلاقاً من نص معين أو فهم خاطئ لمحتواه ، يعد من الأخطاء الجسيمة التي تعج بها كتب تاريخ النقد و الأدب ،و يعد أيضاً إجحافاً في حق أولئك النقاد الذين قدم بعضهم جهوداً كبيرة في ميدان النقد.

و لعله مما يثير التعجب أن يحكم بعض الدارسين بناء على مقدمات خاطئة على النقد العربي ، بكونه ألح على فكرة ، مؤداها أن الشعر لا يمكنه أن يعيش في كنف الأخلاق و الدين ، لأن طبيعته تتناقض معهما ،

---

* : ارجع إلى نص ابن المعتز في الصفحات السابقة من هذا الفصل.

1. الأسس الجمالية في النقد العربي . ط : دار الفكر العربي (1955) . ص :170-171

2. نفسه.

و على هذا لم يعلوا من شعر تشتم فيه رائحة الدين أو الأخلاق .

وهكذا تبقى النزعة الأخلاقية تتردد على الساحة النقدية ، فيتبناها وينافح عنها ناقد ويغفلها آخر و السبب في ذلك راجع إلى الظروف المختلفة السياسية والثقافية والاجتماعية لكل عصر ومرحلة ، وكذا التكوين الخاص لكل ناقد وطبيعته الفكرية .فنجد منهم من يؤكد الفصل بين المعيار الأخلاقي وبين المعيار الفني ونجد منهم من يربط الفن بالمعيار الأخلاقي ويحاول أن يصيغ أراءه على هدي من هذه العلاقة .

وإذا نحن ألقينا نظرة على الفئتين ، وجدنا أن من اكتفى بالمعيار الفني إنما هم أنصار اللفظ من اللغويين والنحويين والجماليين ؛ حيث رأوا في الشعر وسيلة تمدهم بما يحتاجونه من مادة لغوية وما يستلهمونه من قواعد نحوية وصرفية ،وما تجلب لهم من متعة فنية خالصة بصرف النظر عن المضامين .

أما من أكد العلاقة بين المعيار الفني و المعيار الأخلاقي فهم العلماء الأدباء الذين آمنوا بالوظيفة الاجتماعية للأدب ، ومن ثم بنوا دراساتهم النقدية على هذا الفهم ، وعلى ضوئه وضعوا المقاييس التي يتم من خلالها تمييز الجيد والرديء من الشعر...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الرابع

الاتجـاه الأخلاقي في المغرب و الأندلس.

- ملامح الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية في المغرب و الأندلس.
- المنحى النقدي العام عند نقاد المغرب و الأندلس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1-ملامح الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية في المغرب و الأندلس.

رأينا في الفصول السابقة أن النقد الخلقي عند العرب ، قد سجل وجوده في كل الأعصر منذ صدر الإسلام ... وإن كانت علاقة الأدب بالأخلاق يتجاذبها المد والجزر من عصر إلى آخر نتيجة ظروف سياسية واجتماعية وثقافية ألحنا إليها أو إلى بعضها في أماكنها . إلا أنه بقي يصارع النزعات المختلفة وخاصة التي تدعو تصريحا ، أو تلميحا ، إلى ضرورة إطلاق الحرية التامة للمبدعين أدباء كانوا أم شعراء ، يخبطون خبط عشواء بدون غاية أو هدف أو بالأحرى سعيا وراء الفساد والإفساد .

لقد استطاع النقاد الأخلاقيون على مر العصور أن يحتفظوا للأدب بدواعي وجوده من خلال التأكيد على الوظيفة الأخلاقية والاجتماعية له ؛ كما احتفظوا للأدباء والشعراء بمكانتهم باعتبارهم أفرادا رساليين يحتلون موضع الصدارة في أمتهم طالما أنهم يلتزمون بتقديم كل ما يعود بالنفع والفائدة على المجتمع .

كما استطاع النقد الأخلاقي أن يخطو خطوات عملاقة على طريق النضج ووضوح الرؤية والمعالم ، على أيدي علماء أجلاء أضافوا لبنات جديدة بفضل تطور علوم اللغة ، واتساع دائرة الثقافة ، وكذا تفتحهم واطلاعهم على منجزات سابقيهم من أمتهم والأمم الأخرى ، كل ذلك مكنهم من دفع النقد الأخلاقي والنقد عموما إلى الأمام ، ووضعه على الطريق السليم . حيث أصبح يعطي أهمية لكل خاصية من خصائص الإبداع الأدبي ، وصححوا بذلك أخطاء ترددت في العصور المتقدمة ، وقضوا على القصور في بعض المحاولات النقدية

حيث أصبحوا ينظرون إلى العمل الفني على أنه وحدة متكاملة الأجزاء لايمكن فصل بعضها عن بعض كما لايمكن أن يقيَّم العمل من زاوية دون أخرى . فالإبداع المستحسن هو الذي يجمع أطراف الحسن من كل جوانبه سواءً ما تعلق منها بالقيم الشعورية أو المعنوية أو الفنية ، فكلها معتبر و على أساسها يستحسَن العمل الفني أو يستهجَن .

إن مسيرة النقد الخلقي عند العرب اعترضتها معوقات واكتنفتها ظروف وملابسات ، جعلته يظهر بقوة في عصر ما وتخبو جذوته في عصر آخر ؛ كل ذلك اكتشفناه في الفصول السابقة والتي قصَرنا فيها الحديث عن النقد الخلقي في المشرق العربي بمختلف بيئاته ، وإن كنا عنونَّا الفصول بمصطلحات أخرى إلا أننا في الحقيقة تناولنا هذا الاتجاه عند النقاد المشارقة .

والآن يحق لنا أن نتساءل هل كان حال النقد الخلقي في المغرب والأندلس يتشابه مع ما مرَّ الحديثُ عنه في المشرق أم لا ؟.

تكاد آراء الباحثين تتفق حول كون النقد في المغرب والأندلس لم يعرف هذا التذبذب والصراع بين الأحكام الفنية والأخلاقية . فالنقاد المغاربة والأندلسيون أكدوا علاقة الأخلاق بالأدب وربطوا بينها وبينه ربطا شجاعا ، حيث أسسوا آراءهم النقدية انطلاقا من وعي أخلاقي بمهمة الأدب ، هذا الوعي نجده قاسما مشتركا بين من حملوا على عاتقهم مهمة التنظير للأدب وتنوير الطريق أمام أهله ، ومما لاشك فيه فإن ظاهرة كهذه – أي سيطرة النزعة الأخلاقية على الحياة النقدية – لها أسبابها ومبرراتها .

ولا يمكن في اعتقادي الوقوف عليها إلا من خلال التعرف على بعض ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية لهذا الجزء من العالم الإسلامي ولو بشيء من الاختصار ...

فأهل الأندلس والذين هم أخلاط من العرب والبربر والصقالبة واليهود والإسبان استطاعوا بعد مضي وقت ليس بالقصير أن ينصهروا معا تحت لواء هذه الحضارة الوافدة التي احتفظت لكلٍّ بديانته وحريته في ممارسة شعائره المختلفة ، واستطاعوا أيضا أن يُوجِدوا لأنفسهم خصائص تميزوا بها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فمن المظاهر الاجتماعية التي عرفها أهل الأندلس خصوصا – بعد أن تهيأت لهم أسباب الاستقرار في ظل بعض الإمارات – الترف الزائد وقد تجلت مظاهره في الإقبال على بناء القصور وإنشاء المدن واقتناء الجواري والقيان ... وكذلك اهتمامهم بأزيائهم وألبستهم ، وفسحهم بمجالس الغناء ، الأمر الذي دفع ببعض منهم إلى الانفلات من قواعد السلوك السوي ، والإقدام من ثَم على طلب المتعة المادية الخالصة ، فأسرفوا في الشراب وألوان الشهوات والمنكرات ... وفي المقابل نجد من الأندلسيين من أنكر هذه المظاهر وعبر عن ذلك بالزهد في الحياة وبهجتها ، واتجهوا كمرحلة طبيعية بعد ذلك إلى التصوف الذي اتخذوه مذهبا واتجاهاً . ومن الأندلس عرف طريقه إلى المغرب حيث انتشر بين أهله انتشارا حافظ من خلاله على وجوده إلى اليوم ؛ إضافة إلى هذه السمات والخصال ، اشتهر أهل المغرب والأندلس بحب التعلم ، والتضحية في سبيله ، واحترام العلماء ، والتدين والتسامح ...حيث كان للعلماء والفقهاء مكانة خاصة حتى عند الملوك ، فأفسحوا لهم المجالس واستشاروهم في أمور الحكم والسياسة ؛ فنالوا باحترامهم لأنفسهم احترام الناس لهم وتعظيم أقدارهم وخوف جانبهم ... قال عبد الله بن بلقين في مذكراته:

" و لم تزل الأندلس قديما وحديثا عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده ... وأما ما كان بينهم من مظلمة أو قضية وكل حكم يرجع للسنة فإنما كان لقاضي البلدة " (1).

أما الحياة الثقافية والعلمية فقد نشطت نشاطا كبيرا في المغرب والأندلس على حد السواء ، حيث انتشرت فيهما كل العلوم التي عرفها المشرق العربي ؛ من لغة وأدب وفلسفة وفقه وحديث وأصول وقراءات وطب وهندسة ، حيث اشتغلوا بكتب المشارقة في بداية الأمر ، دراسة وشرحا ومعارضة وردا واختصارا ،ثم راحوا يؤلفون في شتى العلوم من فقه ونحو ومعجمات وتاريخ وحديث وكتب في التراجم والدراسات الأدبية

---

1. مذكرات الأمير عبد الله. تحقيق بروفنسال . ط : دار المعارف . ص: 17 –18

تعز على الحصر . فقد خرَّجت الأندلس والمغرب الكثير من العلماء في شتى العلوم نذكر منهم على سبيل المثال ابن باجة ؛ ابن طفيل ؛ ابن رشد ، الكرواني ، أبو الوليد بن الرقشي ، ابن حزم ، ابن بسام ، ابن رشيق ، ابن شرف ، الحصري وابن خلدون ، وغيرهم كثير ...

أما عن الحياة السياسية فقد غلب عليها عدم الاستقرار ،فهذا الجزء من العالم الإسلامي عرف الكثير من التقلبات في الحكم ، وشهدت ساحته أسماء مختلفة لدويلات تعاقبت على تسييره .

ففي المغرب نجد الدولة الأغلبية والدولة الفاطمية والدولة الصنهاجية ، أما في الأندلس فبعد أن كانت تدين للخلافة الأموية بالتبعية في بداية فتحها ، تكونت – فيها بعد الفتنة – دويلات كل دويلة لها ملكها ونظام حكم مستقل عن الأخرى ، وبعد الوحدة التي أوجدها المرابطون دبت الفرقة من جديد وأصبح حال الأندلس مثلما كان على أيام الطوائف ، يقول الدكتور إحسان عباس واصفا الحياة السياسية : " ولما انقلبت الوحدة إلى تكثر أصبحت الأندلس دولا متعددة ، لكل دولة حاكم وإدارة وجيش وحياة أدبية وفكرية شبه مستقلة ، وأصبحت العلاقات بين الحكام قائمة على التحرز والحذر وإنفاق الأموال في بناء الحصون ، و الاستكثار من المرتزقة في حال الدفاع ، إذ غدت مشكلة الحدود الداخلية أهم مشكلة وأبرزها بين أولئك الأمراء ، وأصبحت قائمة على طلب التوسع والغلبة وانقضاض القوي منهم على الضعيف في حال الهجوم ، وفيما بين ذلك محالفات توجهها المآرب العابرة ، ثم لا تلبث من بعد ذلك أن تنقسم ، وفي هذا فقد الأمراء القدرة حتى على التوحد المؤقت أمام الخطر المشترك ، وذلك أنهم رضوا أول الأمر متفرقين أن يدفعوا الجزية للروم ، ثم عجزوا عن جمع الكلمة حيث أصبحت الجزية مكسبا لا يكفي القوي الغالب ، وأصبح اقتناص الحدود واقتناص الفرص المواتية للغزو هو المبدأ السائد ، بل لعلهم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك حين كانوا يحتكمون إلى صاحب الروم في خلافاتهم الداخلية ، أو يستعين به المضعوف منهم ليأخذ له بحقه ، وبذلك تفتتت الصخرة الصلبة المخوفة إلى أجزاء صغيرة واهنة ، وأصبحت الأندلس معبرا لقوى الشمال والجنوب فهي

إما عرضة لغزو الروم وهي إما جزء من المغرب ...لأن أمراءها شاءوا أن يفزعـــوا إمـــا إلى الشـــمال أو إلى الجنوب وفيما كانوا يتقاتلون على تحقيق أطماعهم الفردية الصغيرة وقعوا فريسة لأطماع خارجية " (1)

وعلى الرغم من تنابذ هذا الإمارات وصراعاتها فيما بينها حفاظا على وجودها حينا ، وســـعيا وراء التوسع حينا آخر ، وعلى الرغم من التحرشات المسيحية وبثها أسباب الفرقة والضعف في هذه الإمارات ، إلا أن فترات من الهدوء والاستقرار قد ميزت هذه الأخيرة سمحت لها بالالتفات إلى الأخذ بأســـباب الحضـــارة فعرفت التوسع العمراني والازدهار الثقافي والعلمي وغيرها من الإيجابيات التي لا يتناقش فيها اثنـــان . هـــذه الإيجابيات غطت الصورة الشاحبة للجانب السلبي في حضارتنا في هذا الجزء من العالم الإسلامي ...

أما الحياة الأدبية فقد نشطت وازدهرت على غرار ما شهده المشرق العربي ، حيث عرفت الســـاحة الأدبية كل الفنون النثرية والأغراض الشعرية التي نمت واستوت في المشرق ، ووجِدت فنون وقويت أخـــرى ولِدت في المشرق ووجَدت في الأندلس الجو المناسب فظهرت وكأنها فن جديد جاءت به الحياة الأندلســـية ، لقد عجَّت البيئة المغربية والأندلسية بالتيارات والمذاهب الأدبية الوافدة من المشرق ، فوجِد من الشعراء مـــن ينتصر لطريقة القدماء ، ومنهم من يلتزم طريقة المحدثين ، ومنهم من استغل الأدب لأهداف أخلاقية ودينيـــة ، ومنهم من وضع هذا الأمر جانبا . لهذا نلاحظ انتشار ألوان من الشعر لا تراعى فيها قواعد الأخلاق كالهجـاء المقذع والغزل الفاحش وخاصة التغزل بالغلمان ...وفي مقابل ذلك نسجل حضور الشعر الذي فيه مراعـــاة لأوامر الدين وقيم الأخلاق في كل الأغراض ، كما نسجل تيارا ذا طابع دفاعي كرد فعل طبيعـــي لتفشـــي مظاهر الفساد في قطاعات من الناس والمتمثل في شعر الزهد...

أما مظاهر التطور والتميز في الحياة الأدبية فتتمثل في وصف الطبيعة ، والتغزل بالغلمـــان ، وانتشـــار الموشحات ، وكذا كثرة الشواعر ، وإلى جانب الشعر شهد النثر الفني بدوره توسعا في كل أشكاله وأنواعه

---

1 .تاريخ الأدب الأندلسي ط : دار الثقافة بيروت سنة 1971 . ص: 08

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

* : للتوسع / راجع كتاب : الأدب الأندلسي . د: مصطفى الشكعة . ط : دار العلم للملايين . بيروت . سنة 1979م. وكتاب تاريخ الأدب الأندلسي . د : إحسان عباس .

2- المنحى النقدي العام عند نقاد المغرب و الأندلس.

وإذا انتقلنا إلى النقد – ميدان دراستنا – فإننا نجد أهله لم يبقوا منعزلين عن الحياة الأدبية ، و لم يجاروها كل المجاراة ، بل وقفوا مواقف تتسم بكثير من المسؤولية توحي بدراية واسعة بالأدب وكذا بالواقع العام للمسلمين وبخاصة في المغرب والأندلس .

وإذا علمنا طبيعة التكوين الفكري للنقاد المشهورين في المغرب والأندلس ، ومكانتهم في المجتمع سهل علينا فهم ذلك . فابن حزم وابن بسام مثلا من علماء الدين الذين يضيقون ذرعا بانحرافات المجتمع وشذوذ أفراده ، ومن ثَم فهم يحاولون التزام المنهج الأخلاقي القويم ورد الناس إليه ، لأنه سبب قوتهم وعزتهم . لقد نظروا إلى المجتمع وأحوال الناس بعين عالِمٍ مصلحٍ يدرك أسباب الوهن ويحيط بمسبباته وينابيعه ...

فالظروف السياسية التي ميزت هذا الجزء من العالم الإسلامي ، وما يتهدده من مخاطر نتيجة الصراعات الداخلية التي أدت إلى ضعف بُناه الاجتماعية والاقتصادية ، وكذا التحرشات الخارجية التي يتناوبها المد والجزر بحسب الحالة السياسية والاقتصادية للإمارات والدويلات التي ظهرت هناك ، إضافة إلى تفشي مظاهر الانحلال والفساد في قطاعات من أهل الأندلس بخاصة ، ومجاراة بعض الشعراء لهذه المظاهر وانحرافهم عن منحى السلوك السوي في حياتهم وإبداعاتهم ...

كل هذه الحقائق جعلت هؤلاء النقاد أكثر وعيا بما وصلت إليه أحوال الناس وما آلت إليه شؤون الحكم .

ووعيًا منهم بخطورة الشعر – على وجه الخصوص – وبما يمكن أن ينجر عنه إذا ما استعمِل كوسيلة

لتزييف الحقائق وتزيين الرذائل والجهر بها ، فهم يدركون تمام الإدراك أن الشعر أيضا وسيلة إصلاحية على جانب كبير من الأهمية إذا ما قام أربابه بالمهمة الحقيقية المنوطة بهم .

لهذا كله حاول النقاد إعطاء الصبغة الأخلاقية لمهمة الشعر،وعلىضوء المعيار الأخلاقي قيموا الإبداعات الفنية وصدَروا في آرائهم النقدية بوحي منه ، وبنوا مناهجهم في التأليف على أساسه ؛ فابن بسام تبدو ملامح المنحى الأخلاقي في مؤلفه الشهير " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " من البداية إذ يقرر إعفاء كتابه من الهجاء قائلا : " ولما صنت كتابي هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميدانا للسفهاء ، أجريت ها هنا طرفا من ملح التعريض ..." (1)

وتردد صدى هذا القرار أثناء ترجمته لبعض مَن اشتهروا بالهجاء ، ففي ترجمته للسميسر نجده يقول : " وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره من القدح في أهل عصره صنت الكتاب عن ذكره ." (2)

ونفس الشيء في تعريفه بولادة بنت المستكفي بالله ، يقول : " وكانت -زعموا – تقرض أبياتا من الشعر ، وقد قرأت أشعارا منه في بعض التعاليق أضربت عن ذكره ، وطويته بأسره ، لأن أكثره هجاء ، وليس له عندي إعادة ولا إبداء ، ولا من كتابي أرض ولا سماء . " (3)

إن تحفظ ابن بسام من الهجاء له ما يبرره إذ أن كثيره لا يخرج عن دائرة القدح في الأعراض ، وهتك الحرمات ، والتطاول على الناس والسخرية منهم والانتقاص من أقدارهم . وهذه في الحقيقة مظاهر للفساد الأخلاقي والتساهل في أحكام الدين وتعاليمه . ومنعها من منطلق كونها سببا في انتشار العداوة والفرقة بين أفراد الأمة ، هذه الفرقة والتشتت التي يسعى ابن بسام وغيره إلى القضاء عليها وإرجاع الناس إلى الوحدة والأخوة التي يفرضها الدين ، وتلح عليها سنن القوة والبقاء وتتطلبها.

لهذا نجده يقف هذا الموقف المتصلب من الهجاء ، ويعفي كتابه منه ، لأنه يرى بأنه لو فعل لكان ذلك

---

1 .الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق د: إحسان عباس . ط: الدار العربية للكتاب ليبيا تونس 1981 .ق1/م1 ص: 544 .

2 . الذخيرة 1 / 2 ص: 883 .

3 . الذخيرة 1/1 ص : 432 .

مجاراة منه لأهله ، وتحفيزا لهم على مواصلة الجموح . يقول ناقدا لقصائد ابن عمار التي هجا فيها المعتمد بن عباد وآله : " وبعد أن أضربت عنه رغبة بكتابي عن الشين وبنفسي أن أكون أحد الهاجين فقد قالوا إن الراوية أحد الشاتمين " (1) .

إلا أن ابن بسام لم يُخلِ كتابه من الهجاء مطلقا ، إذ قسمه إلى قسمين يبدو من كلامه أنه تقسيم شائع يقول : " والهجاء ينقسم إلى قسمين قسم يسمونه : هجو الأشراف وهو ما لم يبلغ أن يكون سبابا مقذعا ، ولا هجرا مستبشعا وهو طأطأ قديما من الأوائل وثلّ عرش القبائل ؛ إنما هو توبيخ وتعيير وتقديم وتأخير . " (2)

"والقسم الثاني وهو السباب الذي أحدثه جرير وطبقته وكان يقول : إذا هجوتم فأضحكوا وهذا النوع لم يهدم قط بيتا ، ولا عيرت به قبيلة ،وهو الذي صنَّا هذا المجموع عنه وأعفيناه أن يكون فيه شيء منه فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه وبقي عليه إثمه. " (3)

لقد أورد أمثلة من النوع الأول لكنه أضرب عن النوع الثاني إلا نادرا حيث اقتضى سياق الكلام واتصال القصص والأخبار إثباتها .

وواضح من خلال هذا الكلام أن ابن بسام لا يريد للشعراء أن يتورطوا في السباب الذي امتلأت به النقائض ، وأن يسلكوا سبيلا غير سبيل جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم ، بل عليهم الابتعاد عن القدح في الناس والسخرية منهم من أجل إثارة الضحك ، وتجزية أوقات الفراغ كما كان يفعل جرير وطبقته . فإيذاء الناس الذي يكون بذم الصفات الخَلقية والهمز واللمز مرفوض من الناحية الأخلاقية والدينية ، فهو فضلا عن الآثار السلبية التي تنجر عنه لايجنَى من ورائه أدنى منفعة ولا ترجَى منه أية فائدة .

ومن خلال الأمثلة التي أثارت استحسان ابن بسام يتبين لنا بوضوح أنه :

---

1 . الذخيرة . 2 /1 ص: 414-415.

2 . الذخيرة . 1 /1 ص: 544 .

3 . الذخيرة . 1 /1 ص : 546.

أولا : يميل إلى الشعر الذي يتتره عن ذكر الأسماء والتشهير بأصحابها ، ويحبذ التعريض والتلميح فحسب .

وثانيا : يريد للهجاء أن يكون بالصفات الأخلاقية لا الخَلقية لأن الهجاء بالصفات الخَلقية كالذمامة والسواد أو غيرهما لا معنى له ، لأن المهجو لايملك تغيير شيء منها فيوضع من ثَم الهجاء الذي يكون من هـــذا القبيــل في خانة السباب المحض.

ووعيا من ابن بسام بالمهمة الأخلاقية للشعر استحسن من الهجاء ما كان بالصفات الأخلاقية السـلبية لأن الشعر لايكتسب جدواه ولا ترجى منه فائدة إلا من خلال الإيمان بالوظيفة الاجتماعية له . وطالمـا أن ذم الرذائل وتقبيح الصفات الخُلقية السلبية من شأنه أن يحمل الناس على الإقلاع عنها وتجنبها ، ألح ابن بسام على أن يسير الهجاء في هذا الإطار ولا يتعداه ،إيمانا منه بالمهمة الأخلاقية للأدب واقتناعا منه بكونه وســيلة ذات خطر تستعدي من الأدباء والشعراء الإحساس بها ، لهذا نجده يستنكر على ابن شهيد الأبيات التي هجا فيها أبا جعفر والتي يقول فيها :

أبو جعفر رجــل كاتـــب … مليح شبـا الخط حلو الخطـابة

تملأ شحما ولحما ومـــا … يليق تمـلؤه بالكتـــابة

وذو عرق ليس ماء الحيـاء … ولكنه رشح فضل الجنـــابة

جرى الماء في سفله جري لين … فأحدث في العلو منه صـلابة

ويعلق ابن بسام على هذه المقطوعة التي جعلها ابن شهيد من قبيل التعريض : " وليت شـــعري مـــا التصريح عند أبي عامر (ابن شهيد) إذا سمى هذا تعريضا. " (1)

فبالإضافة إلى البذاءة والفحش البادين في هذه المقطوعة وضعف الجانب الفني فيها ، فقد كان طعنـــا في شخص أبي جعفر وليس إنكارا لصفة أخلاقية كان عليها ،من هنا استنكر ابن بسام هذا الأسلوب في الهجاء وبدا متأسفا على مجرد إيراده لهذه الأبيات لولا أن الحديث أخذه وألزمته الضرورة لإثباتها .

---

1 . الذخيرة . 1/1 ص: 308

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

وخلاصة القول فإن قبول الهجاء مرتبط بأن لايطعن المهجو في ذاته ، وفي عرضه وألا يكون فاحشا مثيرا للعداوة وحاثًا على الفرقة ، الغاية منه تقبيح الصفات الخلقية السلبية واجتثاث جذورها من المجتمع لا أكثر .

ويبدو أن الساحة الأدبية قد استجابت إلى هذه الدعوة ، حيث سجل ابتعاد شعراء مشهورين عن الهجاء من أمثال : ابن خفاجة وابن حمديس ...

وسعيا منه لإرساء دعائم هذا الاتجاه لم يقصر ابن بسام اهتمامه على المبدعين فحسب بل أراد للترعة الأخلاقية والتعفف أن يطال النقاد ومؤرخي الأدب أيضا . فهو يعيب على أبي منصور الثعالبي إيراده في " يتيمة الدهر " شعر الهجاء قائلا : " فإن أبا منصور الثعالبي كتب منه في يتيمته ما شانه وسمه وبقي عليه إثمه..". (1). ويقول أيضا ذاما المؤرخ ابن حيان : " فقد كان سهما لاينمى رميه ، وبحرا لايُنكّش آذيه ، ولو ثلب الماء ما نقع ، أو تعرض لابن ذُكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت في التخوم ، وأنافت على النجوم فيضع منارها ،ويطمس أنوارها ،بلفظ أحسن من لقاء الحبيب غب الموعد ،وأمكن من عذر الطبيب عند العود.."(2)

فالمنطق الإصلاحي الذي ينطلق منه ابن بسام يجعله دائما حريصا كل الحرص على أن يلعب المبدعون دورهم بصدق وأمانة ؛ بأن يكونوا مشعلا ينير درب الآخرين ، ويأخذوا بأيدي التائهين في دروب الحياة ، لا أن يزجوا بهم في حمأة العصبية المقيتة ، ويجعلوا منهم معاول هدم لبنى المجتمع التي تشد أسر الأمة ؛ كما أنه حريص أيضا على أن يلعب النقاد والمؤرخون والمنظرون للأدب دورهم بأن يقفوا من الزائف موقفا واضحا وأن يأخذوه بالتقويم لا بالتصديق والتبرير ، ولا يجاروا أصحابه بأي حال من الأحوال ، فعليهم أن يلتزموا قضايا الأمة ، وما يمليه نظام القيم أولا ويلزموا بها غيرهم ثانيا . ولا يتركوا الحبل على غاربه بل عليهم سد كل منافذ الشر واجتناب أسباب الضعف والتدهور ، وابن بسام في اعتقادي لا يقول هذا الكلام إلا وأوضاع الأمة ماثلة بين عينيه . فهو يرى بأن الأدب الزائف كان له دور فيما تعانيه الأمة . ولعل كلمته التي نثبتها

---

1. الذخيرة . 1/1 ص: 546 .

2. الذخيرة . 1/ 2 ص: 583 .

الآن هي أوضح دليل على ذلك . فبعدما أورد أبياتا لأبي بكر الداني يمدح فيها تضحيات ممدوحه يقول فيها :

في نصرة الدين لا أعدمت نصرته تلقى النصارى بما تلقى فتنخدع

تتيلها نعما في طيها نقم سيستضرها من كان ينتفع

يعقب عليها قائلا : " وهذا مدح غرور ، وشاهد زور ، وملق معتف سائل وخديعة طالب نائل ، وهيهات ، بل حلت الفاقرة بعد بجماعتهم ، حين أيقن النصارى بضعف المنن ، وقويت أطماعهم بافتتاح المدن ، اضطرمت من كل جهة نارهم ، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم ." (1)

فالشاعر في هذه الأبيات يقلب واقعا في الحقيقة أمر من العلقم ، ويجعل مظاهر الذل والهوان الذي ران على المسلمين في الأندلس بسبب أنظمة حكم هزيلة ،وحكام مكبلي الإرادة والعزيمة ؛أشياء يمدح بها من يريد.

لقد سخط ابن بسام على هذا الشعر الذي لم يلتزم فيه أصحابه الصدق ، وسعوا جاهدين لإرضاء ممدوحيهم فأضفوا عليهم صفات كمال ليست فيهم ، وبالغوا فيما هم عليه من الفضائل ؛ وبرأوهم مما فيهم من المعايب ... فزيفوا الحقائق طلبا للحظوة والمنفعة الخاصة .

إن ابن بسام تنبه إلى خطر هذا الإسفاف والملق والكذب لأنه قد يوهم الممدوح أنه كذلك وأن الأمور تسير على أحسن ما يرام ، لهذا طلب بعض الخلفاء الذين اشتهروا بالفطنة والتقوى والورع –كعمر بن عبد العزيز – من الشعراء ألا يصاحبوه للمدح ، وإنما لرفع حاجة من لايستطيع رفعها ، وللإعانة على الخير والهداية إليه .

لكن نموذج الخليفة الورع الصارم يندر وجوده ، فالكثير من الحكام من لايرى إلا بأعين حاشيته ، ولا يسمع إلا بآذانها ، ولما كان الشعراء في ذلك العصر عادة ما يتقلدون مناصب عالية ويتبوأون محل الصدارة في المجتمع ، كان خطر الشعر أشد .

---

1. الذخيرة . 2/3 . ص: 606.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

هذه الأسباب وغيرها ، إضافة إلى رفضه للعبث والعشوائية ، حاول ابن بسام الابتعاد وإبعاد المبدعين عن أغراض تتعارض مع المنحى الأخلاقي الذي يؤمن به ، كما حاول تكييف بعضها ، بضبطها بضوابط تحافظ بها على جدوى بقائها بين المسلمين ...

وحفاظا منه أيضا على أخلاق الأمة وسلامتها من المزالق التي تنال من قوتها ، وقف موقفا متحفظا من غرض يثير الريبة الدينية والأخلاقية ، وعادة ما يكون ميدانا لتجاوز المقدار، والجهر بالفواحش والإقرار بالمعاصي وتزيينها إلا فيما ندر . ألا وهو الغزل .

وكشيء منطقي وطبيعي من ناقد أخلاقي فقد وضع حدودا له أوضح من خلالها المعايير التي على أساسها تقبل الأشعار في هذا الغرض ، وكما فعل مع الهجاء فقد استحسن من الغزل العفيف منه الذي تتراءى فيه سمات النفس المتعالية العفيفة التي يمنعها عفافها من الانسياق وراء ما تمليه الغرائز وتزينه الشهوات ...ويستهجن منه الغزل الفاحش الذي يصرِّح فيه بلحظات السقوط والاستسلام للشهوات ، وتزيَّن فيه الرذائل وتصوَّر بشكل مؤثر .

وهو كعادته في ممارساته النقدية يورد أمثلة يحاول من خلالها تقريب النماذج المقبولة من وجهة نظره ، ومن ثَم الالتماس من الشعراء السير على منوالها وحذو طريق أصحابها ، فمن الغزل العفيف الذي رأى فيه النموذج الذي ينبغي أن يحتذى به قول أبي بكر بن داود القياسي : (1)

أنزِّه في روض المحاسن مقلتي ... وأمنع نفسي أن تنال المحرما
وأحمل من ثقل الهوى ما لوَ انه ... يصب على الصخر الأصم تهدما
وينظر طرفي عن مترجم خاطري ... فلولا اختلاسي رده لتكلما
رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم ... فلست أرى حبا صحيحا مسلما

أما نقيضه؛ أعني الغزل الفاحش أو الصريح فقد اختار نماذج منه لتوضيحه ومن ثَم تجنبه ،

---

1 . الذخيرة .2/ 1 ص:139

كمقطوعة لعبد الجليل بن وهبون يقول فيها : (1)

تعرض لي ليسقط في حبـــالي سقوط تعمـــد شبه اتفـــاق .

وبات على المدامة لي نديـــما وبين جفونه للغنج ســـاق

إلى أن مال من سنة الحميـــا وقـــام اللـــيل ممـــدود الرواق

وحل معاقـــد الهـــميان عنـــه بسبط كان يعقـــدها رقـــاق

وصار على كرامته بســـاطـــا ولفت بيننـــا ســـاق بســـاق

إلا أن ما يثير الاستغراب حقا هو ذلك الموقف الذي أبداه تجاه التغزل بالغلمان ، وكنا ننتظر من رجل انـــبرى لإصلاح المجتمع ، ونهض للقضاء على مظاهر الفساد والانحراف ، موقفا واضحا من هذا الشذوذ الذي امتلأت به أشعار البعض . أما سبب تساهله فالقول بأن انتشاره وتداوله بين الناس هو الذي جعل ابن بسام يجاريـــهم ولا يستنكر إلا الفاحش منه ، قول لايقبله العقل بسهولة ، لأنه كما نعرف حمل حملة شعواء علـــى أغـــراض كالهجاء والمدح الزائف والغزل الفاحش مع انتشارها في أوساط الناس . ومع قلة فحشـــها إذا مـــا قورنـــت بالتغزل بالغلمان ، فالمنطق يقول : أنه كان ينبغي عليه أن يكون أشد صرامة في إبداء الموقف الذي تمليه أحكام الدين وقواعد الخلق ...

وهكذا يبقى الدافع الحقيقي لهذا السلوك الغريب — والذي يعد مزلقا أخلاقيا — خفيـــا ولا يمكـــن تفسيره بالطريقة التي أشرنا إليها سابقا . وفيما عدا هذا فالبعد الأخلاقي واضح جدا في أحكام ابـــن بســـام وممارساته النقدية ، فقد أدرك إلى حد بعيد وبوعي كامل مهمة الإنسان في الحياة ، وعلاقة الشعر على وجـــه الخصوص بتلك المهمة . لذا نجده لم يتجاهل الوظيفة الاجتماعية للأدب ، حيث طلب بطريقة مباشرة أو غـــير مباشرة السعي إلى الكمال بكشف مظاهر التردي وتأكيد ضرورة التنزه عنها ،وكذا الارتقاء والسمو بـــالتزام الفضائل المثلى وتزيينها والترغيب فيها ...

---

1 . الذخيرة . 1/2 ص: 144

ومن الذين ساروا على هذا النهج والتزموا الأخلاق دعوة وسلوكا ابن حزم ، فقد انطلق من ثقافته الدينية الراسخة ، وما تشرَّبه من أحكام عقدية محاولا الوقوف في وجه مظاهر الفساد والعبث التي انتشـــرت في الأندلس ؛ ووعيا منه بضرورة تجفيف ينابيع تلك المظاهر وأسبابها ومحفزاتها ، وكشيء طبيعي مـــن فقيـــه مصلح لا يصدر في أي أمر من أمور الحياة إلا على هدى مما تمليه الأخلاق وأوامر الديـــن ، نجـــده كذلـــك في ممارساته النقدية . فهو يدرك تمام الإدراك أن الأدب المنحرف قد يكون سببا فيما آلت إليه أحوال النـــاس والمجتمع من انحرافات أخلاقية ، لذا كانت ممارساته النقدية تتسم بالسمة الأخلاقية . وعلى ضوء هذه النزعـــة قوم الأدب وأراد له أن يسير في فلكها . لأن ذلك سبب قوته وجدوى بقائه وسر وجوده بـــين المســـلمين ؛ وإلحاح ابن حزم على ذلك لقناعته بكون الأدب يمكنه تغيير القيم وتكييف الوسائل لذلك الغرض ، ومن ثَـــم يمكنه أن يدعم الحركة الإصلاحية التي شرع فيها ابن حزم وأضرابه .

ومما لاشك فيه أن النزعة الأخلاقية التي تميز بها ابن حزم لم تكن من وحي اطلاعه علـــى الفلســـفة اليونانية وبتأثير منها ، بل الواقع يؤكد أن نظرته تلك لا تعدو أن تكون من وحي الدين الإســـلامي ، ونجـــد صدى ذلك في تعليلاته للأحكام التي يصدرها أثناء ممارساته النقدية ، وخلال معالجاته لبعض القضايا التي لهـــا علاقة بالأدب ، فهو لا يكتفي بالتعليل الفني بل يتعداه إلى ما يتركه هذا العمل الأدبي أو ذاك ، وهذا الغـــرض أو غيره من آثار سلبية أو إيجابية على المتلقي ، وما ينجر عنه من عواقب حسنة أو سيئة في الدنيا والآخـــرة ، وكثيرا ما يستضيء بنصوص قرآنية وحديثية لتوضيح أفكاره ودعم آرائه .

ويظهر إيمانه بأن الأدب وسيلة إصلاحية متميزة ، من خلال التأكيد على الوظيفة الاجتماعية للمبـــدع ، فهو يعـــول عليه شحد الهمم والعزائم الخائرة ، و لَمّ شـــمل شتات المسلمين الذين عبثـــت بهـــم مكـــائد النصارى ؛ وجمـــع كلمتهم ، وردهم ردا جـــميلا إلى معينهم الصافي سبب قوتهم وسر منعتـــــهم ، كمـــا يتحتم عليه من منطلـــق هذه الرسالـــة كشف الحقائق ، وتبصير النـــاس بأمورهم وواقـــعهم ،حتى يكونـــوا على بيـــنة مما يحيط بهم .

وحتى يتسنى له الوصول إلى هذه الغاية النبيلة ، يجب على الأديب أن يكون صادقا مع نفسه مؤمنا بقضايا أمته ،وهذا ما حدى بابن حزم لإنكار الكذب على الشاعر (1) وبخاصة في المدح لأنه لو وقع لكان تزييفا للواقع يؤدي حتما إلى نتائج سلبية رزحت الأندلس تحت ويلاتها إلى أن ضاعت إلى الأبد . ولله در الشاعر حين قال مصورا ما آلت إليه بلاد الأندلس :

حثوا مطاياكم عن أرض أندلس فما المقام بها إلا من الغلط

فالثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

فهو يصور في البيت الثاني الصراعات الداخلية التي عصفت بالأندلس، والتي دارت بين الملوك والأمراء بسبب الحكم أو التوسع أو غيرهما ، في حين كان من الشعراء والأدباء من يصفق لما يرى ، وينظم القصائد المنمقة والخطب المطولة في مدح هذا بما ليس فيه ، وتأليب ذاك على آخر ، وهكذا دواليك ، هذا ما أراد ابن حزم أن لا يكون في مجتمعه ، بل قرر كغيره من النقاد الذين يشيرون على خطاه ، أن يضرب صفحا عن بعض الأغراض التي لا تخدم الأمة في شيء ، كالهجاء والغزل حتى يكون سلوكه هذا بمثابة إشارة واضحة إلى أن المبدعين قد يتمادون في انحرافاتهم ، إذا ما وجدوا الدعم والتشجيع . ومن مظاهر المجاراة تلك المختارات الأدبية التي يقدم البعض على تصنيفها ، أو استعمالها كأمثلة للشرح والإيضاح ، لهذا كله نجده يعفي مؤلفاته من الهجاء والغزل وشعر الخروب والرحلة ، وعلل لذلك بتعليلات انطلق فيها من نظرته الأخلاقية الدينية ،فهو يرى بأن فلاح الأندلس الغارقة في العبث والعشوائية ، متعلق برجوع أهلها إلى رحاب العفة والالتزام والجدية يقول : "فإن هذه الأشعار تثير النفوس ، وتهيج الطبيعة ، وتسهل على المرء موارد التلف في غير حق ، وربما أدته إلى هلاك نفسه من غير حق ، وإثارة الفتن ، وتهوين الجنايات ، والشره إلى الظلم وسفك الدماء وكذلك الحال في شعر التغرب الذي يسهل التحول ، أما شعر الهجاء فإنه يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه ، وتمزيق الأعراض وانتهاك حرم الآباء والأمهات ، وذكر العورات وفي ذلك حلول الدمار ." (2)

---

1 . رسائل ابن حزم .. تحقيق د/ إحسان عباس . ط: مكتبة الخانجي . القاهرة ص: 67

2.نفسه .

فهو بعد أن رسم حدود المقبول من الشعر الذي يدور –في رأيه – في فلك الخير والفضيلة ،لأنه أدعى لتمثل الفضائل المروية والخصال المحمودة ؛ منع أغراضا شعرية وعلل لأحكامه انطلاقا من قناعته بالآثار السلبية لهذه الأغراض ، فالغزل يصرف النفس إلى الخلاعة ، ويحفزها على اتباع الشهوات ، وشعر الحروب يدفع النفس إلى الظلم وانتشار الفتن وتفشي الثورات ، وشعر التغرب يرغب في التحول ، مما يؤدي إلى تصدع النسيج الاجتماعي من جراء عدم استقرار الأفراد ، أما الهجاء فإنه يسهل تناول الأعراض وتتبع عورات الآخرين ...

إن مجتمعا أو أمة تنتشر فيها مظاهر كهذه ، فإنها لا محالة آيلة إلى الضعف والانهيار ، لهذا حاول ابن حزم قطع الطريق ، واجتثاث جذور كل ما من شأنه أن يحول أمة كان من المفروض أن تكون سمتها الوحدة والقوة والمنعة والطهارة ، إلى أمة مفرقة متنافرة لا تراعي للدين أحكاما ولا للأخلاق احتراما . لقد أراد بناء جيل يعول عليه في حمل الرسالة المنوطة به والالتزام بها ، ولن يكون ذلك مع جيل لايصيخ إلا لشهواته ودعوات شياطين الإنس من الشعراء والأدباء .

إنه يريد أن لا يكون هناك مكان في أمة الإسلام لأدب مكشوف ، يتعدى حدود الحياء ، ولا لأدب يتغنى بالرذائل ، ولا لأدب يتطاول على أعراض الناس وتنتهك فيه عوراتهم ، باختصار يريد للأدب أن يضطلع بمهمته الحقيقية ، ويقوم بوظيفته الإصلاحية ، يريد من الأدباء أن يكونوا مشعلا ينير درب الآخرين ، فيتبعوا سبل الخير والهداية والرشاد . إن ابن حزم يطلب من الأدباء والشعراء جميعا أن يشاركوا مشاركة إيجابية في قضايا أمتهم ، لأنه لا معنى لأدب يهدف إلى التسلية ، بل فائدته فيما يعبر عنه بطريقته الجمالية المتميزة الموحية بقيم إنسانية وأخلاقية ، تسمو بالإنسان إلى درجة من الوعي بحقيقة مهمته في الحياة .

وتتردد هذه المعاني وهذا الوعي بغاية الأدب وأهدافه النفعية عند ابن شرف القيرواني (460هـ) ، فهو من أكثر النقاد المغاربة تأثرا بهذه النزعة ، فهو في مقامته النقدية المعروفة بـ" أعلام الكلام " .وإن كان طابعها الإيجاز شأنها شأن المقامات الأخرى ، إلا أنه تمكن فيها من الإحاطة بحقائق الإبداع الفني ومقتضياته ،وتمكن

أيضا من إنزال الشعراء مكانتهم الحقيقية ، منطلقا في كل ذلك من نزعته الأخلاقية التي استضاء بها في كل أحكامه النقدية ، ويتبدى انسجامه مع النقاد الأخلاقيين في رؤاهم من خلال تأكيده على نفعية الأدب ورساليته .

فبصدد حديثه عن اللفظ والمعنى يلح ضمنا على أن الشعر الجيد ما حاز الحسن من جانبيه ، فيمتع المتلقي بموسيقاه المتميزة وألفاظه المتخيرة ،ويلقي في النفس ما كانت تبحث عنه من حقائق ، وما تهفو إليه من قيم شعورية ، ويطبع في الذهن من معقول المعاني ما يساعده على الارتقاء وكشف المجهول . ولن يصل الشعر إلى غايته المثلى، إلا إذا علم الشعراء أن الألفاظ لا تراد لنفسها ،وإنما تجعل دلالة على المعاني ، فلا تكون لها مزية إلا بإيداعها معنى شريفا واضحا ، فإذا عدمت الذي يراد منها ، لم يعتد لها بالأوصاف التي تكون لها . وهذا ما ذهب إليه ابن شرف * وغيره من النقاد كابن الأثير وعبد القاهر الجرجاني وأبو هلال العسكري وغيرهم يقول ابن شرف : " ومن الشعر ما يملأ المسامع ،ويرد على السامع منه قعاقع ، فلا ترعك شماخة مبناه ، وانظر إلى ما في سكناه من معناه ، فإن كان في البيت ساكن ، فتلك المحاسن ، وإن كان خاليا فلاعدده جسما باليا ، وكذلك إذا سمعت ألفاظا مستعملة وكلمات مبتذلة فلا تعجل باستضعافها ، حتى ترى ما في أضعافها ، فكم من معنى عجيب في لفظ غريب،والمعاني هي الأرواح ، والألفاظ هي الأشباح ، فإن حسنا فذلك الحظ الممدوح ."(1)

إن ابن شرف في هذا النص يلح على أهمية الشكل والمضمون من جهة ، وعلى الوحدة العضوية حين اعتبر المعاني أرواحا والألفاظ أشباحا ؛ وظهر ميله إلى المضامين ، وهذا ملمح خاص عند النقاد الملتزمين فلا يهمهم أمر الألفاظ ، فقد تحمل الكلمة المبتذلة المستعملة معانيَ تنفع وتفيد ، وهذا ما أكد عليه ناقدنا الذي نحن بصدد الوقوف على آرائه النقدية .

---

* للتعرف على أهم ما يميز حياة ابن شرف إلى وفاته ، انظر ابن شرف القيرواني. د/ طه الحاجري . دار النهضة .بيروت . 1973 .

1 .أعلام الكلام . ط1 : مطبعة النهضة القاهرة 1926. ص: 37-38 .

ولا يفهم من هذا الكلام أنه وغيره من النقاد الأخلاقيين لا يعيرون أهمية للشكل ، فالعكس هو الصحيح ، لأن المعاني لا يرسخ معقولها في الأفئدة إلا بعد أن تخرق الألفاظ قراطيس الأسماع ، فالشاعر أو الأديب يحتاج لإصابة المعنى وبلوغه ، تحسين اللفظ وتخيره ، وإلا فما الفرق بين الشعر أو النثر وغيرهما من الأساليب الكلامية . إن الشعر يكتسب قوته من طريقته المتميزة وخصائصه التي تفرد بها ، وليس من المعقول أن يطلب النقاد الإصابة في المعنى وغض الطرف في المقابل عن الخصائص الشعرية ، لأن شرف المعنى ونبل المشاعر لا يكفيان لإنتاج فن نبيل ، ولا غنى لنا عن طاقة وأداة مخصبة يمكن بها الاقتدار على الإيحاء الفني الذي يهب للفن أصالته وجدوى بقائه .

وكشيء طبيعي من ناقد يحاول القضاء على العبث والعشوائية ، وقف موقفا صارما مع بعض الشعراء الذين عرفوا باقتصارهم على أغراض تحفها التهمة الأخلاقية كالغزل مثلا ، فهو يقول عن بعضهم : " وأما القيسان وطبقتهما ؛ فطبقة عشقة توقة ، استحوذت الصبابة على أفكارهم واستفرغت دواعي الحب معاني أشعارهم ، فكلهم مشغول بهواه لايتعداه إلى سواه ." (1)

ونحس عند قراءة هذا الكلام استنكاره على هؤلاء ، تقوقعهم على ذواتهم وانعزالهم الناس والاكتفاء بتهويمات تتردد عند هذا وذاك ، وكأنه يقول لهم ولأمثالهم أفيقوا مما أنتم فيه ، والتفتوا إلى الحياة فهي أوسع من أن تحصر في نفق مظلم كهذا ، وشاركوا أمتكم وأهلكم وإخوانكم ، وقاسموهم الأفراح والأتراح ، وإذا ضلوا فأنيروا لهم دروب الحياة وسبل الفلاح.

وبذكر الغزل تنصرف الأذهان مباشرة إلى أبي نواس وامرئ القيس رمزا المجون والتعهر ، وقد خصهما ابن شرف بوقفة حاول فيها إطلاعنا على بعض السقطات التي وقعا فيها . ففي معرض حديثه عن امرئ القيس أورد له أبياتا يقول فيها :

سموت إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالا على حال

---

1 . الذخيرة . ق4 / م1 . ص: 204 .

فقالت لحـــاك الله إنك فاضحي ألست ترى السمار والنـــاس أحوالي

حلفت لها بالله حلفـــة فاجـــر لناموا فما إن حديث ولا صـــــال

وعقب عليها قائلا :

فأخبرها أنه هين القدر عند النساء وعند نفسه برضاه قولها لحاك الله . فحصل على لك الويلات من تلك وعلى لحاك الله من هذه ، فشهد على نفسه أنه مكروه مطرود غير مرغوب في مواصلته ، ولا محـــروص على معاشرته ولا مرضي بمشاكلته ، ثم أخبر عن نفسه أنه يرضى بالخبث والفجور ، وهذه أخلاق لاخلاق لها ثم أقر في مكان آخر من شعره بما يكتمه الأحرار ، ولا ينم بقبحه إلا الأوضاع الأشرار فقال :

ولما دنوت تسديتهـــا فثوب لبست وثوب أجـــر

وأي فجور في الإقرار بالفضيحة على نفسه وعلى حسبه ، وأين هذا من قول يعقوب الخريمي :

ولا أسأل الولدان عن وجه جـــارتي بعيدا ولا أرعـــاه وهو قريب (1)

إن ابن شرف ينعى على امرئ القيس تعهره وفجوره وبجونه ، وعدم التستر على نفسه ، فزاد في قبـح أفعاله وأخلاقه تشهيره بها ؛ ومهما كانت الدوافع فالنتيجة واحدة ، وهي إشاعة الفاحشة وتزيـــين أخـــلاق العابثين الذين لا يراعون للدين احتراما ولا يقيمون للأخلاق وزنا . وعمل كهذا يغري العامة بتمثلـــها ، لأن النفس في انحدارها إلى شهواتها ونزواتها لايكبح جماحها إلا الدين أو الأخلاق ، وتعلق النفس بهما تعتريـــه لحظات من القوة والضعف ، وإذا صادفت أشعار كهذه نفسًا خائرة القوى ضعيفة العزيمة قد تؤديها إلى مـــا فيها هلكتها ، فالأَولى بالشاعر أن يغرس معاني العفة والطهارة وصيانة العرض ،كما فعل يعقوب الخريمـــي في البيت الذي استحسنه ابن شرف واختاره ؛. أما أبو نواس فقد عاب عليه أمرين : خروجـــه عـــن المـــألوف المتعارف عليه في النظم ، وخوضه فيما يحرمه الدين وتمنعه الأخلاق ، واستخفافه بمشاعر الناس والعامة منـــهم على وجه الخصوص يقول عنه : " وأما أبو نواس فأول الناس في خرم القياس ، وذلك أنه ترك السيرة الأولى

---

1. أعلام الكلام . ص: 30.

ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ... وترك الدعائم وبنى على الطامي والعائم." (1)

ثم يعلل سبب شهرته وانسياق من انساق وراءه من الناس : " والعوام تختار هذه الأعلاق ، وأسواقهم أوسع الأسواق ، فشعر أبي نواس فائق عند هذه الأجناس كاسد عند أنقد الناس ... وهو مجدود في كثرة التظاهر على مَن غضَّ منه بالحق الظاهر ، ليس إلا لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون على جمهور العوام لا على خصائص الأنام ." (2)

فمظاهر الانحراف الخلقي ، والاستهتار بأمور الدين بادية في شعر أبي نواس ، لذا فشعره كاسد عند ابن شرف والخاصة من النقاد ، لأن بعضهم يرى أن الشعر لم يؤسس بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ، و لم يقر بصبوة و لم يرخص في هفوة ، ومنهم من جارى الناس في اندفاعهم واحتفائهم بأشعار شعراء عرفوا بتعهرهم وقذعهم وتناولهم الأعراض ؛ واعتبروا ذلك دليلا على شاعريتهم وتقدمهم على غيرهم ، وهذا لَعَمري حكم لايصدر إلا من إمعة يقول إذا أحسن الناس أحسنت ، وإذا أساءوا أسأت ، ويصعب تصور صدوره من ناقد كابن المعتز مثلا .

لقد قيم ابن شرف شعر أبي نواس انطلاقا من وجهة نظره الأخلاقية ، و لم يؤثر فيه شبه الإجماع الذي حصل بين النقاد الفنيين حوله ، وكذا الاستحسان الذي وجده من العامة ؛ والحقيقة أن دور الناقد الرسالي هو الكشف عن مظاهر الانحراف والزيف والعبثية في الأعمال الأدبية ، لأن المبدع في حد ذاته قد تحيط به ملابسات معينة تؤدي به إلى مزالق قد لايتفطن إليها ، وهنا يأتي دور الناقد اليقظ للحيلولة دون كل ما من شأنه أن يكون سببا للطعن في الأدب ومكانته وقدرته على اصطناع الوسائل المثلى للارتقاء بالمجتمع خلقيا وتعريفه بما هو مطالب به في هذه الحياة .

---

1 . الذخيرة ق4/م1. ص: 205

2 . نفسه .

لقد رفض ابن شرف كما رفض ابن حزم أثناء دراسته قضية الحب وصداها في النصوص الشعرية ، بَوح الشعراء بمغامراتهم المنحرفة ، وفحشهم وبذاءتهم في التعبير عنها ؛ وحاول معالجة المسألة معالجة نفسية خلقية لفهم الدوافع والوقوف بعد ذلك على أن الظاهرة لا تعدو أن تكون مرضا نفسيا ، قبل أن تكون انحرافا أخلاقيا ، وعمل كهذا يمكن من خلاله تنفير الشعراء وإبعادهم عن الغوص فيما يحط من أقدارهم ، ويطعن في شخصهم ، ويورط غيرهم .

لقد نجح ابن شرف من خلال معالجاته النفسية للمعاني الغزلية في إصابة الهدف الأخلاقي فتداخلت الغايتان لتحديد المسار الذي ينبغي على من يخوض في الغزل التقيد به .

و لم يجد ابن شرف محيصاً من استنكار جنوح بعض الشعراء – كابن هانئ الأندلسي – إلى العبث بالدين وتقاليد المسلمين فيقول : " ... رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد أخراه ، لرداءة عقله ورقة دينه وضعف يقينه ، ولو عقل لم تضق عليه المعاني حتى يستعين عليها بالكفر ." (1)

فهو هنا يقف موقفا لعله يكون رد فعل للدعوات النقدية التي ترددت في المشرق ، والتي ترى أن الشعر إذا أدخل في باب الخير ضعف ولان ، وشاعرية الشاعر لايمكن لها أن تظهر إلا في أبواب الفساد والكفر وكأن الشعر بني عليهما ولن يجد الشاعر حريته إلا فيهما ؛ وموقفه هذا قد يكون أيضا مما سمعه من أشعار تحمل معاني لايرتضيها الدين ولا الأخلاق توحي بالخسارة الأخروية لقاء عرض دنيوي زائل ؛ أما الشاعر الذي أثار استحسانه من القدامى فهو البحتري ، يقول معللا سبب تقدمه : " أما البحتري فلفظه ماء ثجاج ودر رجراج ومعناه سراج وهاج علىأهدى منهاج ، يسبقه شعره إلى ما يجيش به صدره ، يسر مراد ولين قياد ، إن شربته أرواك ، وإن قدحته أوراك ، طبع لاتكلف فيه ." (2)

إن ابن شرف يرمي إلى أن يكون مضمون الأدب تربويا ، لذلك نجده في تعليله لحكمه النقدي المتعلق بالبحتري يركز على كل عناصر الشعر ، سعيا منه لإثراء حصيلة المتلقين اللغوية من خلال مادة اللغة

---

1 . أعلام الكلام . ص: 26.

2 . الذخيرة . ق4/م1 .207. وأعلام الكلام . ص: 23.

واستعمالاتها البارعة من طرف الشعراء المجيدين كالبحتري حسبه ، وكذا القيم المعنوية الـــتي تعـــود بـــالنفع والفائدة .

وإمعانا منه في التأكيد على الرسالة التربوية للأدب ، نفر من التكلف لأنه يقود إلى الكذب . ومكانة الأديـــب مرتبطة بأصالته الفنية وهذه الأخيرة لا يمكن تحققها إلا مع الصدق ، فالأديب المقتدر الصادق فنيا وخلقيا ، هو وحده القادر على أداء رسالة الأدب * لأنه الأقدر على الوصول إلى درجة التأثير في المتلقـــين مـــن خـــلال المشاركة الإيجابية في قضايا الإنسان والمجتمع .

وانطلاقا من هذا المفهوم نجد أغلب النقاد على استنكار التكلف والكذب وذم أصحابه ، وحملهم على التقيد بما تطفح به نفوسهم في عفوية تفرضها إثارة الموقف أو التجربة . وهذا لايعني منع تعلم أدوات الشـــعر والكتابة الفنية ، فبالعكس فلا مناص من هذه الأدوات ، لأنها وسيلة لإخصاب المعاني المعالجة ، وتقديمها تقديما متميزا يمتع ويفيد في آن واحد .

وهذا في اعتقادي ما لم يغب عن فكر ابن شرف . فقد التزم هذه المعاني في نشاطه النقدي وفي إبداعه الشعري ، ويكفي هنا إيراد قصة لعلها تؤكد منهجه ونزعته .

فبعد وفاة قاضي القيروان ابن هاشم ، رشح لهذا المنصب أحد أبنائه ، و لم يقع هذا الترشـــيح موقـــع الرضى به والتسليم له ، بل أثار في الجو ألوانا من القيل والقال ، إذ كان الناس مختلفين في أمر ذلك المرشـــح ، منهم من كان ينظر إليه من خلال نظرته إلى أبيه ، وقد كان أبوه رجلا جليل القدر علما وترفعا ونزاهة ونفـاذ بصر ، فوجد في ترشيح الابن رعاية لذكرى الأب ، دون اعتبار لمبلغ كفايته لما يراد له ، وجدارته بأن يخلـــف أباه ، ومنهم من لم يخضع لهذا الاعتبار ، ورأى أمر القضاء أجلّ من أن يحكم فيه مثل هذا الهوى ، فيســـند إلى من هو معروف بالقصور عنه ،وكان ابن شرف أشد الناس إنكارا لولايته لتخلف الرأي وسوء الرأي منه

---

*" لاوجود لفلسفة فنية ذات قيمة تفصل بين العمل الفني والصدق " – النقد الأدبي الحديث – د: محمد غنيمي هـــلال .

فاعتزم أن يتلطف ليبلغ الأمير ما يراه وما يتهامس الناس به . قال : فاستخرت الله تعالى وأفردت النية لابتغاء وجهه ، فجعلت شعرا أمدح به السلطان ، وأغالطه فيما شاء من توليته ، فلما كان ليلة اجتماع الناس لحضور توليته . استأذنت على السلطان في إنشاد ذلك ، فأنشده على خلوة منه :

لله من يوم أغر سعيـــد متميز من عصره ممـــدود

قال ابن شرف : فأنشدته حتى بلغت إلى قولي :

كان القضاء إراثة فرددته شـــورى ففاز بحقه المردود

يافضلها من سيرة عمرية هي للعباد رضى وللمعبـــود

فلما بلغت في الإنشاد إلى هذا الموضع ، أكب السلطان على يده وقد قبضها كالمُطرِق ، والمفاجـأ بـأمر إلى الفكرة فيه .

وبهذا استطاع ابن شرف أن يتوسل بشعره في مدح السلطان ، إلى أن يثير تفكيره فيما كان قـرره وأن يوجه نظره إلى ما ينبغي أن يكون الرأي فيه ، وأن يحمل إليه ما يتردد بين الناس في أمره ، فلم يلبـث أن رأى فيه ما كان غمض عليه أو غاب عنه ، فعدل عما كان أزمعه واتجه إلى تولية الرجل الذي كان يرشحه جمهور الناس وخاصتهم ، ابن أبي زيد ، وحقق بذلك ما أوحى به ابن شرف ، فقد تسنى له أن ينقل بشعره إلى الأمير رسالة الجمهور التي كانوا يودونها ويضمرونها من غير أن تكون لهم الوسيلة لأدائها فيما يتعلق بمن يريـدون أن تسند إليه هذه المهمة (1).

ولعلنا في نهاية المطاف يمكننا أن نؤكد بأن نمط التنشئة والجانب المعرفي والتكوين العلمي الذي يجمـع بين علوم الدين واللغة والأدب ، إضافة إلى الملابسات السياسية والظروف الاجتماعية التي شـهدها المغـرب والأندلس ، حددت جميعها الاتجاه النقدي لابن شرف وغيره من نقاد هذا الجزء من العالم الإسلامي ، هـذا الفكر النقدي الذي يهدف إلى جعل الأدب وسيلة ذات أهداف نفعية وغايات أخلاقية ، وفي هذا الإطار

---

1 .الموقوف على تفاصيل هذه القصة ، انظر ابن شرف القيرواني. د /محمد طه الحاجري . ص: 41-42 . فقد أوردها أثناء حديثه عن المرحلة التي قضاها ابن شرف في بلاط المعز بن باديس .

تحركت جهود أغلب النقاد في البيئة المغربية وعلى ضوئه صدرت أفكارهم .

ومن هؤلاء معاصر ابن شرف ، أبو علي الحسن بن رشيق (ت 456هـ) الذي وضع كتابا قيما سماه " العمدة في محاسن الشعر وآدابه " وهو كتاب " جمع أحسن ما قاله كل واحد من صنف في معاني الشعر ومحاسنه وآدابه ، وعول مؤلفه فيه على قريحة نفسه ونتيجة خاطره خوف التكرار ورجاء الاختصار ، إلا ما تعلق بالخبر وضبطته الرواية ، فإنه لم يغير شيئا من لفظه ولا معناه ، ليؤتى بالأمر على وجهه ." (1)

وعنوان الكتاب يدل على مضمونه ، فقد خصه بدراسة ومعالجة كل ما له علاقة بالشعر ، إذ طرق تقريبا كل القضايا التي عولجت قبله وفي عصره ، ومنهج الكتاب لخصه في الطريقة التي ألمحنا إليها قبل أسطر في كلمته ، فهو يورد آراء غيره في المسألة التي يتناولها ويخلص إلى رأي تميل إليه نفسه ، ولعل قيمة الكتاب تكمن في احتفاظه بآراء النقاد وجمعها ، وكذا في طريقة التأليف والمعالجة وإضافاته المهمة التي تلخص رؤيته وتصوُّره لهذا الفن التعبيري المهم .

وإمعانا منه في تأكيد وتجذير المنحى الأخلاقي ؛ وسعيا منه لمعالجة الصدع النفسي العميق الذي أصاب الأمة ، جراء التشتت السياسي والصراع المسيحي الإسلامي ؛ حاول وضع الأسس التي تضبط حركة الأدب والشعر على وجه الخصوص ، فهو يرى بأن الشاعر فرد رسالي في المجتمع ، وحتى يقوم بهذه الرسالة يتحتم عليه الاتصاف بصفات أخلاقية في نفسه أولا ، يقول : " من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل ، حسن الأخلاق ، طلق الوجه ، بعيد الغور ، مأمون الجانب ، سهل الناحية ، وطئ الأكناف ، فإن ذلك مما يحببه إلى الناس ، ويزينه في عيونهم ، ويقربه من قلوبهم ، وليكن مع ذلك شريف النفس ، لطيف الحس ، عزوف الهمة ، نظيف البزة ، أنفا ، لتهابه العامة ويدخل في جملة الخاصة ، فلا تمجه أبصارهم ، سمح اليدين ، وإلا فهو كما قال ابن أبي فنن واسمه أحمد :

وإن أحق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل . " (2)

---

1 . العمدة ط: دار الجيل بيروت ط5 . 1981. ج1 ص:16-17.

2. السابق .ج1 . ص: 196.

فليس من هب ودب يمكنه أداء هذه الرسالة ، ولعل الدافع الذي حدا بابن رشيق لقول هذا الكلام وتحديد هذه المواصفات ، وجود نماذج من الشعراء لم تراع و لم تع هذه الحقيقة ، فاستعملت الشعر للتزلف والتملق والكذب والتكسب دون مراعاة لما يفترض أن يقوموا به من وظائف اجتماعية ، ولا يتصور صدور شعر صادق نافع من نفس خبيثة شيمتها النفاق وسوء الأخلاق .

وإذا كان الشاعر عند ابن رشيق مطالبا بأن يكون بتلك المواصفات ، فعليه أيضا أن يتزود بما يحتاجه الشعر من مواد الثقافة وأسرار النظم لأن الشعر صناعة وثقافة . يقول : " والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله كل ما حمل : من نحو ولغة وفقه وخبر وحساب وفريضة ..." (1) وينقل عن ابن سلام الجمحي: "وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات." (2)

وإدراك ابن رشيق لهذه الحقيقة مما لايتطرق إليه الشك فهو قبل أن يكون ناقدا فهو شاعر ، وهذا ما أسعفه في كثير من المواقف التي توحي بفهم ودراية ووعي بحقيقة الإبداع الشعري ، فهو مثلا يؤكد ارتباط اللفظ بالمعنى ويضفي على نظرته مسحة فلسفية لتقريب المسألة للأفهام فيقول : " اللفظ جسم وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصا للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور ، وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح . وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ ، وجريه فيه على غير الواجب قياسا على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتا لافائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين ، إلا أنه لاينتفع به ولا يفيد فائدة ، وكذلك إن اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصبح له معنى ، لأنا لانجد روحا في غير جسم

---

1 . العمدة . ج1 ص: 196.

2 .العمدة . ج1 ص: 118.

البتة ."(1)

فهو يرى أن العلاقة متلازمة ولصيقة بين اللفظ والمعنى ولا يتصور وجود اللفظ لوحده والمعنى لوحده لأن المعاني لها ما يلابسها مما يخرجها من الخفاء إلى الجلاء ، كما يرى أن المعنى هو عماد اللفظ واللفظ هو زينة المعنى لأنه لو اختل المعنى وفسد بقي اللفظ بدون فائدة وإن كان حسنا في السمع ، فهو يلمح بضرورة تخـــير الألفاظ وتنقيحها لأن الشعر يؤدي مهمتين متداخلتين ، إحداهما الإمتاع وثانيهما الإفهام والإفـــادة ، وهـــذا الأخير لا يشفع استعمال الرديء من الألفاظ لأنها تسيء إلى ميزة الشعر الفنية أولا كما أنها سبب في ضعـــف المعنى واضطرابه ثانيا ، إن هذا النص يكشف ميل ابن رشيق إلى المعاني ، فهو وإن كان يشيد بمكانة اللفـــــظ في العمل الشعري إلا أنه يجعله وكأنه خادم للمعنى ، والمخدوم أشرف من الخادم بدون شك .

لذا نجده شديد اللهجة مع بعض من انتصروا للفظ فيقول : " وفرقة أصحاب جلبة وقعقعة بلا طـــائل معنى ...كأبي القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه فإنه يقول :

أصاخت فقالت وقع أجردَ شيظـــم وشامت فقالت : لمع أبيضَ مخـــذم*

وما ذعـــرت إلا لجـــرس حليـــها ولا رمقت إلا بـــرىً في مـــخدَّم

ويعقب على هذه الأبيات :

وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد ، ما الذي يفيدنا أن تكون هذه المنسوب بها لبســـت حليـــها فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف ؟ غير أنها مغزوة في دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتـــها ، و لم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه فما هذا كله ."(2)

لقد أثارت تعجبه هذه الجلبة والقعقعة الفارغة والتي لاتنفع ولا تفيد ، إذن ما الذي يريده من الشـــعر وما هو أحسنه في رأيه ؟ .

---

1 . العمدة . ج1 ص:124.

2 العمدة . ج1 ص:124-125.

* شيظـــم : طويل الجسم ، الأجرد .: الفرس القصير الشعر . مخـــذم : السيف القاطع . مخدَّم :محل الخلخال .

يمكننا الوقوف على الإجابة عن هذا التساؤل من خلال حديثه عن أنواع الشعر . فقد تنبه إلى خطر هذا الإسفاف ، فأشاد بالشعر بمقدار ما فيه من قيم خلقية وفوائد سلوكية وتربوية . ويظهر هذا في تقسيماته الشبيهة بتقسيمات ابن قتيبة : " الشعر أربعة أصناف : فشعر هو خير كله ، وذلك ماكان في باب الزهد والمواعظ الحسنة والمثل العائد على من تمثل به بالخير وما أشبه ذلك ، وشعر هو ظرف كله ،وذلك القول في الأوصاف والنعوت والتشبيه وما يفتن به من المعاني والأداب ، وشعر هو شر كله وذلك الهجاء وما تسرع به الشاعر إلى أعراض الناس، وشعر يتكسب به وذلك أن يحمل إلى كل سوق ما ينفق فيها ، ويخاطب كل إنسان من حيث هو ، ويأتي إليه من جهة فهمه ." (1)

ويفهم من هذا النص أن الشعر المستحسن عند ابن رشيق ، هو ما انطوى على الخير ودعا إليه وكان وسيلة لتهذيب النفوس وإرشادها إلى ما فيه فلاحها .

أما الشعر القبيح عنده فمثاله الهجاء ، لأن فيه تنتهك الحرمات وتنال الأعراض وكفى بالمرء شرا أن يتطاول على الناس وينالهم بالسباب والأذى ، فشعر كهذا استحق من ابن رشيق أن يصفه بكونه أقبح أضرب الشعر وأحطها مترلة ، وبين هاتين المترلتين يأتي النوع الثالث وهو الذي يقصد منه الإمتاع والتظرف فهو لايرتقي إلى الضرب الأول كما أنه لا يترل إلى النوع الثاني ، أما الضرب الرابع فهو شعر التكسب ، وكنا ننتظر من ابن رشيق حكما واضحا على شعر التكسب الذي يعمد فيه أصحابه إلى المدح .

إن شرحه لطريقة الشعراء في نظم التكسب يوحي بعدم اكتراث ابن رشيق بالواقع الذي هم عليه هؤلاء ، وهو مخاطبة كل إنسان من حيث هو ، وإتيانه من وجهة فهمه ، والأصل في المدح كما رأينا عند النقاد الأخلاقيين هو مدح الرجال بما فيهم من الصفات الحميدة ، لا بما يناسب مكانتهم .

ولعل وضع شعر التكسب بعد الهجاء ، إشارة من ابن رشيق إلى سلبيته ، ففيه يركب الشعراء كل مركب ، من ملق وتزلف وكذب وقلب للحقائق ، من أجل نيل الحظوة والحصول على ما يهدفون إليه ، فهو

---

1 . العمدة . ج1 ص: 118.

يمقت هذا الواقع وقد عبر عنه قائـــلا : (1)

مما يبغضني في أرض أندلـــس سماع مقتدر فيها ومعتضـــد

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

وواضح من هذين البيتين أن ابن رشيق يريد أن تسمى الأمور بمسمياتها ، وأن يصور الواقع تصويرا صادقـــا لا تزييف فيه . لذا نجده يعجب بما قاله قدامة بن جعفر ، وينقل عنه قوله : " لما كانت فضائل الناس من حيـــث هم ناس ، لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوانات على ما عليه أهل الألباب من الاتفاق في ذلك إنما هي العقل والعفة والعدل والشجاعة ، القاصد للمدح بهذه الأربعة مصيبا وبما سواها مخطئا .

ويستحسن من زهير قوله :

أخي ثقة لايهلك الخمر مـــاله ولكنه قد يهلك المالَ نائلـــه

لأنه وصفه بالعفة لقلة إمعانه في اللذات وأنه لا ينفذ فيها ماله ، وبالسخاء لإهلاكه ماله في النوال وانحرافـه إلى ذلك عن اللذات وذلك هو العقل .

ثم قال : تراه إذا ما جئته متهلـــلا كأنك تعطيه الذي أنت سائله

أراد أن فرحه بما يعطي أكثر من فرحه بما يأخذ ، فزاد في وصف السخاء منه ، بأن جعله يهش ، ولا يلحقـــه مضض ، ولا تَكَرُّه لفعله ..." (2)

ونستخلص من كل ما تقدم، أن ابن رشيق يريد للمدح أن يكون بالصفات الخُلُقية للممـــدوح ، لا بصفاته الجسدية . ولكنه وقع في مزلق أوصله إليه تردده بخصوص ما هو عليه الممدوح من الصفات ، فكـــان ينقصه إضافة مهمة تردد صداها أثناء حديثه عن الفخر ، وهي أن المدح إنما ينبغي أن يكون بالفضـــائل الـــتي يتحلى بها الممدوح فعلا ، لا بإسباغها من هو مجرد منها إكراما لمكانته ومراعاة لمنزلته . وهذا هو عين ما أشار

---

1 .الذخيرة . ق4/م1 ص: 172 .

2 .العمدة . ج2 ص: 131 .

إليه في البيتين السابقين ، وسبب اختياره لبيتين قالهما المتوكل الليثي : (1)

وإنا وإن أحسابنا كرمـــت لسنا على الأحساب نتكـــل

نبـــني كما كانت أوائلـــنا تبني ، ونفعل مثل مـــا فعلوا

فالمدح الجيد والفخر الصائب هو الذي يترجم حقيقة الحالة السلوكية ، ويعبر عن واقـــع الممـــدوح وخصال المفتخر ، حتى يكون ذلك أدعى لتمثلها من طرف المتلقين .

وسيرا على المنهج الذي اختطه لنفسه فقد التزم موقف النبي – صلى الله عليه وسلم- وعمر –رضـــي الله عنه- من الهجاء وراح يذكر بعقوبة الإسلام على الهجاء ، فأورد حديثا للرسول – صلى الله عليه وسلم – يقول فيه :"من قال في الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر "كما ذكّر بقصة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه – مع الحطيئة عند إطلاق سراحه من حبسه الذي كان سببه شجاؤه الزبرقان بن بدر ،إلا أنه لم يقف موقف ابـــن بسام والقالي القاضي بإعفاء كتابيهما من شعر الهجاء ، بل حاول وضع ضوابط تقيده وقد لخـــص رأيـــه في الهجاء قائلا : " وأجود ما في الهجاء أن يسلب الإنسان الفضائل النفسية ، وما تركب من بعضها مع بعـــض فأما ما كان في الخِلقة الجسمية من المعايب فالهجاء به دون ما تقدم ،وقدامة لايراه هجوا البتة ، وكذلك مـــا جاء من قبل الآباء والأمهات من النقص والفساد لايراه عيبا . ولا يعد الهجو به صوابا ، والناس – إلا مـــن لا يعد قلة – على خلاف رأيه ، وكذلك يوجد في الطباع وقد جاء ما أكد ذلك من أحكام الشريعة. " (2)

فالهجاء المستحسن هو الخالي من الفحش والبذاءة ، الهجاء الذي يعمد فيـــه الشـــاعر إلى التعريـــض ويتجنب التصريح ، الهجاء الذي يكون الغرض منه استقباح الأخلاق التي يتحرى الناس في عدم الاتصاف بها ، الهجاء الذي لايسعى إلا لأهداف تربوية .

ويروي عن أبي عمرو بن العلاء قوله : " خير الهجاء ما تنشده العذراء في خذرها فلا يقبح بمثلها "(3)

---

1 . العمدة . ج2 ص: 146 .

2. العمدة . ج2 ص: 174 .

3. العمدة . ج2 ص: 170 .

وهذا سر اختيار ابن رشيق هذه الأبيات من هجاء ربيعة بن عبد الرحمن الرقي: (1)

لشتان ما بين اليزيدين في النـــدى يزيد سليم والأغر ابن حـــاتم

فهمٌّ الفتى الأزدي إتلاف مالـــه وهمٌّ الفتى القيسي جمع الدراهم

فلا يحسب التمتام أني هجوته ولكنني فضلت أهل المكـــارم

فهذه الأبيات تعد نموذجا للهجاء الذي يرتضيه ابن رشيق ، لخلوه من الفحش والسباب والتطاول على حـــرم الآباء والأمهات ، إضافة إلى أنه مبني على استقباح صفات أخلاقية في المهجو أو بالأحرى المفضول .

من خلال النصوص التي تناولناها ، وكذا النماذج الشعرية التي أوردها واستحسنها ابن رشيق يمكننـــا أن نلمـــس أمرين :

أولهمـــا : إلحاحه على خصوصية الشعر كفن كلامي متميز – يجب الإعداد له بالاطلاع والتمكـــن من كل ما لايتصور وجود الشعر بدونه ، فعلى الشاعر أن يلم بأطراف الثقافة ، من لغة وغيرها لأن الشـــعر صناعة لغوية تحتاج إلى دراية واسعة بأسرارها ، كما تحتاج إلى إحاطة بكل ما تعج به الحياة ، وعالم الفكـــر والاجتماع والسياسة ، لأن الزخرفة اللفظية والتلاعب على مستوى الشكل لايغفلنا حسب ابن رشيق عمـــا تنطوي عليه من معاني ، لأنها لو اختلت وفسدت بقي اللفظ مواتا لافائدة فيه ، فالعبرة دائما حسب ابن رشيق بما يعالجه الشاعر من معاني و ما ينقله من تجارب .

وثاني هذين الأمرين : تركيزه على المبدع نفسه ، ولعل تجربة ابن رشيق الشعرية هي التي أوقفته علـــى حقيقة يمكن استخلاصها من كلامه ، وهي أن الفن الأصيل لايمكن أن ينتجه إلا مبدع أصيل، يجمع الموهبـــة وصفات الرجل الرسالي المتزن الصادق مع نفسه الأمين مع أمته ، والمقتدر على صناعة الشعر ، ولعله أيضـــا كان مدفوعا من قناعته بالوظيفة الاجتماعية للشعر . وهذا ما حدا بابن رشيق لاشتراط تلـــك الصفـــات في الشاعر ، لأن القائم بهذه الوظيفة يمكننا وصفه بكونه مصلحا ، والمصلح لن يصل إلى نتيجة إلا إذا تمثل ما يزينه

---

1 . العمدة . ج1 . ص: 173 .

ويدعو إليه ، وابتعد عما يستهجنه ويقبحه . كل ذلك من شأنه أن يكون أدعى للتأثير في المتلقين ، وتغيير سلوكهم نحو الأحسن .

وكخلاصة لكلامنا فإن اتجاه الفكر النقدي في هذا الجزء من العالم الإسلامي قد اتسم بالسمة الأخلاقية ، واصطبغ بصبغتها ، حيث صدر جُلُّ النقاد تقريبا في أحكامهم النقدية من هذه النزعة ، على خلاف نقاد المشرق العربي كما رأينا ، فقد سجلنا تذبذبا في الفكر النقدي في البيئة المشرقية ، حيث وجد من يؤكد علاقة الأدب بالأخلاق ، ووجد في المقابل من يتسامح في عدم التأكيد على هذه العلاقة ، بل ورأى أن الشاعر على وجه الخصوص لايمكنه الإبداع إلا بالتحلل من كل شيء ، وعلل لذلك بأن الشعر بابه الشر وإذا أدخل في غير هذا الباب فسد وضعف ولان .

إلا أن البيئة المغربية تفردت بهذه الميزة على مستوى النقد ، حيث وقف النقاد مستجيبين للمؤثر الديني والأخلاقي ودعوا المبدعين إلى تكريس إبداعاتهم لدعم الحركة الإصلاحية ، الساعية إلى إبعاد المجتمع عن كل مظاهر الانحلال والتفسخ والزيف والأنانية ونضوب خوالج النخوة والمروءة .

وإذا كان لذلك التذبذب الذي رأيناه في البيئة المشرقية أسبابه وظروفه ودوافعه ، فإن التفاف النقاد حول الدعوة الآخلاقية ، وتقييم الإبداعات على أساس منها له بدوره أسبابه ودوافعه . ويمكننا تلخيصها فيما يلي :

-الطبيعة الفكرية لنقاد البيئة المغربية ؛ حيث أن جلهم ذوو ثقافة دينية إذ نجد منهم الفقهاء وعلماء العقيدة ، وكان لهم تأثير مباشر في تحفظ الأندلسيين من بعض الدعوات المشبوهة التي ظهرت في المشرق ، قلت جَمعُ النقاد بين الثقافة الأدبية والدينية حدا بهم تلقائيا إلى السير في منحى واحد، وهو سعيهم إلى توجيه الأدباء والشعراء للابتعاد عن الأغراض والمضامين التي تثير الريبة الدينية والأخلاقية والتي عادة ما تعود بالسلب على المجتمع كالهجاء والغزل ، وطلبوا منهم في المقابل الاضطلاع بمهمتهم الحقيقية والمتمثلة في تسخير إبداعاتهم لما فيه خيرهم ، وخير أمتهم في أمر دنياها وأخراها .

وإذا كانت جهود النقاد مست المبدع والإبداع فقد قصد النقاد ببعضها المتلقي من خلال محاولاتهم رفد الذوق الأدبي والسمو به حتى تتكامل حلقة التأثر والتأثير ولا يبقى بعدها مجال لأدبٍ ساقط ، ولا لأدبٍ يقصد منه التسلي والتطاول على الأخرين ونشر بذور الفتنة والفساد بين أفراد المجتمع .

ولعلنا نفهم الآن سبب إعراض بعض النقاد عن تناول بعض الأغراض كالهجاء والغزل وإعفاء كتبهم منها من أمثال القالي وابن بسام ، فهذا السلوك في الحقيقة يهدف إلى الوصول لغاية بعيدة ، وهي تهذيب الذوق العام بصرفه عمَّا يؤثر في توازنه وانسجامه وثباته .

وهذه مرحلة لو تحققت لكان لها أكبر الأثر في تحديد نمط الإبداعات الأدبية . ومع ذلك فقد كان لهذه المجهودات أثر على الساحة الأدبية ، حيث نجد من الشعراء من ابتعد عن الهجاء كابن خفاجة مثلا ، كما كبحت جماح غيره من الشعراء فاقتصدوا في تجاوزاتهم و لم يسرفوا .

قلت دعوة النقاد المغاربة الإصلاحية وتأكيدهم على رسالة الأدب الإنسانية ووظيفته الأخلاقية ، كانت في جانب منها نتيجةَ طبيعيةِ تنشئتهم وتكوينهم الديني .

ولعل أوضح دليل على ذلك هو تعقيبهم على الأحكام النقدية بالآثار المترتبة عن المضامين المنحرفة دنيويا وأخرويا ، وهذا ملمح وجدناه تقريبا عند كل النقاد ، ومنهم ابن بسام وابن حزم ، فهذا الأخير مثلا وأثناء دراسته قضية الحب وصداها في النصوص الشعرية ، أكد على فضيلة التعفف وراح يقوي عزائم الناس ويعلي هممهم بقوله : " ومن أفضل ما يأتيه الإنسان في حبه التعفف وترك ركوب المعصية والفاحشة ، وألاَّيرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة ، وألا يعصي مولاه المتفضل عليه ، الذي جعل له مكانا وأهلا لأمره ونهيه ، وأرسل إليه رسله ، وجعل كلامه ثابتا لديه ، عناية منه بنا وإحسانا إلينا ، وإن هام قلبه ، وشغل باله ، واشتد شوقه ، وعظم وجده ، ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقله وأن يقهر دينه ، ثم أقام العدل لنفسه حصنا ، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء

وذكرها بعقاب الله تعالى ، وفكر في اجترائه على خالقه ، وهويراه ، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدي الملك العزيز الشديد العقاب ...لَحَرِيٌّ أن يُسَر غدًا يوم البعث ، ويكون من المقربين في دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع ، وأن يعوضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر . " (1)

فهو يدعو إلى التعفف ، ويحذر من السقوط في مهاوي الفاحشة والمعصية قولا وعملا ، ويعلل لذلك تعليلات تعد صدى واضحا لتدينه وورعه.

وما قلناه عن ابن حزم يصدق مثلا على ابن بسام ، ولعل الرجوع إلى الأحكام النقدية التي تناولناها تؤكد بدورها أثر الثقافة والتكوين الديني في المنحى الأخلاقي الذي سار عليه ابن بسام وغيره من نقاد المغرب والأندلس .

هذا فيما يتعلق بالدافع والسبب الأول في اتسام النقد في البيئة المغربية بالسمة الأخلاقية . أما الدافع الثاني فأعتقد أنه راجع إلى الظروف السياسية التي ميزت المغرب والأندلس ، وأدت في النهاية إلى المصير المشؤوم الذي لا يخفى على أحد ، ففي حين كانت المماليك النصرانية تتوحد وتقوى ، كان المسلمون يتكالبون على الإمارة والسلطان ، حيث اشتد الخلاف بينهم ، فتفرقت كلمتهم ، وخارت قوتهم وتزعزع عزهم ، وأصبحوا في النهاية لقمة سائغة لقوى النصارى المتوحدة ، إن هذا الواقع الذي كان يميز المغرب والأندلس ، لم يكن ليخفى على نقادنا ، ونزعتهم الأخلاقية كانت في جانب منها نتيجة ما كانوا يعيشونه ويرونه من تقلبات وصراعات سياسية ،فهم يرون أن من واجب الشعراء والأدباء في ظل أوضاع كهذه أن يبصروا الحكام والناس بأمور الواقع وخفاياه ،لأن يزيدوا الطين بلة ، فيمدحوا هذا الأمير أو ذاك ،ويؤلبوا هذا على آخر ،سعيا وراء الحظوة والمنزلة حينا ، ونشر بذور الفتنة بين أفراد المجتمع ، وبث أسباب الفرقة والتنافر بين الناس حينا آخر .

---

1. طوق الحمامة.ط: دار المشرق العربي بيروت . ط3 1984 . ص: 57.

وسبق أن أشرنا أن ابن رشيق عبر ساخطا عن هذا الواقع الذي زاده الشعراء بهالاهم الـــتي صنعوهـــا حول ملوك الطوائف تزييفا :

مما يغضني في أرض أندلـــس سماع مقتدر فيها ومعتضـــد .

ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الأسد

فابن رشيق وغيره من النقاد الذين أنجبهم هذا الجزء من العالم الإسلامي ، حاولوا بحسهم اليقظ وتفطنهم للفتنة التي تعصف بالأمة ، تنبيه الأدباء والشعراء حتى يقوموا بدورهم كاملا غير منقـــوص ، لا أن ينجـــروا وراء الأحداث ويجاروا الحكام والناس فيما هم فيه ، فدور الأديب يحتم عليه أن يعيش قضايا أمته ويطلع عليها وأن ينظر إلى واقعها نظرة خبير بما ينبغي أن تكون عليه . فإذا وجدها غير كذلك ، اصطنع الوسائـــل الفنية — لأنها أقرب إلى النفوس — لإيقاظها من غفلتها ، وتبصيرها بحقيقتها بلا تعمية ولا تزييف .

وإدراكا من هؤلاء النقاد بخطورة الشعر وقدرته على التأثير في المتلقين بما يمتلك من خصائص مميـــزة ، ألحوا على رسالة الشاعر ، وأكدوا الوظيفة الأخلاقية التي ينبغي عليه وضعها في الحسبان ، والسعي لتســـخير الشعر كوسيلة لبلوغ غايات وأهداف تعود بالنفع والفائدة على الأمـــة .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس

الاتجـاه الأخلاقي عند حازم القرطاجني.

- لمحة عن حياة حازم القرطاجني و ظروف نشأته .
- جهـود حازم القرطاجني النقدية و نزعته الأخلاقية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- لمحة عن حياة حازم القرطاجني وظروف نشأته.

وحازم من النقاد المتميزين الذين تركوا آثارا طيبة في النقد الأدبي عند العرب ، إذ لا يوجد في حدود علمنا من جمع نظرة نقدية مكتملة السمات واضحة المعالم ،و على قدر كبير من النضج والوعي ، كما هو الحال عند هذا الناقد الفذ .

ولعله من المفيد هنا التعرف على بعض جوانب حياة حازم العلمية وظروف نشأته للإحاطة بالملابسات التي جعلت منه ناقدا متميزا أولا ، ولتعليل سبب جنوحه إلى النقد الأخلاقي ثانيا . ووفاء للمنهج الذي رسمناه لهذا البحث ثالثا .

ولد حازم بقرطاجنة الأندلس سنة (608 هـ) وإليها ينسب ، وقد استقر بها أبوه بعد مغادرته لسرقسطة التي كانت تحت سيطرة النصارى الإسبان ابتداء من سنة (512 هـ) . وكان أبو حازم محمد بن حسن الأنصاري الأوسي على حظ من الفقه والأدب ، لذا فقد ولي قضاء قرطاجنة حوالي أربعين سنة حتى توفي سنة (632 هـ) . وفي ظل هذا الاستقرار النسبي تنعم حازم ، وقضى حقبة من الزمن يبدو أنها سعيدة من حياته ، لهذا فهو دائم الذكر لها يردد مظاهرها ومناظر الربوع التي شب فيها بكثير من الحنين والشوق مثلا يقول : (1)

بجنة الأرض همت يا صاح ... فليس عنها الفؤاد بالصاحي

تلك محل النهور مرسية ... موطن أنسي ودار أفراحي

مرسيٌّ كم ناعم وكم جذل ... بين البياض فيك والراح

1. الديوان. تحقيق عثمان الكعاك . ط : دار الثقافة بيروت . 1964 . ص: 30

" هابطة النهر " منك أذكرها من شـــط أعلاه " جسر وضاح"

فكل حســـن ما بين قنطرتي " طبيرة " منها و " سيـــــــاح"

سبعون ميلا كنا نجول بهـــا بـــين جســـور وبـــين أدواح .

حفظ حازم القرآن الكريم وتلقى في بداية شبابه الفقه والأدب على يد أبيه ، وبعدها راح يتردد علـــى علماء مرسية وغرناطة وأشبيلية لينهل من معينهم ، حيث تلقى الفقه على مذهبي الإمام مـــالك والشـــافعي ، والنحو على مذهب البصريين ، وزاد إحاطة بعلوم العربية وأدبها وأخبارها ، كما ضـــرب بســـهم وافـــر في العقليات حسبما يروي السيوطي ، كما لا يخفى اطلاعه على نتاجات الفلاسفة اليونانيين والمسلمين كابن سينا و ابن رشد والفارابي . وجمعه لهذه العلوم تؤكد سعة ثقافته وتنوعها من دينية وأدبية وتاريخيـــة وفلســـفية ، جعلت منه بالفعل نقطة مضيئة في تراثنا النقدي ، بطريقته المتميزة في معالجة المسائل المتعلقة بالشعر .

و لم تكن حال الأندلس كما هو معلوم في هذه الحقبة بخير . فقد ميزها التوتر والصراعات والحـــروب بين الدويلات بعضها وبعض من جهة ، وبينها وبين الإسبان من جهة أخرى . و لم يطل الأمر كثيرا وســـقطت قرطاجنة في يد الإسبان سنة (640 هـــ) مع غيرها من المدن .

في خضم هذه الأحداث وهذه الهزات العنيفة توفي أبوحازم سنة (632 هـــ) الأمر الذي كان حـــافزا لحازم كي يفكر في الانتقال إلى الضفة الأخرى . فقد كان يدرك الخطر الذي يحذق به كما أنه كـــان يـــرى النهاية الأليمة لمسقط رأسه ترتسم في الأفق ، وبالفعل فقد توجه بداية إلى مراكش ، ومنها إلى تونس حيـــث كان هناك سنة (639 هـــ) ، وفي تونس استقر بقية عمره وبها توفي سنة (684هـــ) . بعد أن عاش في كنـــف ملوك بني حفص ، وكان يأمل منهم أن تعود الأندلس الضائعة على أيديهم إلى المسلمين ، وخاصة وهو يـــرى قوة دولتهم ونفوذها في المغرب العربي .

ومهما يقال عن البيئة التي استوت فيها شخصيته العلمية ، أهي الأندلس أم المغرب ، فإن الجميع متفق على رسوخ قدمه في اللغة والأدب والفلسفة على وجه التحديد . ولكن المنطق يفرض علينا أن نقول أنه تلقـــى

العلوم والمعارف في البيئتين ، أما نضجه الفكري واستواء شخصيته العلمية فأكيد أنها كانت في سنوات عمره التي أعقبت فترة شبابه أي في المغرب ، لتقدمه نسبيا في السن أولا ، واحتكاكه بالعلماء الذين كانت تعج بهم بلاطات الملوك ومجالس العلم . فكتبُ التاريخ تحصي أسماء الكثير من العلماء المهاجرين من الأندلس واستقرارهم بالمغرب العربي ، وكذا أسماء علماء من أبنائه .

ولا يظن أن حازما قد وجد ضالته في المغرب العربي وتونس على وجه الخصوص ، فقد كان يعيش أزمة نفسية حادة نتيجة الاضطهاد الذي مورس على المسلمين في الأندلس من طرف النصارى ، هذا الاضطهاد النفسي والإرهاب اضطراه للفرار مكرها على أمل الرجوع إلى الوطن الأم ، وهذا ما لم يكن ...، الأمر الذي جعله يعيش وضعا نفسيا لا يحسد عليه ، على الرغم من إكرام الملوك الحفصيين له ولغيره من الوافدين ، فضياع الأندلس وأحوال المسلمين في المغرب وما يراه من صراعات ، عمقت وعيه بحقائق غائبة على العامة وحتى ربما الخاصة ، وأجلَت المشهد أمام ناظريه ، حتى أصبح يرى تفاصيله ماثلة بكل وضوح . لذا فهو دائم الحسرة ، شديد الهم ، دائم الغم ، ولعل شعره كان ملاذه الوحيد في أحايين كثيرة ، حيث نجده يعبر فيه بكل أسى عما يعانيه تارة ، ويتمنى فيه إعادة الصاع صاعين للإسبان ثانيا ؛ ويبكي تبدل الزمان وتقلباته ثالثا ...يقول :(1)

وبكيت واستبكيت حتى ظل من ... عبراتنا بحر ببحر يمرج

وبقيت أفتح بعدهم باب المنى ... ما بيننا طورا وطورا أُرتج

وأقول يانفس اصبري فعسى ... النوى بصباح ليل قرها يتبلج

فترقب السراء من دهر دجا ... فالدهر من ضد لضد يخرج

وترجَّ فرجة كل هم طارق ... فلكل هم في الزمان تفرج

ويقول أيضا في نفس الصدد :(2)

---

1 . الديوان . ص: 30 .

2 . الديوان . ص :47 .

كم أوجهٍ للمنى غر نعمت بهـــا في أزمنٍ مثلها غـــر وأعصـــار

ثم انتحت أزمنٌ بُهم مبدِّلـــــة حالا بحالٍ ،وأطواراً بأطـــــوار

ففرقت شمل أحباب وشمل منىً وألّفت شمـــل أعداء وأشـــــرار

ومُذ تفرقت الآمال ما اجتمعت لي في دجى الليل أشفارٌ بأشفـــار .

وأثناء مدحه للمستنصر يذكره بأنه أهل للاقتصاص ورد الأندلس السليبة ، ويستأنس بأحداث عظام يعرفـــها المستنصر يثير فيه النخوة الإسلامية التي نضبت خوالجها عند الناس ، فيقول : (1)

مُلِئت صدورهم هوىً وأمانيـــا ورأوا حميدا وِردَهم والمصـــدرا

ورجوا لأندلسٍ وأهليها بِكـــم نصرا يدوم على الزمـــان مؤزرا

أنت الحقيق بأن تلبي صوتهـــا وبأن تريق لنصرها كأس الكرى

وبأن تفوق مجيبَ صوت زبطرة * ويرد عصر هذاك ملك الأعسرا *

بشر بني حمص * وأنـــدلس بما سيعيد منها عامرا ما أقفـــــرا

وهكذا تتردد هذه المعاني في شعر حازم وتعبر بصدق عما كان يعانيه وعما كان يأمله ويتمناه .

لقد كان حازم إضافة إلى ثقافته الواسعة شاعرا مجيدا ، فاجتمعت في شخصه صفة العـــالم المرمـــوق والشاعر الموهوب ، الأمر الذي جعله يعالج قضايا الشعر في مؤلفه الشهير " منهاج البلغاء وسراج الأدبـــاء " معالجة واعية فيها كثير من الإدراك لخصوصية الشعر وأدواته ووظيفته .

وفي اعتقادي أن الجوانب التي أشرنا إليها سابقا فيما يتعلق بثقافته ، وشاعريته ، والظروف السياســـية والاجتماعية التي مرت بها الأمة الإسلامية في الأندلس والمغرب ، ومعاناته الشخصية جراء ما عاشه في تلـــك الحقبة ، تمكننا الآن من فهم الدوافع التي جعلته يسير متأثرا بالنزعة الأخلاقية في شعره ، وفي مؤلفـــه النقـــدي الذي نحاول دراسة بعض جوانبه والتعرف من خلاله على آراء حازم النقدية .

---

1 . الديوان.تحقيق عثمان الكعاك . ط : دار الثقافة بيروت . 1964. ص: 51-52

* المعتصم . * عمر بن الخطاب ، * إشبيلية .

2-جهود حازم القرطاجني النقدية ونزعته الأخلاقية.

وكأمر طبيعي من عالِم خَبَر الفلسفة والمنطق وأدرك منهما كيفية بناء الأفكار وترتيبها ، وكذا طريقة صياغة الآراء ومعالجتها ، بدأ أول ما بدأ بوضع مفهوم للشعر جمع فيه بكل دقة مميزات هذا الفن الكلامي فقال: "الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكره ما قصد تكريهه ، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه بما يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام ، أو قوة صدقه أو قوة شهرته أو بمجموع ذلك ، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب ، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها " (1)

ويزيد في تعريف آخر للشعر فيقول : " كلام موزون مخيل ، مختص في لسان العرب بزيادة التقفية... " (2)

ففي هذين التعريفين ضبط سمات هذا الفن الذي يشترك مع باقي الفنون في التخييل ، ويتميز عنها بالوزن والقافية ، فالشعر مميز بشكله وباعتماده الكلي تقريبا على التخييل الذي يكون بالمحاكاة ، فالشعر حسب حازم لايكون كذلك بمجرد إيقاعاته الموزونة ونهاياته المنتظمة ، كما أنه لايمكن أن نتصور أن كل كلام يحوي تخييلا هو بالضرورة شعر ، لأنه لايمكن استعمال الإقناع في الشعر في حدود معينة ، ويمكن كذلك اعتماد التخييل في النثر لتقريب المعنى وتقويته ، وفيه يمكن أن نصادف كلاما موزونا ومع ذلك لايعد شعرا .

---

1 . المنهاج. تحقيق الحبيب بن الخوجة . ط : دار الكتب الشرقية . تونس 1966 . ص: 71

2 .المنهاج . ص : 89

فالفن الكلامي كي نسميه شعرا لابد من توفر جملة من المميزات فيه ، وهي الوزن والقافية ، واعتماده التخييل لأنها تعد أدواته ووسائله

لقد أسعفته شاعريته وسعة ثقافته لتخطي عتبة الآفاق التي بلغها سابقوه في هذا الشأن ، وما سبب الطول النسبي لتعريفه الأول إلا دليل حرصه على إلقاء الأضواء على جوانب خفية تتعلق بأسرار الشعر وماهيته ، فهو عنده ليس مجرد كلام موزون مقفى يدل على معنى ،كما عرفه قدامة بن جعفر .فهذا التعريف يجعل السمة الأساسية للشعر وهي التخييل ، وهذا ما حاول حازم استدراكه والتأكيد عليه ، وهذا بعض ما عناه في قوله : " قصدنا أن نتخطى ظواهر هذه الصناعة وما فرغ الناس منه ، إلى ما وراء ذلك مما لم يفرغ منه " (1). وقوله : " فإني رأيت الناس لم يتكلموا إلا في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة ، فتجاوزت أنا تلك الظواهر ، بعد التكلم في جمل مقنعة مما تعلق بها ، إلى التكلم في كثير من خفايا هذه الصنعة ودقائقها ."(2)

فقد تجاوز ما كان يردده النقاد من الجزئيات المتعلقة بالشعر ، و لم يطل الكلام في القضايا التي أسهبوا في الحديث عنها ، والأكيد أن حازما لاحظ قصورهم حين كانوا ينظرون إلى العمل الأدبي نظرة جزئية تجرده من تكامله ووحدته ، والتي وحدها يمكن أن تبلغ المتلقي مارام وسعى إليه المبدع ، إن تأكيد حازم على الناحية الشكلية للشعر ومادته ، انطلق فيه من قناعته بضرورة مراعاة جمالية الشكل لأنها السر الذي يعول عليه في تقديم المعنى ورسم الموقف المطلوب . يقول : " إن الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختار مواد اللفظ ، وتنتقي أفضلها وتركب التركيب المتلائم المتشاكل ، وتستقصي بأجزاء العبارات التي هي الألفاظ الدالة على أجزاء المعاني المحتاج إليها ، حتى تكون حسنة إعراب الجملة والتفاصيل عن جملة المعنى وتفاصيله . "(3)

---

1. المنهاج . ص: 51 .

2.المنهاج . ص: 18 .

3 .المنهاج . ص: 119 .

ولا عجب أن نجد حازما يصرح في وضوح عن ضرورة تخير الألفاظ ، وإحكام الكلام ، فهو أدرى بمعرفة ما يحتاج إليه الإبداع الفني ، بل وأدرى بخفايا التجربة الشعرية . ونتصور مدى إحاطته بكل ما يفتقر إليه الشعر الأصيل من أدوات ووسائل ، فهو موهبة وصناعة ، وأي صناعة لها خصائصها النوعية ومميزاتها وأسرارها .

إن حازما كما أسلفنا لم يتجاوز مادة الشعر وهي اللغة ، إلا أنه لم تشغله أجزاؤها عن الخوض فيما يراه ضروريا من الخفايا والدقائق التي قصرت آفاق النقاد عن بلوغها ، وهذا أمر منطقي ، فقد أفاد حازم من النقاد النظريين والتطبيقيين ، وكذا الفلاسفة الذين تراكمت جهودهم ومؤلفاتهم عبر العصور ، فاكتسب من البلاغيين والنقاد التطبيقيين ما يخص مادة الشعر ، أعني اللغة ، ومن الفلاسفة التماسك في بناء الأفكار ، وسعة الأفق وتكامل الرؤية .

وإذا رجعنا إلى التعريف ، وتأملنا ما جاء فيه وجدناه يثبت أهم الخصائص المميزة للشعر والتي تعد قوامه وجوهره ، إذ هي لاتحصر عنده كما رأينا في عناصر الشعر المتداولة كالوزن والقافية ، المعنى واللفظ ، بل يؤكد شيئا آخر و هو التخييل . فالمعتبر في الشعر عنده هو ما يقع في مادته من تخييل ، إن الشعر عنده ليس علاقة ميكانيكية رتيبة مع الموجودات ،بل هو إبداع يراعي ويتفاعل مع شبكة العلاقات المختلفة التي تتميز بها الحياة .

ولعله من المفيد هنا معرفة معنى المحاكاة والتخييل والعلاقة بينهما ، لفهم وجهة نظر حازم في هذا الشأن وكشف اللثام عن بعض الآراء والمواقف المتصلة بهما .

لقد سلم حازم مع الفلاسفة الذين تأثر بهم وتقبل مصطلح المحاكاة الأرسطي،حيث أدرك فاعليتها وأثرها النفسي في المتلقي ، والمحاكاة تنصرف إلى معنى المماثلة ، أي إيراد مثل الشيء وتكون في شكل تشبيه أو استعارة أو تركيب ، وغايتها إلقاء الأضواء على صفة أو صفات يشترك فيها طرفان ، فالمحاكاة هي عملية ذهنية يستحضر فيها المبدع صور الموجودات وخصائصها ، ويقارب بناء على ذلك بين موضوعين أو شيئين أو

حالتين ، مستعملا التشبيه أو الاستعارة أو التركيب * بغرض تمكين المتلقي من تخيل ما يصبو المبدع إلى تخييله ، إذن التخييل هو الأثر الذي تحدثه المحاكاة ، وعليه فالمحاكاة وسيلة ، والتخييل نتيجة وغاية .

إن التخييل يخاطب النفس البشرية ، وبه يسهل الوصول إلى أغوارها والتأثير فيها ، يقول حازم عن الشعر : " من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ، ويكره إليها ما قصد تكريهه لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه . " (1) . ويتأكد هذا " بما يقترن به من إغراب ، فإن الإغراب والتعجيب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثرها . " (2)

إن التخييل عند حازم هو الأساس الذي يقوم عليه الشعر ، وبناء على مفهومه للتخييل اتضح له ما ينبغي وما لاينبغي في صناعة الشعر ، وأعطى على ضوئه أبعادا ممتازة لمباحث عالجها البلاغيون معالجة سطحية باردة كالتشبيه والاستعارة وغيرهما .

وحديث حازم عن التخييل قاده إلى التطرق لبعض الآراء والتصورات الخاطئة التي يتوهمها من جُهِل التخييل عندهم وهما وخيالا ، وانطلقوا من هذا المفهوم ليصلوا إلى نتيجة و هي أن الأقاويل الشعرية كاذبة في جملتها ظنا منهم بأن التخييل ينافي اليقين .

ومن وعيه بمهمة الشعر حاول توضيح الأمر ،حيث أكد أن الأقاويل الصادقة في الشعر هي الأصل ، فهو يرى : " أن قول من قال : إن مقدمات الشعر لا تكون إلا كاذبة ، كاذب وأنه بمنزلة من يقول أن الألفاظ المستعملة والمقدمات الصادقة أو ما يستعمل في الشعر حيث يمكن ذلك ويكون الوضع والغرض لائقا به ، وما مثله في قصر الشعر على الكذب مع أن الصدق أنجح فيه إذا وافق الغرض إلا مثل من منع ذي علة ما هو أشد له موافقة بالنسبة إلى شفائه واقتصر على أدنى ما يوافقه مع التمكن من هذا وذاك " (3)

---

1 . المنهاج .ص : 71.

2 . المنهاج .ص : 71.

* حازم يقسم المحاكاة إلى مستقلة بنفسها (التشبيه والاستعارة) أو متصورة بحسن هيئة تأليف الكلام : أي أثر تركيب الكلام في العبارة عن المحاكاة ، انظر المنهاج ص: 71 .

3 . المنهاج . ص: 83 .

وإذا كان الصدق في الشعر هو الأصل فإن الكذب عند حازم لا يُلجَأ إليه إلا لضرورة ، حين يعـــوز الشاعر الصادق والمشتهر ، وكلام حازم هذا لايعني أنه فتح الباب على مصراعيه في هذا الشأن ، بل العكـــس هو الصحيح ، فقد ضبط استعمال الكذب بضوابط صارمة وضحت حدوده ورسمت له المعالم التي ينبغي عـدم تجاوزها ، بحيث أننا معها لانحس بتاتا بأي تعارض بين مسعاه الأخلاقي ورأيه هذا ، فالعامل الديني كان لـــه دوره الحاسم في هذه المسألة . وملخص نظرته في هذا الموضوع ." أن الكذب في رأيه منه ما يعلم مـــن ذات القول دون الحاجة إلى قرينة من خارج القول المتناقض مثلا ، ومنه ما لايعلم كذبه من ذات القول ، ويتنـــوع هذا إلى ما لا يعلم كذبه من ذات القول ، وقد لا يمكن التوصل إلى معرفة كذبه من خارج القول ، وذلك كالاختلاق الإمكاني (أي أن يدعي الشاعر شيئا لا وجود له ولكنه ممكن الوجود) ، وإلى ما يعلم أنه كـذب من خارج القول بالضرورة كالاختلاق الامتناعي (أي أن يختلق الشاعر ما يمتنع وجوده) . والإفراط الامتناعي والاستحالي ..." (1)

إن الكذب المستساغ عند حازم – إن جاز تسميته بهذا الاسم أعني كذبا – هو الاختلاق الإمكـاني ، فالاختلاق بهذا المعنى في الأغراض كذب لا نستطيع الاستدلال على كونه كذلك من ذات القول ولا مما جرت عليه العادات والأعراف الإنسانية ، وتوضيحا منه لهذا المعنى يقول : " فالكذب الاختلاقي في أغراض الشعر لا يعاب من جهة الصناعة لأن النفس قابلة له ، إذ لا استدلال على كونه كذبا من جهة القول ولا العقل ، فلـم يبق إلا أن يعاب من جهة الدين ، وقد رفع الحرج عن مثل هذا الكذب أيضا في الدين ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كان ينشَد النسيب أمام المدح فيصغي له ويثيب عليه . "(2)

فالاختلاق الإمكاني في الأغراض مسموح به ، ومثّل لذلك بأن يختلق النسيب بين يدي المدح جريـــا على عادات العرب في بناء القصائد ، حتى لايفهم رأيه على وجه لم يقصده ، وكذلك الأمر في جهات الشعر

---

1. حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر . د/ سعد مصلوح . ص: 174 .ط : عالم الكتب . القاهرة 1980 .

2. المنهاج . ص : 78-79 .

فمن أكد مثلا أنه يشعر شعورا خاصا نحو أمر ما من غير أن يكون ذلك هو الواقع لايكون أمرا معيبا طالما أنه يحتمل إمكانية الوجود الفعلي .

أما النوع الثاني : أعني الاختلاق الامتناعي والاستحالي ، ففي الأغراض* غير مستساغ ولا مستحسن ، ونفس الحكم في جهات الشعر* فهو في رأيه : " ليس يقع للعرب في جهة من جهات الشعر أصلا ." (1)

أما اليونان فإن : " مدار جلّ أشعارهم على خرافات كانوا يضعونها ، يفرضون فيها وجود أشياء لم تقع في الوجود ، ويجعلون أحاديثها أمثلة وأمثالا لما وقع في الوجود . " (2) . ولعل حازما يقصد بالتحديد الأساطير المختلفة التي تحكي صراع الآلهة ، ومغامراتها ، وتعددها ، وكذا القصص التي تحكي تفاصيل تطعن في جوهرها ، هذه الآلهة . فحازم انطلاقا من وعيه الديني وعقيدته الإسلامية استبعد وقوع مثل هذه المعاني المختلقة في الشعر العربي ونفاها عنه ، واستقبح دوران الشعر اليوناني عليها ، فالاختلاق الامتناعي والاستحالي وفق ما بينا غير مرغوب فيه عند حازم ، أما ما عداه أي الإمكاني فهو مستساغ في صناعة الشعر .

لقد سعى حازم جاهدا إلى تأكيد أن الأقاويل الشعرية يمكن أن تبنى على الصدق ، بل وهذا هو الأصل فيها ، ولا يستحسن الانتقال منه إلى الكذب أو بالأحرى الاختلاق إلا لضرورة ملحة ، وفوق ذلك ينبغي على المبدع أن لا يخرج عن حدود المعقول ، فيصور أشياء يمتنع أو يستحيل وجودها ، أو يقوم بقلب حقائق مشهورة ومشاهدة وما إلى ذلك من الأمور التي لم يرد حازم التطويل فيها لأنها معروفة ويمكن تمييزها ببساطة .

هذا أولا ، وثانيا لأن وقوفه على الطرق التي بها يماز القول الصادق من الكاذب يخرجه من الشعر إلى شيء آخر وهو المنطق ، وهذا ليس ذاك ، فلا يمكن تطبيق قواعد المنطق على صناعة الشعر ، وإن كان يمكن

---

1 . المنهاج . ص : 77 .

2 .المنهاج . ص : 68 .

* – جهات الشعر : هي موضوعات الأشياء التي يعمد الشاعر إلى وضعها ومحاكاتها ويدير معاني شعره عليها .

* – أغراض الشعر : يعني بها الغايات المعنوية أو الهيئات النفسية التي يقصد الشاعر إلى تحقيقها من خلال المعاني المنتسبة إلى جهات الشعر (حازم القرطاجني 172.)

الاستفادة منه .

لقد وقف حازم متصديا للهجمة التي شنها البعض على الشعر ، والتي حاولوا فيها التشكيك في جدواه لأنه في نظرهم مرادف للكذب ، وما بُني على الكذب لايمكن أن يكون وسيلة ذات فعالية في مجتمع يعتقد أن الكذب رذيلة ، والغاية النبيلة عندهم لايجوز الوصول إليها إلا بوسيلة نبيلة . لكن حازما فهم المسألة جيدا وأرجع الأمر إلى نصابه ، فصحح أفكار بعض من علقت بأذهانهم تلك المغالطة التي تقول أن الأقاويل الشعرية كلها مبني على الكذب ، وأكد أن التخييل لايناقض الصدق ، كما وجه في نفس الوقت أنظار الشعراء إلى معيار ينبغي أخذه بعين الاعتبار في إبداعاتهم ، ألا وهو الصدق ، وحاول إبعادهم عن الكذب لأنه منقصة للشعر ، وعلامة من علامات سقوطه ، يقول : " وأردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة والهيئة ، واضح الكذب خليا من الغرابة ... " (1)

إن حازما يريد من الشعراء والأدباء أن يكونوا في مستوى خطورة المهمة الملقاة على عاتقهم ، فعليهم أن يقوموا بدورهم الرسالي المنوط بهم ، بحيث يوظفوا إبداعاتهم فيما يكون سببا في نهضة أمتهم وإيقاظها من غفلتها ، ودفعها إلى القيام بواجبها ، وتبصيرها بأحوالها وما يتربص بها ، ولن يكون ذلك إلا برفع الصدق شعارا وحمله مبدأ ، وطرح الكذب والتزييف ، وذمه ومقت أهله .

إن وجود فئة من الشعراء همها التكسب دفعها إلى التزلف والكذب والتزييف ، هو في الحقيقة الدافع الذي جعل ثقة البعض بجدوى الشعر وإيجابيته تتزعزع ،وبالعكس فقد رأوه من خلالهم وسيلة لتخذير العامة والخاصة .والمعرة بسبب هؤلاء انسحبت في هذه الصنعة بسبب الوضيع على الشريف— كما قال حازم – .فنفور الناس من الشعر قبل حازم وفي عصره ، سببه الدور السلبي الذي كان يقوم به بعض الشعراء .

ولعل أشعار حازم — إضافة إلى تعبيره فيها عن تجارب ومواقف وحقائق معينة — كان يهدف بها توضيح المثال الذي ينبغي أن يحتدى ، والدور الذي ينبغي أن يقوم به الشاعر الرسالي ، وربما النماذج التي

1 . المنهاج . ص: 72 .

أوردناها من شعره لهي أصدق دليل على ذلك.

فالمعاناة الشخصية و انشغالات الأمة وتطلعاتها ينبض بها شعره ويعبر عنها ، ونكاد نجده في أشعاره يسير على سمت واحد من ذلك .

إن هذا الكلام يوصلنا إلى قضية – على جانب كبير من الأهمية – استرعت انتباه حازم ألا وهي مهمة الشعر . فهو في تعريفه للشعر، يجعل أحد خصوصياته تأثيره المتميز في النفس فيقول : " الشعر كلام موزون مقفى من شأنه أن يحبب إلى النفس ما قصد تحبيبه إليها ويكره إليها ما قصد تكريهه، لتحمل بذلك على طلبه أو الهرب منه ، بما يتضمن من حسن تخييل له ، ومحاكاة مستقلة بنفسها أو متصورة بحسن هيأة تأليف الكلام ، أو قوة صدقه ، أو قوة شهرته ، أو بمجموع ذلك ، وكل ذلك يتأكد بما يقترن به من إغراب ، فإن الاستغراب والتعجب حركة للنفس إذا اقترنت بحركتها الخيالية قوي انفعالها وتأثيرها ..." (1)

فخواص الشعر وما ينبني عليه جوهره ، تجعل النفس تتأثر بما فيه من غير روية وفكر ، لأنه أساسا يخاطب الشعور . " فإثارة الشعور والإحساس مقدمة في الشعر على إثارة الفكر ." (2) . فهو يثير في المتلقي " الشعور بالوسائل الفنية في الصياغة ، وذلك بتأليف أصوات موسيقية ، تضيف موسيقاها إلى قوة التصوير ، فتتراسل بها المشاعر ، وهذه المشاعر بدورها طريق بث أفكارٍ تتمكن من النفس عن طريق التصوير بالعبارات الموقعة ، على الرغم من أن هذه العبارات توحي بالأفكار ولا تدل صراحة عليها ، فقوة الشعر تتمثل في الإيحاء بالأفكار عن طريق الصور ، لا في التصريح بالأفكار مجردة ، ولا في المبالغة في وصفها ، ومدار الإيحاء على التعبير عن التجربة ودقائقها ، لا على تسمية ما تولده في النفس من عواطف . " (3)

فالإيحاء والتصوير هما روح الشعر وجوهره ، وتسمية الأمور بمسمياتها تضعف من القيمة الفنية للشعر ، وتخرجه إلى التقريرية التي هي خاصية النثر .

---

1 . المنهاج . ص: 71 .

2 . النقد الأدبي الحديث . د : محمد غنيمي هلال . ط: دار الثقافة ودار العودة . لبنان 1973. ص:376 .

3 . نفسه

إضافة إلى ميزة التأثير التي ألمح إليها حازم أكد الهدف من إثارة شعور المتلقي ، هذا الأخير من شـــأنه أن يدفع المتأثر إلى سلوك معين وفق ما رسمه المبدع .

فمقصد الشعر عند حازم هو : " إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده ، أو التخلي عـــن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح أو جلالة أو خسة ." (1)

فالتحسين أو التقبيح الذي يفضي إليه التخييل في الشعر ، من شأنه إذا صادف قبولا في نفس المتلقـــي أن يدفعه حتما إلى اتخاذ موقف سلوكي محدد.

إن حازما يهدف إلى الارتقاء بالشعر إلى مستوى لا يغدو فيه مجرد وسيلة للتسلية وتزييف الحقـــائق والتضليـــل ، بل إن الشعر عنده له مهمة ووظيفة أخلاقية يؤديها ، فالقصد من الأقاويل الشعرية في نظـره : " استجلاب المنافع واستدفاع المضار ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك ، وقبضها عما لايراد ، بما يخيل لها فيه من خير أو شر ."(2)

فالشعر يهدف أساسا إلى توجيه الإنسان نحو الصلاح والخير والفضيلة ، وإبعاده عن الفساد والشـــر والرذيلة .

وإدراكا من حازم أن الأخلاق مكتسبة ، وأنها يتوصل إليها بالسعي والمجاهدة والمثابرة ، اقتنع بالمهمـة الأخلاقية للشعر وبجدواه في تغيير الأخلاق ، لأنه هو الكفيل بتحقيق هذه الغاية ، لأنه يتوفر على خصـــائص تجعله يقدم المحتوى الأخلاقي تقديما متميزا مؤثرا .

إن القيم الجمالية التي يحتويها الشعر تمكنه من أن يكون الوسيلة المثلى للارتقاء بالإنســـان إلى أعلـــى مدارج الكمال ، بتزيين ما ينبغي عليه تحصيله من الفضائل ، وتقبيح ما لابد له من التخلي عنه من الرذائل .

وتتضح الرؤية الأخلاقية لحازم فيما يخص وظيفة الشعر ، من خلال تحديده للطرق التي لابـــد مـــن وضعها في الحسبان أثناء التحسين أو التقبيح ، وما يجب أن يراعى في ذلك ، وقد حصرها في أربع :

---

1 ..المنهـــاج . ص: 85 .

2 .المنهـــاج . ص: 337.

1 – إما أن يحسن أو يقبح من جهة الدين بذكر الثواب على فعله أو اعتقاده ، أو العقاب على تركه واعتقاد نقيضه .

2 – إما أن يحسن أو يقبح من جهة العقل وما يجب أن تؤثره النفس من جهة ما هي عاقلة بتحليها بالفضائل والأنفة من الرذائل .

3 –وإما أن يحسن أو يقبح من جهة المروءات والكرم ، بإيثار الذكر الحسن والأنفة من الذكر القبيح .

4 – وإما أن يحسن أو يقبح من جهة الحظ العاجل والشهرة ، وما هو معروف من حرص النفس واشتهائها المنفعة والنعمة ، وما تنفر منه من المضرة وسوء الحال .(1)

فهذه الطرق الأربع يتضح فيها الاعتبار الأخلاقي الذي يريد حازم للشعر أن يتقيد به ويجعل البعد الأخلاقي غايته وهدفه.

إن نبل الغاية لا تشفع للشاعر عدم الاهتمام بالشكل ،بل العكس هو الصحيح ، فالغاية السامية للشعر تفرض على الشاعر مراعاة القيم الجمالية والاحتفال بكل ما من شأنه تسهيل الوصول إلى هذه الغاية ، ولما كان سر تأثير الشعر في شكله وطرق معالجته المتميزة ، أصبح من الضروري اقتران القيمة الجمالية والأخلاقية في الشعر لضمان استجابة الناس له .

لقد ضبط حازم الشعر بضوابط أعطت له مفهوما واضحا ،كما حددت مهمته ووظيفته وميزت أدواته ووسائله للوصول إلى غايته وهدفه .

إلى جانب ذلك فقد حاول تحديد صفة الشاعر الحقيقي الذي يتولى تحمل عبء هذه الرسالة ، وما يحتاجه من ثقافة وعلوم وقوى خاصة *، لامناص لأي شاعر منها .: " إن جلال مهمة الشعر يفرض على الشاعر أن يكون أكثر وعيا وخبرة ، وأن يتميز بقدرة لافتة على استيعاب الحاضر والماضي والإفادة من تجارب

---

1. المنهاج . 106-107.

* القوى التي ينبغي وجودها في الشاعر عند حازم هي : القوة الحافظة ، والقوة المائزة ، والقوة الصانعة ، . فالشاعرية تتولد عن الطبع الجيد والثقافة والدربة والممارسة ./ انظر المنهاج ص: 42-43.

معاصريه وأسلافه على السواء ، وما دام الشاعر صاحب رسالة مهمة في حياة الجماعة ،فمن البديهي أن يكون أكثر من غيره خبرة وحساسية . قد يشترط حازم الثقافة والمعرفة بأصول الفن ، ولكن من المهم أن يكون الشاعر عميق الخبرة بالتجربة الإنسانية . وسعة الثقافة في هذه الحالة شرط ملازم لمعرفة مجاري الدنيا وأنحاء تصرف الأزمنة والأحوال ،فالأصل الذي يتوصل به الشاعر إلى استثارة المعاني الشعرية واستنباط تركيباتها."(1) حسب حازم : " هو التملؤ من العلم بأوصاف الأشياء ، وما يتعلق بها من أوصاف غيرها ، والتنبه للهيئات التي يكون عليها التئام تلك الأوصاف وموصوفاتها ، ونسب بعضها إلى بعض ...والتفطن إلى ما يليق بها من ذلك بحسب موضع موضع وغرض غرض . " (2)

فالشاعر عنده بالضرورة هو الإنسان الرسالي الواعي بمهمته ، المتفهم لأسرار الحياة ن المتبصر بعلاقات الموجودات ، المطلع على أحوال الناس وطباعهم ،ومن المؤكد أن الوضعية التي آل إليها الشعر في عصر حازم كانت بسبب شعراء لم يكونوا يتوفرون على ما يؤهلهم للخوض في هذا الفن الكلامي ، مما حدا بهم إلى إنتاج أشعار هزيلة بعد هذا . " الذي ران على قلوب شعراء المشرق المتأخرين وأعمى بصائرهم عن حقيقة الشعر منذ مائتي سنة ، فلم يوجد فيهم – على طول هذه المدة – مَن نَحَا نَحوَ الفحول ، ولا من ذهب مذهبهم في تأصيل مبادئ الكلام وأحكام وضعه وانتقاء مواده التي يجب نحته منها . فخرجوا بذلك عن مهيع الشعر ودخلوا في محض الكلام. " (3) ، إضافة إلى هؤلاء فقد أسهم في هذه الوضعية فئة * من الذين تناولوا الشعر بالحديث واعتبروه داعيا لسوء الأدب وفساد المنقلب ، لأنه في اعتقادهم لِضَيقه ، وصعوبة طريقه يحمل الشاعر على الغلو في الدين حتى يؤول إلى فساد اليقين ،ويحمله على الكذب ، والكذب ليس من شيم المؤمنين.

ونجد حازما يقول عنهم بلهجة قاسية : " كثير من أنذال العالم – وما أكثرهم – يعتقد أن الشعر نقص

1.مفهوم الشعر . ص: 146 .

2 . المنهاج . ص: 38 .

3 . المنهاج . ص: 10 .

* بعض الفقهاء والمتكلمين ، ودفعهم إلى ذلك ربما ما كانوا يسمعون ويقرأون من النماذج الشعرية التي تمثل الوجه الشاحب والسلبي للشعر .

وسفاهة ،وكان القدماء من تعظيم صناعة الشعر واعتقادهم فيها ضد ما اعتقده هؤلاء الزعانفة ." (1)

إن محاولة حازم إرجاع منزلة الشعر ومكانته الضائعة ، لابد لها من تغيير الذهنيات التي ترى في الشعر عكس الحقيقة . وكذا لابد من إبعاد المتطفلين على الشعر الذين يخبطون خبط عشواء ، لايراعون للشعر خصائصه ، ولا لهذا الفن وظيفته . إن سعي حازم إلى إعادة الاعتبار لهذا الفن الكلامي له مبرراته . فهو يعتقد اعتقادا جازما بأنه وسيلة إصلاحية على جانب خطير من الأهمية . فالهدف الأخلاقي للشعر جعل حازما يدافع عنه ، ويبذل هذا الجهد لإقناع الناس بجدواه في اصطناع الوسائل المناسبة لتحقيق مهمته . ولن يتحقق ذلك في رأيه إلا باحترام خصوصياته ، وقواعده التي اعتقد بأنه قد أعطى لها صورة واضحة المعالم في كتابه القيم " منهاج البلغاء " .

ولما كان موضوع ما يبحثه هو النقد، ولعلمنا بأن الغاية التي يهدف إليها علم النقد ، هي وضع معايير واضحة لتمييز الشعر الحسن من الشعر الرديء . فإن حازما بمنطقيته ووعيه لم يخفَ عليه ذلك . وحاول تلخيص أهم المعايير التي إذا توفرت في إبداع شعري وُصِف بالحسن . كما تطرق أيضا إلى المزالق التي إذا وقع فيها الشاعر في شعره آل به إلى الضعف والرداءة .

يقول: " و أردأ الشعر ما كان قبيح المحاكاة و الهيئة ، واضح الكذب خلياً من الغرابة ، و ما أجدر مثل كان بهذه الصفة ألا يسمى شعراً و إن كان موزوناً مقفى ، إذ المقصود بالشعر معدوم منه ، لأن ما كان بهذه الصفة من الكلام الوارد في الشعر لا تتأثر النفس بمقتضاه،لأن قبح الهيئة يحول بين الكلام و تمكنه من القلب ، و قبح المحاكاة يغطي على كثير من حسن المحاكى أو قبحه ، و يشغل عن تخيل ذلك ، فتجمد النفس عن التأثر له ، ووضوح الكذب يزعزعها عن التأثر بالجملة ." (2)

إن الشعر الذي فقد خاصيته النوعية أعني الجمالية ، و قيمته الأخلاقية لا يعد شعراً أصلاً ، لعدم إمكانية تحقيق أثر يذكر على المتلقي ، و في مقابل ذلك نجده يقول عن الشعر الحسن :" فأفضل الشعر ما

1 .المنهاج . ص: 124 .

2 .المنهاج ص:72 .

حسنت محاكاته و هيئاته ، و قويت شهرته أو صدقه ، و نفى كذبه و قامت غرابته " (1).

و من الواضح جداً أن حازماً القرطاجني راعى في وضعه لتلك المعايير و المقاييس التي بها يميز قبيح الشعر من جيده – جانبين مهمين هما :

أولاً : الجانب الجمالي في الشعر ، فهو الذي يميزه عن غيره من الفنون القولية ، و لأن القيم الجمالية فيه ، هي سر قوته و تأثيره المتميز في المتلقين.

و **ثانياً** : الجانب الخلقي ، من خلال تأكيده مثلاً على وجوب التزام الصدق ، و ضرورة الابتعاد عن الكذب لأن ذلك في رأيه ليس من شيم المؤمنين إضافة إلى اقتناعه بأن الفن الأصيل لن يكون إلا مع الصدق . فالشاعر الصادق في تجاربه الشعرية و في إرادة الخير لأمته ، هو الذي يمكنه الوصول إلى إنتاج إبداعات شعرية لها وزن و قيمة في ميدان هذا الفن .

و كخلاصة فالشعر الجيد عند حازم هو الذي تراعى فيه القيم الجمالية و الأخلاقية في آن واحد.

لقد سار حازم على خطا النقاد الأخلاقيين لكنه كان في معالجاته و آرائه النقدية أكثر وعياً و تفتحاً و إحاطة بخفايا الشعر و النثر على حد السواء ، حيث أضاف رؤى و تصورات ارتقت بالنقد إلى مرحلة مرموقة جداً ، كما أسهم في وضع النقد في إطاره الأخلاقي الذي يحتفظ له و للشعر بجدواه و أهميته.

فهو لم يصدر في أي رأي من آرائه ، إلا على هدى من نزعة أخلاقية تشف عن نفسها في ثنايا كتابه من بدايته إلى نهايته.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــــة

حاولنا خلال هذه الدراسة أن نعطي صورة واضحة المعالم عن النقد الأخلاقي عند العرب قديما ، من خلال تتبع دقيق لرواده الذين نافحوا عنه ، ودراسة أهم آرائهم التي بثوا فيها رؤًى وتصورات أسهمت عبر العصور في وضع النقد في إطاره الأخلاقي .

ونستطيع بعد قراءة هذا البحث استخلاص جملة من النتائج هي :

1-أن النقد الخلقي عند العرب نتاج إسلامي ، أوجدته ظروف الحياة الجديدة ، والتي كان سببها الإسلام ، وقد تبدى لنا ذلك من خلال النصوص القرآنية وكلام النبي – صلى الله عليه وسلم- الدائر حول الشعر – على إيجازه –فقد خط للشعر طريقا يترسمه أربابه في المجال الخلقي ؛ لقد عملت نصوص الحديث الشريف في ضوء ما صرحت به الآية الكريمة " والشعراء يتبعهم الغاوون... " أن يجعل الشعر وسيلة تتضافر مع باقي الوسائل من أجل الارتقاء بالإنسان إلى أعلى مدارج الكمال ، بترسيخ الفضيلة ، واجتثاث الرذيلة ، ومحاربة مظاهر الزيغ عن الفطرة الإنسانية السليمة ، وقد ترسم الخلفاء الراشدون – عليهم الرضوان- وبعض الصحابة خطا النبي – عليه الصلاة والسلام- . حيث زادوا هذا المنحى النقدي بيانا ، بآراء نظرية وممارسات تطبيقية ، ونجحوا إلى حد بعيد في المحافظة على الشعر من التردي في مهاوي الضلال والفساد .

2- ولقد سجل النقد الخلقي عند العرب حضوره عبر كل العصور ، بداية من صدر الإسلام إلى نهاية المرحلة التي خصِّصت لها هذه الدراسة ، حيث وجد في القرون السبعة الأولى نقاد مرموقون انتصروا لهذا الاتجاه ، و أعطوا برُؤاهم وتصوراتهم أبعادًا جديدة ، تمكنوا نتيجة اشتغالهم في ميدان النقد والأدب وتخصصهم فيه أولا ، وكذا إفادتهم من الجهود النقدية المتراكمة عبر مراحل متلاحقة ثانيا ، وانفتاحهم على الأرصدة الثقافية لأمم أخرى ثالثا ، إذ خاضوا في مسائل دقيقة تخص الإبداع الفني ابتداءً من اللحظات الأولى كتجربة شعورية ، مرورا بأدواته ووسائله ، وصولا إلى غاياته وأهدافه . وتمكنوا بذلك من إخراج النقد الخلقي ، والنقد عموما

،من الانطباعية إلى الموضوعية ، من خلال وضعهم لمعايير مضبوطة ، تسهم في ترشيد المبدعين إلى طريق الإحسان وتنبيههم إلى المزالق التي تحط من القيمة الفنية والأخلاقية للأعمال الأدبية.

3-كما سُجِّل تذبذب في الأحكام الفنية والأخلاقية ، وبخاصة في القرنين الثاني والثالث ، إذ عرفت علاقة الأخلاق بالشعر حالات من المد والجزر ، فوُجِد من النقاد من يأخذ بعين الاعتبار المعيارَ الأخلاقي ، ويلح انطلاقا منه على ضرورة التزام نظام القيم الخلقية ، والدعوة إلى التمسك بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، وسحبوا جهودهم على الشعر ، وربطوا المعايير الفنية بالمعايير الأخلاقية . وفي المقابل وُجِد من النقاد من يتسامح في عدم التأكيد على الخلقي ، حيث قصروا أسباب التقدم على الجوانب الفنية دون مراعاة للمضلعين المعالجة والتجارب المنقولة ، ولوحظ من هؤلاء أيضا من رأى منازع الشر والعصيان هي الميدان الأنسب للشعر ، وولوج المبدعين ميادين أخرى غيرها مدعاة لسقوط شعرهم ، وسببا في ضعفه ولينه .

4-وظهر لنا بعد الاطلاع على الممارسات والآراء النقدية عند العرب قديما ، أن الصراع بين الأحكام الفنية والأخلاقية الذي رأيناه في البيئة المشرقية ، يختفي في المغرب والأندلس . حيث سار كل النقاد تقريبا – في هذا الجزء من العالم الإسلامي – في منحى نقدي واحد ، إذ ربطوا بين الأخلاق والشعر ربطا واضحا ، ووقفوا مستجيبين للمؤثر الديني والأخلاقي ، ودعوا المبدعين إلى تكريس إبداعاتهم لدعم الحركة الإصلاحية الساعية إلى إبعاد المجتمع عن كل مظاهر الانحلال والتفسخ والزيف ، وأعلنوا حربا شعواء ضد كل النزعات المنحرفة ، أو بالأحرى التي لا ترى بأسا في تناول أي شيء وبأي طريقة .

وإذا كان لِما شهدته الساحة المشرقية من تذبذب ظروف وملابسات مختلفة – من سياسية واجتماعية وثقافية – فصَّلنا القول فيها في أماكنها ، فكذلك الأمر بالنسبة لما سجل في البيئة المغربية والأندلس ، فهناك دوافع خاصة جعلت النقاد يسيرون في هذا الاتجاه . ولخصناها في :

- الطبيعة الفكرية والتنشئة الخاصة للنقاد ، فأغلبهم يجمعون بين الثقافة الدينية والأدبية .

- المظاهر الاجتماعية المتفشية في الأمة .

- الحالة السياسية المتردية نتيجة الصراعات الداخلية والتحرشات الخارجية .

5- واتضح لنا من خلال الممارسات والآراء النقدية التي وصلتنا من هذه المرحلة التي خصت بالدراسة ، أن الفن القولي الوحيد الذي دارت حوله جهود النقاد هو الشعر ، ولا نكاد نظفر بآراء تعلقت بالنثر إلا نادرا ، وبخاصة مع الجاحظ وبشر بن المعتز وابن قتيبة . ومن المؤكد أن هذا الاهتمام الواضح بالشعر له ما يبرره . ولعل أبرز عامل جعل النقاد يولون عنايتهم بالشعر ، هو كون المحاولات النقدية الأولى بدأت أو ما بدأت مع الشعر . ودرج النقاد في العصور اللاحقة على هذا الطريق ، وقصروا اهتمامهم عليه ، اقتداء بسابقيهم ، حيث أضافوا خطوات أخرى مهمة ولكنها على نفس الطريق ، يضاف إلى ذلك أهمية الشعر في تلك العصور مقارنة بأهمية النثر ، فخطورة الشعر وتأثيره المتميز حدا بالنقاد إلى محاولة إحاطته بعناية أكبر ، ودراسة أدق تفاصيله وقضاياه . إن انحصار النثر في الرسائل والمقامات والتوقيعات ، جعلته أبعد ما يكون عن الجماهير الواسعة ، الأمر الذي جعل النقاد يغضون الطرف عن هذا الفن القولي ، طالما أنه ليس مصدرا لأي انحراف أو تأثير متميز في العامة ، اللهم إلا بعض الإشارات العابرة هنا وهناك .

6- ووقفنا على أن رواد النقد الأخلاقي عند العرب أكدوا- في تضاعيف كلامهم وفي معرض حديثهم عن القضايا النقدية التي أثاروها – على الوظيفة الأساسية للشعر .

فالشعر عندهم وسيلة إصلاحية تهدف إلى غايات أخلاقية واجتماعية ، ومن هذا المنطلق ، فالمبدعون محتم عليهم الالتزام التام بقضايا الأمة السياسية والاجتماعية ، والسعي إلى المشاركة الإيجابية في حياتهم . ولا يفهم من هذا الكلام أن الذين حملوا لواء عن هذا المنحى يسلبون بآرائهم حرية المبدع . فالمشاركة التي يفترض وجودها ، لا يدفع إليها المبدعون دفعا ، بل تأتي تلقائيا من ذواتهم ، باعتبارهم جزء من المحيط الذي يعيشون فيه . كما لا يفهم أيضا أن الغاية التي يهدف إليها المبدع تشفع له إهماله الجانب الجمالي . فالطريقة المميزة للشعر هي الكفيلة ببلوغ الغاية ، أما التقدم المباشر والعاري للحقائق والتجارب ، فهو من الأمور غير

المستحسنة ، لأن تجريد الأدب من جماليته ضرب لخاصية من خصائصه . وجميعنا يدرك الصلة الوطيدة بـــين الجمال والأخلاق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المصادر و المراجع

أ-المصادر:

1. القرآن الكريم
2. ابن الجوزي :سيرة عمر بن عبد العزيز . تحقيق محب الدين الخطيب . ط : مطبعة المؤيد و المنار . مصر
3. ابن بسام :الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق :د:إحسان عباس ط: الدار العربية للكتاب ليبيا – تونس 1981
4. ابن حزم : رسائل ابن حزم . تحقيق د : إحسان عباس . ط: مكتبة خانجي القاهرة .
5. ابن حزم : طوق الحمامة في الألفة و الإلاف . ط : دار المشرق العربي بيروت 1984.
6. ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر و آدابه . ط: دار الجيل بيروت 1981
7. ابن سلام الجمحي : طبقات الشعراء . ط : مطبعة المدني . القاهرة.
8. ابن شرف :أعلام الكلام . ط1 . مطبعة النهضة . القاهرة . 1926.
9. ابن طباطبا :عيار الشعر . تحقيق : د:طه الحاجري و د: محمد زغلول سلام .المكتبة التجارية الكبرى ، مصر.
10. ابن عبد البر القطبي :بهجة المجالس ، تحقيق : محمد مرسي الخلولي . ط: الدار المصرية للتأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة 1962.
11. ابن عبد الحكم :سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد . ط : عالم الكتب بيروت 1984.

اعتمدت في إيراد المصادر و المراجع وفق الترتيب الأبجدي و بدأت بذكر الاسم ثم المؤلف ، كما أننا أغفلنا ذكر بعض المراجع و المصادر التي أشرنا بالرجوع إليها للتوسع و الاستزادة أو التي كانت اقتباساتنا منها بسيطة جدا.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

12. ابن عبد ربه :العقد الفريد . تحقيق : أحمد أمين و إبراهيم الأبياري و عبد السلام هـــارون ، القـــاهرة 1949.

13. ابن قتيبة :الشعر و الشعراء ط:دار المعارف 1966 و ط:دار الثقافة بيروت 1962.

14. ابن قتيبة :أدب الكاتب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط:

15. ابن هشام : سيرة ابن هشام . تحقيق : مصطفى السقا و آخرون . ط: مصطفى الحلبي 1955.

16. أبو بكر الصولي :أخبار أبي تمام . نشر المكتب التجاري للطباعة و التوزيع بيروت 1937.

17. أبوهلال العسكري :المصون في الأدب . تحقيق : عبد السلام هارون . الكويت 1960.

18. الأصفهاني :الأغاني . ط: دار الثقافة بيروت 1962

19. الأصمعي : فحولة الشعراء . تحقيق :طه الزيني و عبد المنعم خفاجي القاهرة.

20. الألوسي :بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب . ط: القاهرة 1924.

21. الأمير عبد الله: مذكرات الأمير عبد الله . تحقيق بروفنسال . ط: دار المعارف .

22. البغدادي :خزانة الأدب ، تحقيق : عبد السلام هارون . ":مكتبة خانجي 1979.

23. الجاحظ :البيان و التبيين . ط: دار الكتب العلمية . بيروت.

24. الجاحظ : الحيوان . تحقيق : عبد السلام هارون . ط:مصطفى الحلبي 1938.

25. الحصري القيرواني :جمع الجواهر في الملح و النوادر . تحقيق : علي البجاوي . ط: البابي الحلبي 1953.

26. المبرد :الكامل . ط: مؤسسة الرسالة . مصر 1986. و ط: مطبعة التقدم العلمية . القاهرة.

27. المرزباني :الموشح . ط: دار النهضة . مصر 1965.

28. حـــازم القرطاجني :.ديوان حازم . تحقيق عثمان الكعاك . ط : دار الثقافة بيروت . 1964.

29. حـــازم القرطاجني :منهاج البلغاء وسراج الأدباء . تحقيق الحبيب بن الخوجـــة . ط : دار الكتـــب الشرقية . تونس .1966.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

30. عبد العزيز الجرجاني: الوساطة بين المتنبي و خصومه . ط:دار إحياء الكتاب العربية ، القاهرة.

31. قدامة بن جعفر : نقد الشعر . تحقيق : كمال مصطفى . القاهرة 1963.

ب-المراجع :

32. العربي حسن درويش (دكتور).:النقد العربي القديم . ط:مكتبة النهضة المصرية.

33. إبراهيم حمادة : مقالات في النقد الأدبي. ط:دار المعارف القاهرة 1982.

34. إحسان عباس (دكتور):تاريخ الأدب الأندلسي . ط:دار الثقافة. بيروت 1971.

35. أحمد سليمان ياقوت (دكتور):ظاهرة الإعراب في النحو و تطبيقاتها في القرآن الكريم. ط:ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1983.

36. أحمد جمال العمري (دكتور): الشعراء الحنفاء . ط:دار المعارف 1971.

37. بطرس البستاني: أدباء العرب في الأعصر العباسية . ط: دار مارون عبود 1979.

38. جابر عصفور (دكتور): مفهوم الشعر . ط: مطبوعات فرح 1990.

39. داوود غطاشة و حسين راضي: قضايا النقد العربي القديم و حديثها . ط:مكتبة دار الثقافة 1991.

40. رجاء عيد (دكتور): فلسفة الالتزام في النقد الأدبي . ط:دار المعارف مصر.

41. سعد مصلوح (دكتور) :حازم القرطاجني و نظرية المحاكاة و التخييل ط:عالم الكتب. القاهرة. 1980 .

42. طه الحاجري (دكتور) :في تاريخ النقد و المذاهب الأدبية . ط: دار النهضة العربية بيروت 1982.

43. طه حسين (دكتور): من حديث الشعر و النثر . ط:دار الكتاب اللبناني . المجموعة الكاملة ج/5.

44. عباس محمود العقاد :الفلسفة القرآنية . ط:دار الكتاب اللبناني 1984 المجموعة الكاملة ج/7.

45. عباس محمود العقاد :مطلع النور ط:دار الكتاب اللبناني المجموعة الكاملة ج/7.

46. عباس محمود العقاد :التفكير فرضية إسلامية . ط:مكتبة رحاب الجزائر.

47. عبد العزيز عتيق (دكتور) : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ط: دار النهضة 1986.

48. عبد اللطيف الصوفي (دكتور):مصادر اللغة العربية . ط:دار الهدى الجزائر.

49. عز الدين إسماعيل (دكتور):الأسس الجمالية في النقد الأدبي. ط: دار الفكر العربي 1955.

50. علي بن محمد :ابن بسام الأندلسي و كتاب الذخيرة . ط:المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1989.

51. محمد حسن عبد الله (دكتور): مقدمة في النقد الأدبي ط: دار البحوث العلمية 1975.

52. محمد سعيد رمضان البوطي (دكتور): فقه السيرة . ط: دار الشهاب الجزائر.

53. محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور): أبو عثمان الجاحظ . ط: دار الكتاب اللبناني بيروت.

54. محمد عبد المنعم خفاجي (دكتور): الحياة الأدبية في عصر بني أمية . ط:دار الكتاب اللبناني . بيروت.

55. محمد غنيمي هلال (دكتور) :النقد الأدبي الحديث . ط:دار الثقافة و دار العودة . لبنان 1973.

56. مصطفى الشكعة (دكتور) :الشعر و الشعراء في العصر العباسي . ط: دار العلم للملايين بيروت 1991.

57. مصطفى الشكعة (دكتور) :الأدب الأندلسي . ط:دار العلم للملايين بيروت 1979.

58. نايف معروف (دكتور):الأدب الإسلامي في عصر النبوة و خلافة الراشدين . ط:دار النفائس 1990.

59. وليد قصاب (دكتور):شخصيات إسلامية في النقد و الأدب ط:دار الثقافة الدوحة 1992.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـــرس الموضوعـــات

الموضوع	الصفحـــة
- المقدمة	01
- المدخـــل	05
الفصل الاول	
الاتجاه الأخلاقي في النقد الجاهلي	10
- الحالة الدينية و الأخلاقية و الأدبية للجاهليين	11
- نماذج نقدية من العصر الجاهلي	15
الفصل الثاني	
الاتجاه الأخلاقي في نقد صدر الإسلام	20
- الشعر و الإسلام	21
- النقد عند العرب نتاج إسلامي	32
- التحولات السياسية و الفكرية في القرن الهجري الأول و أثرها في النقد	49
الفصل الثالث	
تذبذب الأحكام الفنية و الأخلاقية في القرنين الثاني و الثالث الهجريين	70
- مميزات الساحة السياسية و العلمية و الأدبية في العصر العباسي	71
- عيار التقدم الشعري عند النقاد في هذه المرحلة	76
الفصل الرابع	
الاتجاه الأخلاقي في المغرب و الأندلس	107
- ملامح الحياة الاجتماعية و الثقافية و السياسية في المغرب و الأندلس	108
- المنحى النقدي العام عند نقاد المغرب و الأندلس	114

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الخامس

الاتجاه الأخلاقي عند حازم القرطاجني. 143

- لمحة عن حياة حازم القرطاجني و ظروف نشأته 144

- جهود حازم القرطاجني النقدية و نزعته الأخلاقية 148

- الخاتمة 161

- المصادر و المراجع 165

- فهـــرس الموضوعـــات 169

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص البحث

ميدان النقد الأدبي ميدان واسع ، فعلى قدر تعدد البحوث وتنوعها ، وكثرة الدراسات وتشعبها، تتبدى لنا عند التأمل وإمعان النظر نقاط مظلمة في مسيرة النقد الأدبي عند العرب ، تحتاج إلى دراسات متخصصة تنير دروبها ، وتجلي بعض حقائقها .

من بين هذه الموضوعات قضية الأخلاق وعلاقتها بالأدب . فعلى كثرة النصوص النقدية التي تبدو فيها ملامح النزعة الأخلاقية واضحة ، وتوزعها على امتداد العصور الأدبية المعروفة ، نجد من الدارسين من ينفي وجود نقاد عند العرب قديما حملوا على عاتقهم إرساء دعائم هذا المنحى النقدي المهم والدفاع عنه .

واقتناعا منا بأن الواقع النقدي عند العرب قديما يؤكد خلاف ذلك تماما ، ارتأينا أن نخصص هذا البحث لدراسة "الاتجاه الأخلاقي في النقد العربي القديم "، بهدف التعرف على هذا الاتجاه وأبرز رجاله وأهم معاييره وملابسات نشأته وظروف تطوره .

وكما أشرت في المقدمة فقد اعتمدت في هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي ، ورأيت من الأنسب لبلوغ الغاية المبتغاة إدارة البحث على خمسة فصول ومدخل وخاتمة .

وقبل أن أنطلق في صلب الموضوع رأيت من الضروري البدء بمدخل تمهيدي وضحت فيه بعض المسائل ، كمفهوم النقد الخلقي ، والفرق بين النقد الخلقي والديني ومصدر الأخلاق ...حيث عرفنا أن النقد الخلقي هو النقد الذي يرى بأن يسير الشعر والأدب عموما على مناهج السلوك القويم والأخلاق السامية ، نقد يهدف إلى أن يكون الأدب في خدمة المجتمع ويساهم في بنائه مساهمة إيجابية من خلال التقديم المتميز والمؤثر للمحتوى الأخلاقي . لذا وجدنا النقاد الأخلاقيين يهاجمون الشعر الذي يعبر عن الأهواء والرغبات المنحرفة ، ويمجدون الشعر الذي يهدف إلى السمو بالإنسان ، ويدعم قوى الخير والصلاح فيه . كما عرفنا أن النقد الخلقي لا يتنكر للقيم الجمالية ، بل يلح عليها ، وإنما تعطى الأولوية للحق والخير إذا اقتضى الأمر . وثاني المسائل التي وقفنا عندها في المدخل هي الفرق بين النقد الديني والخلقي ، حيث رأينا أن النقد الديني هو الذي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يصدر صاحبه في أحكامه عن نظرة دينية . أما النقد الخلقي فهو الذي يكون منطلق صاحبه الأخلاق فقط ، وقد يكون ممن لا يؤمنون بالرسالات السماوية أصلا . ذلك أن الإلحاد شيء ، والتمسك بالأخلاق المتواضع عليها شيء آخر .

إلا أن النظرة الأخلاقية عند النقاد العرب تتصل اتصالا حتميا بالدين ، إذ تربط النظرتين علاقة الجزء بالكل . فالأخلاق السامية جزء من التعاليم التي جاء الإسلام لإرسائها . وآخر المسائل التي تطرقنا إليها في المدخل هي مصدر الأخلاق . وخلال تناول هذه القضية بينا أن الفضائل المثلى التي يحمد للإنسان أن يروض نفسه عليها ، يؤمن المسلم بأنها جميعا مفروضة عليه بأمر من الله عز وجل .

ولكن المسلم وغير المسلم يستطيعان معا أن يقولا إنها صفات لا ترجع إلى مصدر غير المصدر الإلهي ، الذي تصدر منه جميع الأشياء ، لأن مناطها الأعلى لم يتعلق بمنفعة المجتمع ، ولا باستطاعة قوة ، ولا بالقانون ، ولا بالسلطان ، ولكنه يتعلق بما في الإنسان من حب للجمال وشوق للكمال ، وكلاهما نفحة من الخالق يهتدي بها الأحياء عامة في معارج الرفعة والارتقاء.

بعد هذا المدخل انتقلنا إلى **الفصل الأول** ، والذي خصصناه للحديث عن الاتجاه الأخلاقي في النقد الجاهلي ، حيث تعرفنا على ملامح الحياة الدينية والأخلاقية والأدبية للجاهليين ، ووقفنا على أن الجاهليين كانت تتراءى فيهم الفطرة الإنسانية السليمة والترعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة كالوفاء والنجدة والكرم والعفة والصدق ...إلا أنهم كانوا – بسبب حالتهم- يضلون الطريق إلى تلك القيم الإنسانية ، فيقتلون الأولاد بدافع الشرف والعفة ، ويتلفون الأموال بدافع الكرم وهكذا .

أما على الصعيد الأدبي فقد وجد من أرباب الأدب من ينافح عن القيم والمبادئ والأخلاق السامية ، المر الذي يمكننا معه تأكيد وجود اتجاه أخلاقي في الأدب الجاهلي ، فقد برزت كل خليقة من تلك الخلائق في حادثة مأثورة مذكورة ، أو مديح تغنى به الشعراء ، ومن البديهي أن تنعكس صور حياتهم بكل ما فيها في أدبهم وأشعارهم بخاصة .

أما النقد الجاهلي فالنماذج التي تناولناها مكنتنا من الوصول إلى نتيجة وهي أن النقد في هذا العصر مـــازال في خطواته الأولى ، ومن الطبيعي أن يكون النقد في مراحله الأولى ساذجا بسيطا غامض الملامح ، ومن غير المنطقي أن نبحث في هذه النماذج القليلة عن اتجاهات ومذاهب نقدية مكتملة السمات واضحة المعالم .

و بعد الفصل الأول انتقلنا إلى **الفصل الثاني** ، والذي جعلناه لمعالجة الاتجاه الأخلاقي في صدر الإسلام . واستوقفتنا في بداية هذا الفصل قضية الشعر والإسلام ، حيث وقفنا على التوجيه الصحيح للآية الكريمة الـتي يقول فيها الله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون ..." وعالجنا بشكل مستفيض مسألة ضعف الشعر في عصر صدر الإسلام من خلال إيراد أقوال العلماء الذين حكموا على الشعر – في هذا العصر – بالضعف واللـــين ، وبعد إثبات حججهم التي استندوا عليها في أحكامهم رحنا نفند هذه الأخيرة حجة حجة ، ونؤكد خلافـــها بأدلة وبراهين واضحة في دلالتها على بطلان دعوى من قال بهذا الرأي .ووصلنا إلى أن الفراغ المزعوم تنكـره حقائق الاستمرار ، كما لا يعين عليه الإحصاء . فالساحة الأدبية في هذا العصر عرفت الكثير الكثـــير مـــن الشعراء ، كحسان بن ثابت ، وكعب بن زهير ، والحطيئة ، وأبو محجن الثقفي ، لبيد ، كعب بن مـــالك ، وعبد الله بن رواحة ... وغيرهم (1)

فبعد أن أتيح للشعراء الإسلاميين من يحقق لهم دواوينهم وينشرها ، فلا بد أن يعاد النظر بدراســته وتقويمــه والحكم عليه .

وأما المبحث الموالي فقد حاولنا فيه أن نقف على اللحظات الأولى لميلاد النقد الخلقي ، حيث تأكدنـا من خلال رؤى وتصورات ونماذج نقدية منسوبة للرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- وخلفائه الراشـدين وبعض صحابته عليهم الرضوان.أن النقد الخلقي عند العرب نتاج إسلامي أملته ظروف الحياة الجديدة ، والـتي كان الإسلام سببها .

فقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم- وخلفاؤه ومن يهمهم حماية الأمة وصون أخلاقها يحثون

---

1 . ارجع إلى الفصل الثاني . ص: 29.

الشعراء على أن يترفعوا عن الشعر الماجن ، وأن يبتعدوا عن التجارب التي غايتها التسلية وتشـــجيع الرذائـــل وتكريس السلبية .

كما سجلنا اتفاق أعلام النقد في عصر صدر الإسلام ، فقد انطلقوا في ممارستهم النقدية من نظرة واحدة ، ولا يوجد في حدود علمنا من اختط لنفسه وجهة مخالفة للاتجاه النقدي العام في تلك المرحلة .

بعد ذلك عرضنا للتحولات السياسية التي وقعت في منتصف القرن الأول الهجري وأثرها علـــى الصعيديـــن الاجتماعي والأدبي ، حيث رأينا أن الساحة السياسية عرفت الكثير من الخلافات والثورات ، أما على الصعيـد الاجتماعي فقد طغت بعض مظاهر الجاهلية وسلوكاتها .

كما أن الساحة الأدبية عرفت عودة بعض الفنون الأدبية الجاهلية كالفخر الكاذب و المنافرات . كما ظهرت أغراض شعرية جديدة كالشعر السياسي ، وازدهرت أخرى كالمدح والحماسة ووصف المعارك ورثاء القتلى.

إن هذه التحولات كان لها أثرها أيضا في ميدان النقد ، فذلك الاتفاق الذي لوحظ في عصر صـــــدر الإسلام بدأ في الاضطراب حيث أن النقاد في هذه المرحلة تجاذبتهم اتجاهات مختلفة أو بالأحرى أصبح الجـلنب الأخلاقي غير محترم عند بعضهم . كل ذلك نتيجة ظروف وملابسات حصرناها في :

- الظروف السياسية والاجتماعية التي ميزت النصف الثاني من القرن الأول والتي كانت ســببا في انحـــراف الشعر وانتكاسه في دعاوى و شطحات جاهلية كانت بدورها سببا في ظهور نقاد جاروا شعراء معاصرين لهم في تمردهم على أعراف المجتمع الإسلامي وأخلاقه ودينه ، واستلهموا منهم معايير لا تجد بأسا في تقديم أشعار عبثت بكل شيء .
- كما أن هذا الانحراف راجع إلى رقة إسلام بعضهم ، وإلى بداية بوادر الموجة التي ستظهر بقـــــوة علـــى الساحة الأدبية ، والتي تدور حول ضبط قواعد اللغة ، مما دفع العلماء إلى جمع الشعر وشرحه واســتخراج قواعد لغوية منه ، منعا من وقوع اللحن في القرآن الكريم .

هذه الغاية حالت في الكثير من الأحيان دون إعارة المحتوى الأخلاقي للشعر أي اهتمام ، طالما أنه يقدم فائدة يطمح إليها خاصة اللغويون ، وتصبو أنفسهم للوصول إليها .

أما الفصل الثالث فقد تناولنا فيه النقد الخلقي في القرنين الثاني والثالث الهجريين .وقبل الوقوف على التذبذب الذي شوهد في ميدان النقد بين الأحكام الأخلاقية والفنية ، وتناول بعض النقاد الذين مثلوا هذا الاتجاه أو خالفوه ، وتحليل آرائهم . حاولنا الغوص في الحياة العامة بجوانبها المختلفة السياسية والعلمية والأدبية خلال هذه المرحلة –ولو بشكل موجز– ، كل ذلك سعيا وراء إيجاد تفسير لهذا الانحراف الذي زاوله بعض النقاد . ففي هذين القرنين والذي يليهما ، وجد من النقاد من يتبنى النظرة الأخلاقية وينافح عنها ، كما وجد من يغفلها ويتسامح في عدم التأكيد عليها ، والسبب في ذلك راجع إلى الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية التي ميزت هذه المرحلة ، وكذا التكوين الخاص لكل ناقد وطبيعته الفكرية . فالذين اكتفوا بالمعيار الفني إنما هم في الحقيقة من أنصار الشكل من اللغويين والنحويين والجماليين ، الذين رأوا في الشعر وسيلة تمدهم بما يحتاجونه من مادة لغوية ، وما يستلهمونه من قواعد نحوية وصرفية ، وما تجلب لهم من متعة فنية خالصة بصرف النظر عن المضامين .

أما من أكد على العلاقة بين المعيار الفني والمعيار الأخلاقي فهم العلماء والأدباء الذين آمنوا بالوظيفة الاجتماعية للأدب ، ومن ثم بنوا دراساتهم النقدية على هذا الفهم ، وعلى ضوئه وضعوا المقاييس التي يتم من خلالها تمييز الجيد والرديء من الشعر .

إضافة إلى هذا التذبذب سجلت ظاهرة إيجابية وهي ميل النقاد إلى التعليل ، فقد اتسمت جهودهم بكثير من النضج ، حيث أصبحوا يخوضون في الكثير من القضايا الدقيقة بوعي كامل ودراية واسعة بخفايا الشعر وأسرار صناعته .

وقد مكن النقاد من بلوغ هذه الدرجة اطلاعهم وإفادتهم من جهود سابقيهم عبر العصور المتلاحقة ، وكذا انفتاحهم على منجزات الأمم الأخرى في ميدان النقد والأدب ، وبخاصة اليونان .

والفصل الرابع انتقلنا فيه من الحديث عن النقد الأخلاقي في البيئة المشرقية إلى النقد الأخلاقي في البيئة المغربية . ووفاء بالمنهج الذي انتهجناه منذ البداية ، وحتى يتسنى لنا الوقوف على أسباب ومبررات سيطرة النزعة الأخلاقية على الساحة النقدية في هذا الجزء من العالم الإسلامي . تعرفنا بادئ ذي بدء على ملامح الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في المغرب والأندلس . بعدها حاولنا تحديد المنحى النقدي العام عند نقاد المغرب والأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين من خلال بعض أعلام النقد ، حيث تناولنا آراءهم بالشرح والتحليل ، واستخلصنا الدوافع الحقيقية التي جعلت النقاد في المغرب والأندلس يلتفون حول هذا الاتجاه ، ولا يصدرون في أي رأي من آرائهم إلا على هدي من النظرة الأخلاقية ، وحددنا هذه الدوافع في :

-الطبيعة الفكرية لنقاد البيئة المغربية حيث أن جلهم ذوو ثقافة دينية ، فمنهم الفقهاء ومنهم علماء العقيدة ، هذا الأمر جعلهم يسيرون تلقائيا في منحى واحد ، وهو سعيهم إلى توجيه الأدباء والشعراء للابتعاد عن الأغراض والمضامين التي تثير الريبة الدينية والأخلاقية ، والتي عادة ما تعود بالسلب على المجتمع كالهجاء والغزل .

- أما الدافع الثاني فهي الظروف السياسية التي ميزت المغرب والأندلس ، إذ تميزت الساحة السياسية بعدم الاستقرار نتيجة الصراعات الداخلية وتحرشات المماليك النصرانية ، مما أدى إلى تزعزع عز المسلمين بعد أن تفرقت كلمتهم وخارت قواهم .

فهذا الواقع لم يكن ليخفى على نقادنا ، مما حدا بهم إلى محاولة تنبيه الشعراء والأدباء إلى ضرورة تبصير الحكام والناس بواقعهم وكشف خفاياه ، لا أن يزيدوا الطين بلة ، فيمدحوا هذا أو ذاك ، ويؤلبوا هذا على آخر ، ويخوضوا في شطحات تنال من عزيمة الناس ونخوتهم وأخلاقهم ، سعيا وراء الحظوة حينا ، ونشر بذور الفتنة وأسباب الفرقة والتنافر بين الناس حينا آخر .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إن النقاد في البيئة المغربية حاولوا – بحسهم اليقظ وتفطنهم للفتنة التي تعصف بالأمة– بيان دور الأديب الذي يحتم عليه الاطلاع على قضايا أمته وينظر إليها نظرة خبير بما ينبغي أن تكون عليه ، فإذا وجدهـ غير كذلك ، اصطنع الوسائل الفنية المناسبة لإيقاظها من غفلتها ، وتبصيرها بأمورها بلا تعمية ولا تزييف .

أما الفصل الخامس والأخير فقد بقينا فيه مع ناقد مرموق من نقاد البيئة المغربية في القرن السابع الهجري وأعني به " حازم القرطاجني " ، حيث تعرفنا في هذا الفصل على بعض جوانب حياته العلمية وظروف نشأته ، للإحاطة بالملابسات التي جعلت منه ناقدا متميزا أولا ، ولتعليل سبب جنوحه إلى النقد الأخلاقي ثانيا ، ووفاء للمنهج الذي رسمناه ثالثا . بعده انتقلنا لمعالجة أهم آرائه التي لها صلة بموضوع دراستنا ، إذ عرضنا لهـ بالشرح والتحليل والتفسير . ووصلنا في ختام هذا الفصل إلى أن حازما سار على خطا النقاد الأخلاقيين، لكنه كان في معالجاته النقدية أكثر وعيا وتفتحا وإحاطة بخفايا الشعر والنثر على حد السواء ، حين أضاف رؤى وتصورات ارتقت بالنقد إلى درجة مرموقة جدا ، كما أسهم في وضع النقد في إطاره الأخلاقي الذي يحتفظ له وللشعر بجدواه وأهميته . فهو لم يصدر في أي رأي من آرائه إلا عن هدي من نزعة أخلاقية تشف عن نفسها في ثنايا كتابه من بدايته إلى نهايته .

وأشرنا في هذا الفصل إلى أن الجوانب التي تناولنا بعضها فيما يتعلق بثقافته و شاعريته والظروف السياسية والاجتماعية التي مرت بها الأمة في الأندلس والمغرب ، ومعاناته الشخصية جراء ما عاشه في تلك الحقبة ، وتمكننا من فهم الدوافع التي جعلته يسير متأثرا بالنزعة الأخلاقية في شعره ، وفي مؤلفه النقدي الشهير " منهاج البلغاء وسراج الأدباء " .

وقفينا البحث بخاتمة ضمناها أهم النتائج التي توصلنا إليها خلال هذا البحث ، وحصرناها في :

– أن النقد الخلقي عند العرب نتاج إسلامي .

–وأن النقد الخلقي عند العرب سجل حضوره عبر كل العصور ، بداية من صدر الإسلام إلى نهاية المرحلة التي خصصت لها هذه الدراسة ، أي القرون السبعة الأولى الهجرية .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

- وأن الوظيفة الأساسية للشعر عند النقاد الأخلاقيين هي وظيفة اجتماعية أخلاقية .

- كما أن الآراء والممارسات النقدية التي وصلتنا من هذه المرحلة دارت كلها تقريبا حول الشـــعر ، ولا نكاد نظفر بآراء تعلقت بالنثر إلا نادرا .

- كما سجل تذبذب في الأحكام الأخلاقية والفنية وبخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين .

- وظهر لنا أن الصراع بين الأحكام الفنية والأخلاقية الذي لوحظ في البيئة المشرقية اختفى في المغرب والأندلس ، حيث وقف نقاد هذا الجزء من العالم الإسلامي مستجيبين للمؤثر الديني والأخلاقي .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

to justify his shift to moral criticism adter that , we tackled his points of view which have relation with our study we come at conclusion that HAZEM followed the same pathway of the moral critics , but he was more sensitive , and he knew every thing about poetry and literature.

He added views that developed criticism and he also put it in its moral status in order to preserve an ideal place for poetry .So , e was influenced by the moral tendency in his poetry . of course this is due to his sufferings in this period and the different political and social conditions in Andalous and Maghreb.

As a conclusion , we mentioned the main results of this report :

- The Arab moral criticism is an Islamic result.
- The moral criticism marked its existence from Islam until the seventh century .
- The fundamental function of poetry for moral critics was a social and moral one.
- All views and practical criticism from this period spoke about poetry and almost neglected writings and tales (literature).
- The fluctuation of artistic and moral notions in the second and third centuries of ELHIDJRA.
- It seemed to us that the conflict between artistic and notions which was seen in the eastern environment disappeared in Maghreb Andalous.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Those who were interested in the form were the linguists and the grammarians thought that poetry was the source of linguistics and grammar and aesthetic values without giving … to the content.

There were a number of scientists who believe of the social role of literature and built their critical studies on the well understanding of the relation between the artistic and moral criteria , and thus put some criteria to discriminate between the poetry and the weak one.

In addition this fluctuation , we noticed a positive turning point which was the shift of the critics to argumentation . they tackled the different themes deeply and sensitively. They knew every thing concerning poetry and how it was made.

Of course they reached this after reading all what have been done by the previous critics , and their

opening on what have been done by other nations in the fields of literature and criticism and [illegible]

in the fourth chapter , we shifted from speaking about moral criticism in the eastern environment , to the moral criticism in the Maghreb. And in order to know all the justifications which made the moral tendency dominated the critical scene in this part of Islamic word. We knew first some aspects about social , cultural , and political life in Maghreb and Andalousie .After that , we tried to know the kind of criticism that existed in these regions in the fifth and sixth and centuries from some famous critics. We tackled their opinions , and conclude the concrete reasons that lead these critics adopting this theory.

Those reasons were :

- The nature of their thoughts (critics) :te majority of them had a religions culture .This lead them to go spontaneously to work for one aim .They orientated poets and writers to avoid writing topics which put morality and religion in a state of doubt like pamphlets and poems.
- Secondly , the political conditions that characterised Maghreb an Andalous . The political scene lived in instability due to interior conflicts and outside attacks of course , Muslims became powerless unglorified.

Here poets tried to inform people about their critical situations they were living , and to sensitise the masses about the bad consequences of this situation .

Critics in the Maghreb tried to show the role of literature and poetry in society to find remedies and to propose the necessary solutions to improve the standard of living.

In the last chapter , we dealt with a well-known critic from Maghreb in the seventh century of ELHIDJRA who was "HAZEM EL KARTAJENI".In this chapter we knew something about his scientific life which made of him an exceptional critic firstly . Secondly ,

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

HASSAN BEN TABET –LABID-HOTAIA-KAAB BEN ZOHIR ,etc... After that we tried to focus on the primary moments of the birth of moral criticism , we were assured from some critical models and conceptions attributed to our prophet and his successors that moral criticism is an Islamic result.

Our prophet and his successors encouraged poets to stop saying poetry which deemed a public danger .What is important also , was that all scientist in Islam started from a unified practical criticism , and no one took a specific way of his own.

After that we presented the political changments which happened in the middle of the first century ELHIDJRA and their impact on the social and literary fields : we saw that the political scene knew many conflicts and revolution , and social fields knew some pre-Islamic behaviours.

Concerning the literary scene , it knew the appearance of new poetry models such as political poetry and the development of other models like describing battles and elegy.

All these changements have their influence in the field of criticism in the Islamic era .But every thing was spoiled and disrupted later on . All the critics did not pay attention to morality and this was due to the following:

The political and social conditions that characterised the second half of the first century , and the appearance of critics and contemporary poets who rebelled against the beliefs and traditions of the Islamic society and its morality and religion , and have in mind conceptions which destroyed everything.

This deviation was due to the elasticity of Islam of many , and the beginning of new current of thought on the literary scene about adjusting the grammar of the language , this lead to gather and explain poetry to conclude grammatical notions in order to avoid making mistakes when reading the Koran.

This aim was an obstacle towards giving importance to the moral content of poetry since it gave a great benefit especially for linguists.

Concerning the third chapter , we tackled the moral , criticism in the second and third century of EHHIDJRA .And before speaking about the fluctuation in the field of criticism between morality and modalities , we tried to have some ideas about the general mould of life (political , scientific and literary) during this period briefly in order to find some explanations to these fluctuations .In these two centuries , it was found that there were critics who adopted morality as principle .At the same time there were others who forgot about it . This was due to the political , cultural and social conditions which characterised this period and the specific formation of critics .

Return to the 2nd chapter p.29

THE GENERAL IDEA OF THE STUDY

The field of literary criticism is very wide .And inspite the different reports and studies , we can say that there are too many dark points in the itinerary of the Arab literary criticism which requires a special and deep studies.

Among these subjects we have the theme of morality is clear enough . We have also a great number of scholars who ignored the existence of the Arab critics in the past who defended this idea . And since we are convinced that the reality was just the opposite , we decided to reserve this report for the study of the historical and analytical methodology.

Before tackling the body of the report , I see that starting with an introduction to illustrate some notions like moral criticism and the difference between moral and religions criticism, and the source of morals is more than the necessary.

So , we knew that the moral criticism is the one which directed poetry and literature en high moral standards , and aimed at making literature in the service of men , and participated in the building of societies by its moral content .That is why we found that moral critics attacked poetry which was deemed a danger to public morals , and glorified poetry which aimed at encouraging good morality , in addition , this moral criticism gave too much importance to aesthetic values , and when necessary gave priority to good will and right , The second thing in this introduction is the difference between moral and religions criticism . This last has a religions as its starting point and nothing else .We may have critics who did not believe in holly books , but believing or neglecting these holly books has nothing to do with morality , but the ARAB Critics saw that morality was related to religion. Islam instead on morality , so the Muslims believe that they are God's instructions.

Both Muslims and non-Muslims can say that these characteristics existed since men like beauty and perfection so that their source is not religions.

In the first chapter we tackled morality in the pre-Islamic criticism , and we noticed that morality was something innate in them , but because of their ignorance they buried their children and wasted their money .Concerning literature , we found that morality existed and it was reflected on their lives.

Concerning the pre-Islamic criticism , we tackled many samples , and found that they were in their first steps of course , in these few samples we can not find schools.

In the second chapter , we spoke about morality in Islam , and especially the theme of poetry and Islam . Of course we spoke about the weakness of poetry in this period by giving arguments of scientists who assumed that weakness .But all their arguments were not

ALGERIEN REPUBLIC DEMOCRATIC AND POPULAIRE

Ministre of super enseignements

and scientific search

University of Islamic sciences

EL-AMIR ABDELKADIR

-CONSTANTINE-

Department of literature

and human sciences

Filer : Arab Language

Theme

THE MORAL TENDENCY IN THE OLD ARABIC CRITICS

-here birth and development-

Realised by

KERBOUA AZZOUZ

Supervised by

Dr : AHMED RAHMAN

Year 1999-2000

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

Et que pendant les troisième et deuxième siècles de L'HEGIRE, une sorte de dichotomie a été constatée entre la critique morale et la construction poétique.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

et religieuse. Après nous avons Etudie les changements politiques survenus au milieu du premier siècle de L'HEGIRE.

Et son influence sur les domaines sociale et littéraire puisque nous avons constaté une dérive des poètes de la ligne morale sous l'influence des nouvelles vues venues d'occident.

Chapitre troisième a été réservé à l'étude de la critique morale durant, le deuxième et troisième siècle de L'HEGIRE.

Comme nous avons insisté sur les causes de cette dérive constatée par l'éloignement de la moralisation de la poésie malgré que pendant cette même période il y avait beaucoup de poètes qui croyaient à un rôle socialisant et responsabilisant de la poésie et par de la sa nécessaire conformité avec la morale.

Chapitre quatrième : a été réservé pour l'étude de la critique morale au sein de la société Maghrébine.

C'est ainsi que les multiples facettes de la vie sociale politique et religieuse ont été explicite au Maghreb et en Andalousie ainsi que les causes, de l'omniprésence de la critique a tendance Morale dans leurs Œuvres comme nous avons exemplifié nos dires par les travaux littéraires de quelques illustres poètes Andalous et Maghrébins pendant le cinquième et sixième siècle de L'HEGIRE. Ces derniers qui avaient pour vocations premières : la théologie et la jurisprudence ; leurs ouvres littéraires été en Majorité a connotation morale où moralisante, c'est ainsi que nous avons constaté une abondance de la production poétique purement socialisante idéale. L'instabilité politique à cette époque la a largement participé à la moralisation des œuvres produites et qui tendaient à resserrer les rangs et responsabiliser les dirigeants pour stimuler une prise de conscience face aux multiples dangers socio-politiques qui guettaient leurs sociétés.

Chapitre cinquième : ce chapitre a été dédié à un illustre critique littéraire a tendance morale au septième siècle de L'HEGIRE (HAZIM EL KARTAJANI) nous avons étalé sa vie scientifique, et les conséquences générales qui prévalaient pendant son temps. Et ce pour pouvoir cerner les causes qui l'ont poussé à adopté cette tendance moralisante de la critique littéraire arabe.

Finalement nous avons établi une étiologie dans lequel nous avons réaffirmer que la critique morale chez les Arabes est d'essence Islamique et religieuse.

Et que cette critique s'entendait du tout début de l'islam jusqu'au septième siècle de L'HEGIRE.

Que la mission principale de la poésie chez les moralistes et purement socialisante.

Résumé

Bien que, le champs de la critique littéraire chez les Arabes est très large ; N'empêche qu'un regard nouveau et approfondi sur le cheminement de la tendance morale doit être apporter en fait la présente étude, tende à prouver et clarifier l'existence d'une influence moralo-idiologique sur l'ouvre critique arabe ainsi nous allons développer les bases se cette tendance, et ses principaux protagonistes, pour se faire j'ai adopté la technique historico-analytique tout au long des cinq chapitres de la présente étude.

J'ai choisi de commencer par un petit prologue dans lequel j'ai explicité la notion de la critique Moralo-idiologique, l'origine des Mœurs...

C'est ainsi que cette tendance a pour but de moraliser la littérature, c'est à dire faire produire des ouvres littéraires, qui sont en totale harmonie avec les principes de la bonne morale.

Une des principales problématiques discutées dans cette recherche est la déférence entre critique morale et critique idéologique, cette dernière dont les protagonistes se basent purement sur l'avis religieux, par contre la tendance moralisante est d'essence sociale qui tend à la conformité de l'ouvre littérature avec la morale sociale. La dernière problématique abordée est celle de l'origine de la morale.

Sur ce point particulier toutes les religions monothéistes. Sont d'accord que l'essence de la morale est exclusivement religieuse.

Chapitre premier a été pratiquement réservé a la critique morale pré-islam est nous avons constaté l'existence de prémices de la critique morale qui été sujette a la notion humaniste des lettrés de l'époque comme nous avons explicité quelques exemples significatifs.

Chapitre deuxième ; Nous avons dédié nos efforts pour étudier la critique morale au début de l'ère Islamique et répondre à ceux qui ont nier l'existence d'une renaissance littéraire et poétique au tout début.

De l'aire islamique, et ou nous avons de multiples exemples sur l'existante d'une activité littéraire remarquable et de haut niveau moral comme se fut le cas des grands poètes islamiques tels : HASSAN IBN TABETH ,KAAB , IBN ZOHEIR , EL-HOUTAIA....

Comme nous avons relevé l'insistance du prophète et ses successeurs sur la nécessite de rendre conforme la production littéraire à leurs nouvelles réalités sociale

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

Ministère de l'enseignements supérieur

et la recherche scientifique

Université des sciences Islamique

EL-AMIR ABDELKADIR

-CONSTANTINE-

Département littérature

et sciences humaines

Filière : Langue Arabe

Thème

LA TENDANCE MORALE DANS LA CRITIQUE ARABE ANCIENNE

-Sa naissance et son Développement-

Réalisé par

KERBOUA AZZOUZ

Encadré par

Dr : AHMED RAHMANI

L'année 1999-2000